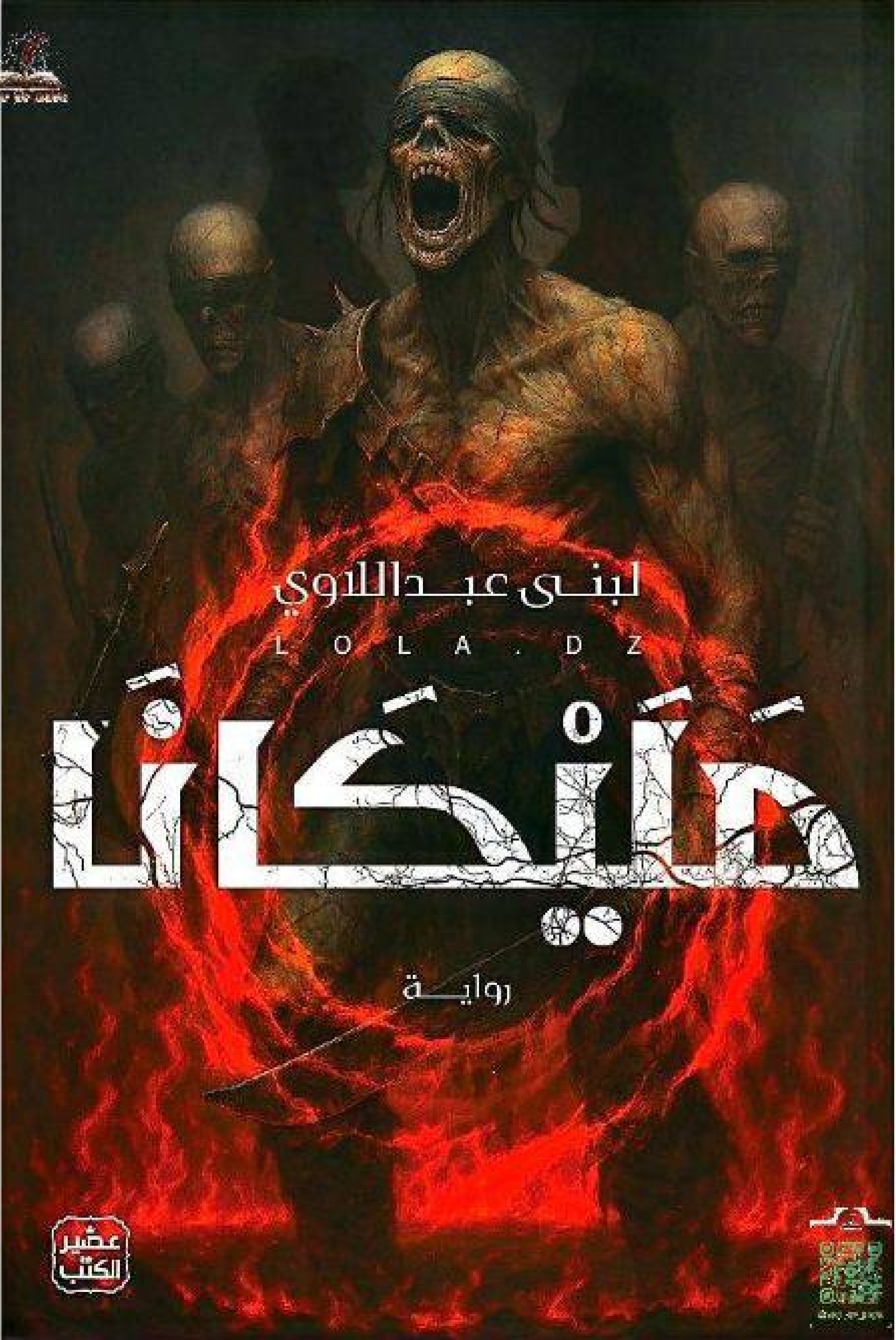
لبنى عبداللاوي
L O L A . D Z
هايكانا
رواية
عصير الكتب

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

هاهاها!...

الآن بعدما دخلت، لن تستطيع الخروج!

سأحطمك... وأمزقك... ثم أعيد تشكيلك ثم...

انتظر لحظة، هل تسمع؟

صرخاتُ امرأة... رُوح دخلت قبلك، سأكسرها أولًا ثم أعود إليك... لكن قل لي، هل تسمعها؟

امسح لتسمع (اختياري)

@art_of_book

لو تجسد الجنون في صوت لكان هذا صوته، دوي صرخات متتابعة يليها تصفيق كأنه انفجار طُبُولٍ من أفواه الجحيم. الأصوات تتصاعد من أعماق ساحة التعذيب سُوبْكُتِيس تلتف حول الصخور تزحف على الجدران وتصعد نحو سقف البرج تصفع الحجارة بصدى يشبه النحيب، مزيج غريب من الرعب والانبهار، من الألم والخضوع، طقوس تتكرر منذ قرون دون أن تتغير خُلقت فقط لتذكرني بمَن أكون:

- مَلَيْكَانَا! مَلَيْكَانَا!

لم أستجب ولم أتحرك، كنت واقفة أمام مرآتي التي كانت تتفحصني بعمق كما لو أنها تحفظ ملامحي منذ زمن سحيق. غرفتي سوداء مُعتمة لا يزورها الضوء إلا ما تسكبه المرآة المشروخة المائلة في الزاوية التي تشققت ذات شتاء ولم تُرمم، الجدران حجرية صامتة، الأرضية تنضح برطوبة لا مصدر لها والسقف أقرب إلى فراغ مطلسم وكل ما في الغرفة ينتمي إلى شيء واحد فقط: الصمت، لكن حدة الصرخات اخترقته دون إذن!

مسحت آخر قطرة دم عن وجهي، لم يكن دمي، بل دم الروح الأخيرة التي عذبتها وما تبقى في داخلي لم يكن ندمًا ولا رحمة، بل شيء ثقيل يشبه الاشمئزاز. نظرت إلى انعكاسي لا لأتأمل ملامحي، بل لأبحث عن صدع أو إشارة تقول إنني ما زلت أشعر. لكن المرآة واصلت التحديق إليّ بقسوة، تردد صدى موتي الداخلي.

الوجه الذي واجهني لم يكن لي، بل لامرأة غريبة أعرفها جيدًا. ثوبها الأسود يلف جسدها كدخان منهك، بشرتها شاحبة، عروق سوداء بارزة تمتد من عنقها حتى المعصمين، شعرها طويل مبتل لا يجف، أما عيناها فخضراوان جميلتان لكنهما تحملان بريقًا غريبًا لا يخص هذا العالم.

يقولون إنني ما زلت أخطف الأنفاس، أسرق النظرات حتى قبل أن ترمش، أزرع الصمت حيث تمر خطواتي، جميلة حد الذهول... أما أنا فلا أرى سوى ملكة بقلب لا ينبض.

سمعت خطوات مألوفة تتسلل خلف الباب وتطرق بخفة، فعرفت أن لَازَار تقف هناك، الهامسة وقائدة جيش الهامِسِين، الوحيدة التي أسمح لها بعبور هذه العتبة، فقلت:

- ادخلي.

دخلت بصمت، عيناها إلى الأرض لا تتنفس إلا بإذني، شعرها أسود قصير وبشرتها رمادية، ثوبها الأبيض ممزق من الكتف حتى الركبة، عينها اليمنى مفقودة وحلت مكانها حفرة جلدية داكنة، أما اليسرى فسوداء بالكامل لا يظهر فيها أي ضوء كأنها غياهب جب وعروق سوداء كالتي تملأ جسدي تمتد من عنقها حتى أطراف أصابعها. قالت:

- أعتذر مَلَيْكَانَا... لكن روحًا جديدة وصلت الآن.

رفعت رأسي نحوها دون أن أتحرك وقلت:

- بهذه السرعة؟ لم يهدأ صدى السابقة بعد.

أجابت:

- يبدو أنهم يتدفقون بكثرة هذه الأيام.

أمسكت بالمشط الحديدي وبدأت أمشط شعري خصلة بعد خصلة حتى تبللت أصابعي من ثقله، نظرت إليها عبر المرآة فرأيتها تتوقف أمام باب جانبي صغير شبه مخفي خلف الستائر السوداء. سألت بدهشة:

- ما هذا الباب؟ لم أره من قبل.

استدرت نحوها فجأة وقلت:

- لا تفتحيه.

تقدمت بسرعة أغلقت الباب بقوة ثم همست لها بحدة:

- ابتعدي عما لا يعنيك، أنا أقدرك... لكن تعلمي حدودك.

ART_OF_BOOK

عاد الصراخ أقوى هذه المرة، أعمق، أكثر اختراقًا، صرخات امرأة تبكي وتستغيث.

قلت:

- نسمعها من هنا ونحن في أعلى البرج!

قالت لَازَار:

- نعم، صوتها مزعج... العبيد واجهوا صعوبة في سحبها من العالم الخارجي إلى كَوْسَانُوكْتِيس، كانت تقاوم وتكرر أن هذا العالم لا يخصها.

ضحكت ضحكة باردة تميل إلى السخرية ثم قلت:

- جميعهم يقولون ذلك... ولهذا، لا يخرج أحد.

أعدتُ المشط إلى الطاولة ومشيت نحو الشرفة الكبيرة المفتوحة، تسلل الهواء البارد إلى بشرتي ودفع الريح شعري إلى الخلف، وضعت يدي على الحافة وحدقت إلى العالم أمامي وهمست:

- آه، كَوْسَانُوكْتِيس...

كم تمنيت أن يراه البشر من خلال عيني، السماء سوداء مليئة بشرارات لا نجم فيها ولا نور، الأرض طينية ملوثة تناثرت على سطحها العظام والجماجم، طيور عملاقة تطير في الأعلى لا تشبه ما عرفه البشر؛ أجسادها مكسوة بالشوك، ريشُها يقطر دمًا ورائحتُها تخترق الأنف برائحةِ نتنةٍ خانقة.

من علُو برج القلعة، امتد بصري عبر الطريق الحجري الطويل حتى الساحة العظيمة المستديرة: سُوبْكُتِيس، ساحة العذاب والاختبار في قلب كَوْسَانُوكْتِيس، يطوقها لهب أبدي لا يخمد وحولها تتزاحم الحشود وتتعالى الصرخات والجنود مصطفون يترقبون.

@ART_OF_BOOK

الهامِسُون.. جنودي: مخلوقات بشرية مشوهة بأجساد بيضاء ميتة تلتف حولها عروق سوداء كأنها حبال خنق، صامتون دومًا لا يتكلمون ولا يصرخون ولا يتألمون، يهمسون فقط في آذان الأرواح، يحملون أسلحة مختلفة، منجل مكسور، رمح بلا رأس وشفرات ملتوية وكلهم يتبعون لَازَار القائدة الوحيدة التي ما زالت تملك إرادتها والتي تقف الآن خلفي.

ثم هناك الدَامُون، جنودٌ آخرون على عكس الهامِسِين، معروفون بضجيجهم، أصواتهم مرعبة، لا يمكن تسميتهم وحوشًا فحسب، بل عذابًا حيا، ينهشون أنفسهم، يحركون رؤوسهم كمن فقد عقله، يصرخون بلغات منسية، دروعهم من العظام، وجوههم ممزقة، أعينهم محروقة أو مخيطة، أجسادهم أقوى لكن أرواحهم محطمة وكلهم يتبعون قائدهم وسيدهم، ذاك الذي لا أزال أراه في كل شيء.

لكل جيش قائد... لكنني أنا الملكة، أنا الكل!

خارج صفوف الجنود يتحرك الكُوْسِيُون، العبيد، أرواح محطمة عيونهم بلا نور، أقدامهم مكسوة بالطين، يجرون الجثث، ينظفون الدم، يبنون الجدران، ثم يُنسَون في الزوايا. نظرتُ إلى أقصى الساحة حيث كان اثنان من الكُوْسِيِين يجران نحو المركز جسد أنثى تُقاوم بشراسة، لم أرَ ملامحها بعد لكن الصراخ والشعر الطويل والارتجاف دلوا على شيء واحد: دخلت روح جديدة وهي تصرخ، تتهاوى عظامها وتتحطم واحدة تلو الأخرى. تأملت المشهد بصمت ثم قلت:

- أنا لا أمل من هذا المشهد... لا أمل من مشاهدتهم.

الكل يصرخ باسمي:

- مَلَيْكَانَا! مَلَيْكَانَا! جاء وقت الحكم.

الجميع ينادي، وأنا أبحث عنه، ذلك الحقير، أبحث في العيون بين الجموع لكنه ليس هنا بعد، أعلم أنه يراقب فقط من مكان خفي.

قالت الهامسة بصوت خافت:

- هل تظنين أن العالم الخارجي تغير؟ هل انتهت اللعنة؟

أجبتها دون أن ألتفت:

- لو انتهت لما تدفقت كل هذه الأرواح إلى هنا.

ثم همستُ:

- لكن... هل يعرفون؟

قالت لَازَار:

- من؟

نظرت إليها طويلًا وقلت:

- من يقرأني الآن، من يسمع صوتي بين الكلمات.

ابتسمتْ بخفة وقالت:

- سنخبرهم.

قلت:

- لا، لن أخبرهم، سأجعلهم يعيشون وسيتبعونني، من الآن كل من يقرأ هذه الكلمات صار جنديًا في جيشي.

وفجأة، ارتج الهواء خلفي، رياح عنيفة اندفعت من خلف الشرفة وعندما استدرت... كانت هي. غازُولا، الناهِشَة، وحش طائر ضخم يملأ السماء رأسها مزيج بين ذئب وغراب جسدها مغطى بالأشواك وأجنحتها عظمية وصريرها يصم الآذان، لا تملك قدمين، بل تسبح في الهواء كأنها خُلقت من الريح والوحل.

مددتُ يدي لألتقط التاج عن الطاولة ووضعته على رأسي ثم صعدت على ظهرها، بضربة جناح واحدة ارتفعتُ في الهواء فهوت الهامسة لَازَار على الأرض تدفعها العاصفة التي خلفناها. ومن الأعلى رأيت كل شيء:

القلعة، ساحة التعذيب، الجنود، العبيد... وهو، رَايْفَان، قائد الدَامُون سيد المعاقِبين.

***

هبطت غازُولا أخيرًا في الجهة الغربية من ساحة سُوبْكُتيس، جناحاها المكسوان بالعظام ما زالا يصدران صريرًا يدوي في الهواء بينما جسدها الضخم يطفو فوق الأرض دون أن يلمسها. وقفتُ على ظهرها لحظة أراقب الفوضى من فوق، لم يكن هناك أفق ولا نهاية فقط عظام محترقة وأرواح ممدودة.

وضعتُ قدمي الحافيتين على الأرض فوق ممر حجري ملوث ببقع دم قديم، كل خطوة أخطوها تصدر صوتًا خافتًا يتبعها طنين أساور الكاحل السوداء التي كنت ألبسها تصطك ببعضها عند كل حركة. سرتُ ببطء رأسي مرفوع ووجهي جامد، كنت أشعر بآلاف العيون تتابعني تهمس ترتجف. وقبل أن أصل إلى قلب الساحة توقفت، بطرف عيني لمحته:

رَيْفَانْ!

كان مستندًا إلى صخرة سوداء يراقب الجموع بوقفة المالك للساحة لا كمجرد قائد، طويل عريض المنكبين، بشرته سمراء لامعة تشقها العروق السوداء المتفجرة على عنقه وتمتد على ذراعيه حيث تتداخل مع الرسومات الموشومة حتى تبدو كثعابين حية تتلوى تحت الجلد،

يرتدي سروالًا أسود وقميصًا ضيقًا يُبرز عضده، عيناه زرقاوان لامعتان ببرودة جميلة تخترق من يحدق إليهما، شعره فاحم يسقط على جبهته وفي يده اليمنى سيجارة يتصاعد دخانها في دوائر متعالية.

كان ينظر إلي ولم يرمش، حدقت إليه دون حركة وقلبي خالٍ تمامًا إلا من ومضة باردة لم أعرف إن كانت غضبًا مكبوتًا أو شيئًا أبعد يشبه الحنين، يا لغرابة هذا الإحساس... أكملتُ المسير وسط صرخات الجنود وزئيرهم وصفق العبيد بلا وعي تحت نبض ساحة سُوبْكُتيس التي أعلنت اكتمال الموكب.

وفي اللحظة التي اقتربت فيها من منتصف الساحة، اخترق الصراخ كل شيء، لم يكن صراخًا عاديًا، بل نباحًا بشريًا خالصًا مليئًا بالذل والجنون، استدرت ببطء ورأيتهم: اثنان من الكُوْسِيين يجران ذلك الجسد الذي رأيته منذ قليل من شرفة غرفتي، جسد أنثى تُقاوم بشراسة تصرخ تتلوى تخمش الأرض بأظافرها المتكسرة، شعرها طويل مبلل مغطى بالغبار ووجهها غائب تحت طبقات الدم والتراب:

- أخرجوني من هنا! أنتم مجانين! هذا ليس عالمي!

الكُوْسِيَانِ يجرانها بوحشية، أحدهما يشد السلسلة المعدنية التي تطوق عنقها والآخر يسحب كاحليها المثقوبين بلا رحمة تاركةً خلفها أثرًا داميًا على الأرض وحين بلغوا قلب الساحة طرحوها أمامي طرح الفريسة تحت حد المقصلة... خفضتُ رأسي نحوها والتقت عيناي بعينيها؛ لم تدمع لم تُشِح بنظرها فقط صرخت من جديد بصوت مبحوح يكاد يختنق:

- من أنتم؟ ماذا تريدون مني؟!

اقتربت إحدى الهامِسات وسحبت خنجرًا قصيرًا من تحت ردائها وغرسته بقوة في وجهها، دخل من أسفل الفك وخرج من طرف الفم وسكتت أخيرًا، أشرتُ للهامسة أن تتراجع واقتربتُ منها بخطوتين، جسدها ملقى كدُمية مهشمة ووجهها دامٍ لكن عينيها لا تزالان تحدقان إلى وجهي، لا بتوسل لا بخوف، بل بتلك النظرة المجنونة التي أكرهها: نظرة الذين يظنون أنهم أبرياء:

- ماذا فعلتْ؟

ردت الهامِسَة:

- قتلت ابنتها الصغيرة عمرها ثماني سنوات فقط... من أجل رجل.

اقتربتُ منها أكثر ثم همستُ:

- لِمَ فعلتِ ذلك؟

سكتت لحظة ثم قالت بصوت متقطع:

- لأنه طلب مني ذلك، لأنه لم يكن يريدها وأنا... أنا لم أكن أريدها إذا لم...

وفجأة اتسعت عيناها من شدة الصدمة، كانت يدي قد التفت حول عنقها بقوة، أصابعي غاصت في جلدها وتحولت عيناها إلى بياض تام، رأسي ارتفع، عيناي انقلبتا بدورهما والعالم حولنا توقف...لا صوت ولا زمن ولا نفس، صمت كَوْسَانُوكْتِيس بأكمله، تجمد الهامِسُون كتماثيل وحبس الدَامُون زفيرهم، أما الكَوْسِيُون على الأطراف فتوقفوا بحدة، وزَايْفَان؟ لم يتحرك، بل مال برأسه قليلًا يصغي لما لا يُقال ويراقب ما لا يُرى.

قلتُ فجأة:

- بدأ الاختبار النفسي!

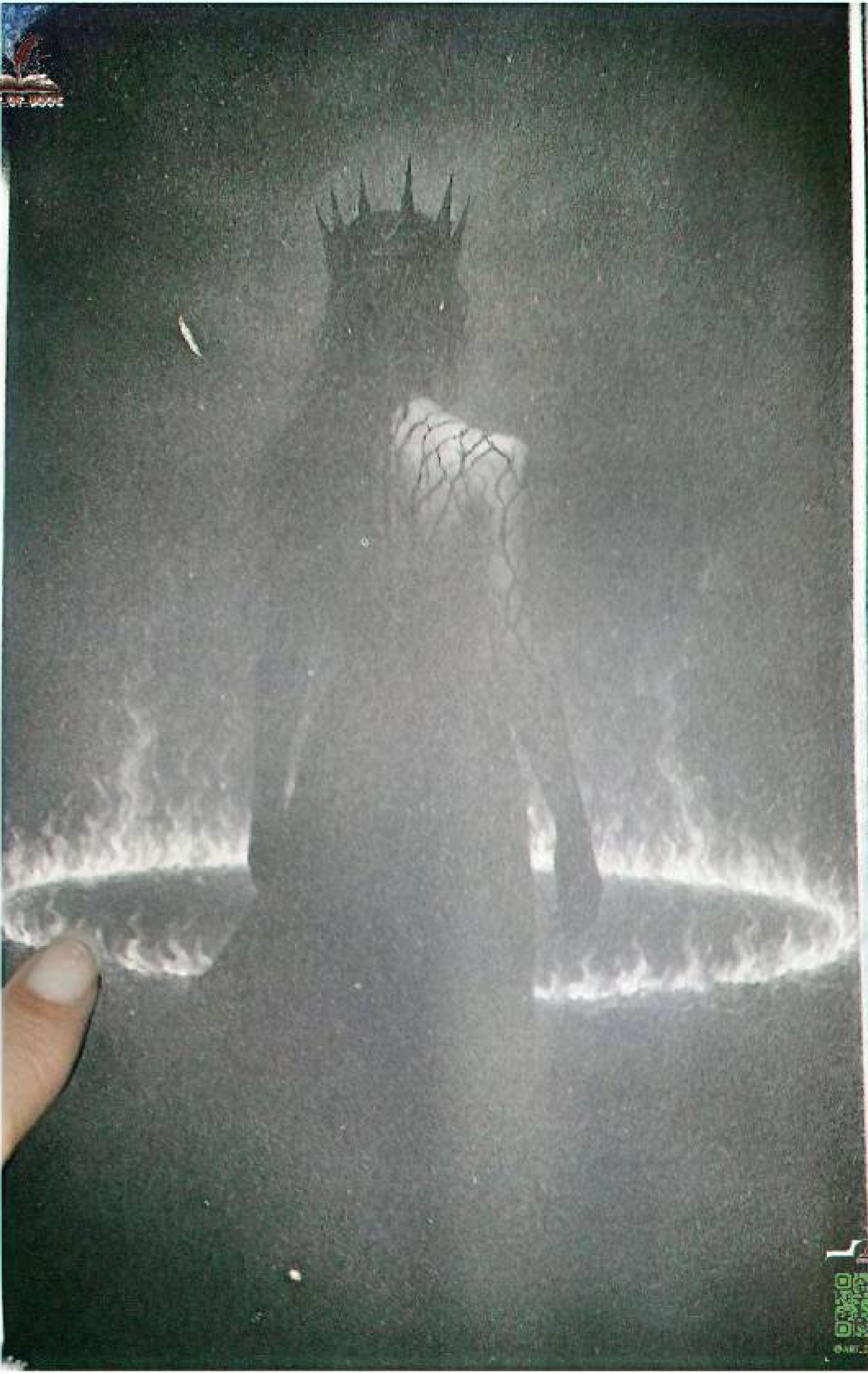

دخلتُ إلى عقلها، إلى باطن ذنبها. كانت الغرفة فخمة بشكل خانق والجدران من حرير أسود تتدلى منه ستائر كثيفة والشموع الزرقاء تتقطر على شمعدانات معدنية عتيقة، على الطاولة الطويلة أطباق وكؤوس وورود ذابلة ولحم مشوي تقطر منه الدماء، لكن ما كان أشد رعبًا لم يكن الطعام، بل الحضور: كائنات بلا وجوه تجلس صامتة على الكراسي تصفق ببطء حول الطاولة.

دخلت المرأة نفسها بثوب رمادي شعرها مبلل وجهها شاحب وعيناها تفتشان عن منطق، في نهاية الطاولة جلست طفلة صغيرة لا تتجاوز الثامنة تضع ذراعيها على المفرش تنظر باتجاه أمها، فتحت فمها بصوت هادئ مهتز وقالت:

- ماما... أنا جائعة.

تجمدت المرأة ثم نظرت إلى الطبق أمامها... كان فارغًا تمامًا، ثم خرج الهامِسُون من الظلال يحملون صينية فضية فوقها قطعة لحم ناضجة تتصاعد منها أبخرة دافئة وعبق مخدر يخترق الوعي، وضعوها أمامها ثم انحنوا هامسين:

- كلي... لقد اجتزتِ الاختبار، أنتِ تستحقين هذا.

بعدها اقترب هامِس آخر منها، لكنها لم تعرفه كأحد جنودي، فقد كان يحمل وجه الرجل الذي أحبتْه يومًا، الوجه نفسه الذي من أجله قتلت ابنتها، الملامح ذاتها والنظرة ذاتها، كأن الوهم قد تشكل في صورة ماضيها وألقاه أمامها حيا. مال على أذنها وهمس بجملة واحدة مسمومة:

- لا أر[illegible] أريدكِ أنتِ، تخلصي منها...

[illegible]لة التـ[illegible] كانت تبتسم برقة وقالت:

- كلي، ماما... تحبينني، صح؟

ارتعشت يدها لكنها أمسكت بالسكين وقطعت قطعة لحم وضعتها في فمها، كانت اللقمة ثقيلة لزجة بلا طعم في البداية ثم بدأ المذاق يتبدل... عفن، دم، شعر لكنها ابتلعت وأتبعتها بقطعة ثانية ثم ثالثة، تمضغ ببطء.

بدأ الضيوف عديمو الوجوه يضربون الطاولة بأيديهم بصمت، الإيقاع يتضخم ويتسرب إلى داخل الجمجمة:

- كلي، كلي أكثر!

كانت تقطع وتأكل وتقطع ثم فجأة رفعت رأسها ورأت ما لا يمكن احتماله، الطفلة لم تعد تملك ذراعين ثم لم تعد تملك ساقين كان جسدها ناقصًا مبتورًا مهشمًا لكنها لا تزال تقول:

- لماذا يا ماما؟ قلتِ أنكِ ستظلين معي... لماذا؟!

نظرت المرأة إلى صحنها، اللحم تغير لم يعد لحمًا، بل عظام صغيرة محاطة بجلد طري وشعر أسود ناعم وأسنان لبنية، حاولت التوقف أرادت أن تتقيأ لكنها لم تستطع، ثم بدأ اللحم في فمها يصرخ صرخة طفلة ليست مجازًا، بل صوت حقيقي ينبعث من داخل حنجرتها كما لو أن اللحم نفسه يتذكر:

- ماما... لماذا؟ لماذا أكلتِني من أجله؟ كنتِ تغنين لي...

انفجر الدم من فمها وتساقطت أسنانها كحبات حجر وبدأت أصابعها تذوب ببطء، زحفت نحو الباب مترنحة فتحته بأمل أخير لكنها لم تجد سوى نفس القاعة نفس الطاولة ونفس الوجوه التي تترصدها بلا رحمة، أعادها الهامِسُون وأجلسوها من جديد وهمسوا لها:

- كلي، يجب أن تأكلي!

جلست وأكلت بصمتٍ ثقيل، لم تتكلم ولم ترفع رأسها والدموع تنساب على وجنتيها بلا رجفة ثم وهي تمضغ ببطء تمتمت بصوتٍ خافت يكاد لا يُسمع:

- لكني غنيت لها... غنيت لها لتنام... لماذا أنتم غاضبون؟ لحمها طري... أريد أن أشاركه معه، أين هو؟ أريد أن يأكلها معي!

بدأ الهامِسُون يصفقون ببطء، ابتسمت ثم وضعت قطعة جديدة في فمها ووقفت وبدأت في الرقص، كان جسدها مغطى بدم ابنتها من رأسها حتى قدميها، كانت تبتسم والدم يقطر من فمها، كانت كالمخدرة كأن شيئًا غريبًا استحوذ عليها، ترقص وسط القاعة تدور ترفع ذراعيها وتغني نفس التهويدة بصوت طفولي مبحوح مشوه:

♪♪♪♪♪♪♪

نامي صغيرتي... نامي في حضن العدمْ

هو لا يريدكِ... وأنا أسكنتُه بين القلب والدمْ

قال: «إما أنا... وإما دمُكِ» فاخترتُه بعمًى...

فاغفري لقلبي الأصمّ

أمكِ أسيرةُ هوى... والحب قاتلٌ ولئيمٌ كالسم

إذا انسكب في الفمْ

سأغسلكِ بدموعي... وألفكِ بلحنٍ كأنه نَغَمْ

ثم أعودُ إليه عودةَ الهالكة إلى الجحيم بلا وجعٍ ... بلا ندمْ

♪♪♪♪♪♪♪

لم تندم، لا، بل الأسوأ لم ترَ أي خطأ فيما فعلت، لم تتوقف، بل رقصت أكثر وابتسمت أكثر، وفي اللحظة التي لفت فيها حول الطاولة انقض عليها الهامِسُون، كسروا يدها اليمنى واقتلعوا عينها اليسرى ثم جروها من شعرها حتى انتزعوه من جذوره فبدا رأسها عاريًا كجُرح مفتوح، تمزق جلدها تحت قبضاتهم وتحولت أصابعها إلى عظام مكشوفة، وأخيرًا صرخت صرخة تقشعر لها الأبدان!

فتحتُ عيني وهي أيضًا، نظرت إليها لكن لم يبقَ فيها شيء يشبه الإنسان، كانت تنزف من الأنف من العين ومن الأذن أيضًا، تتلوى على الأرض مكسورة مشوهة، عروقها السوداء امتدت على جسدها بالكامل قاسية متفحمة تفضح ما بداخلها: انعدام الشعور والوعي.

قلتُ بهدوء:

- لقد فشلتِ في الاختبار النفسي.

ابتسمتُ لأول مرة منذ دخولها ابتسامة صغيرة بالكاد تُرى لكنها كانت حقيقية، لأنني كنت أعلم أنها ستفشل، وفجأة شعرت بأنفاس دافئة خلفي بطيئة ثقيلة مشبعة برائحة السجائر، تلك الرائحة الوحيدة التي أحبها وسط كل هذا القبح، لكن لم ألتفت.

- دوري الآن... أليس كذلك؟

قالها رايفان بصوت خافت فيه شبه ابتسامة.

لم أرد، لم أتحرك، اقترب أكثر ثم مرر بأصابعه على عنقي ثم على كتفي وهمس بصوته الأجش المنخفض:

- أحب عندما تتظاهرين بالبرود... هذا يعيد إلي...همم، ذكريات جميلة.

ضحك بسخرية ثم ابتعد خطوة إلى الوراء وصرخ بصوته الغليظ:

- الدَامُون... خذوها، لقد حان وقت الاختبار الجسدي.

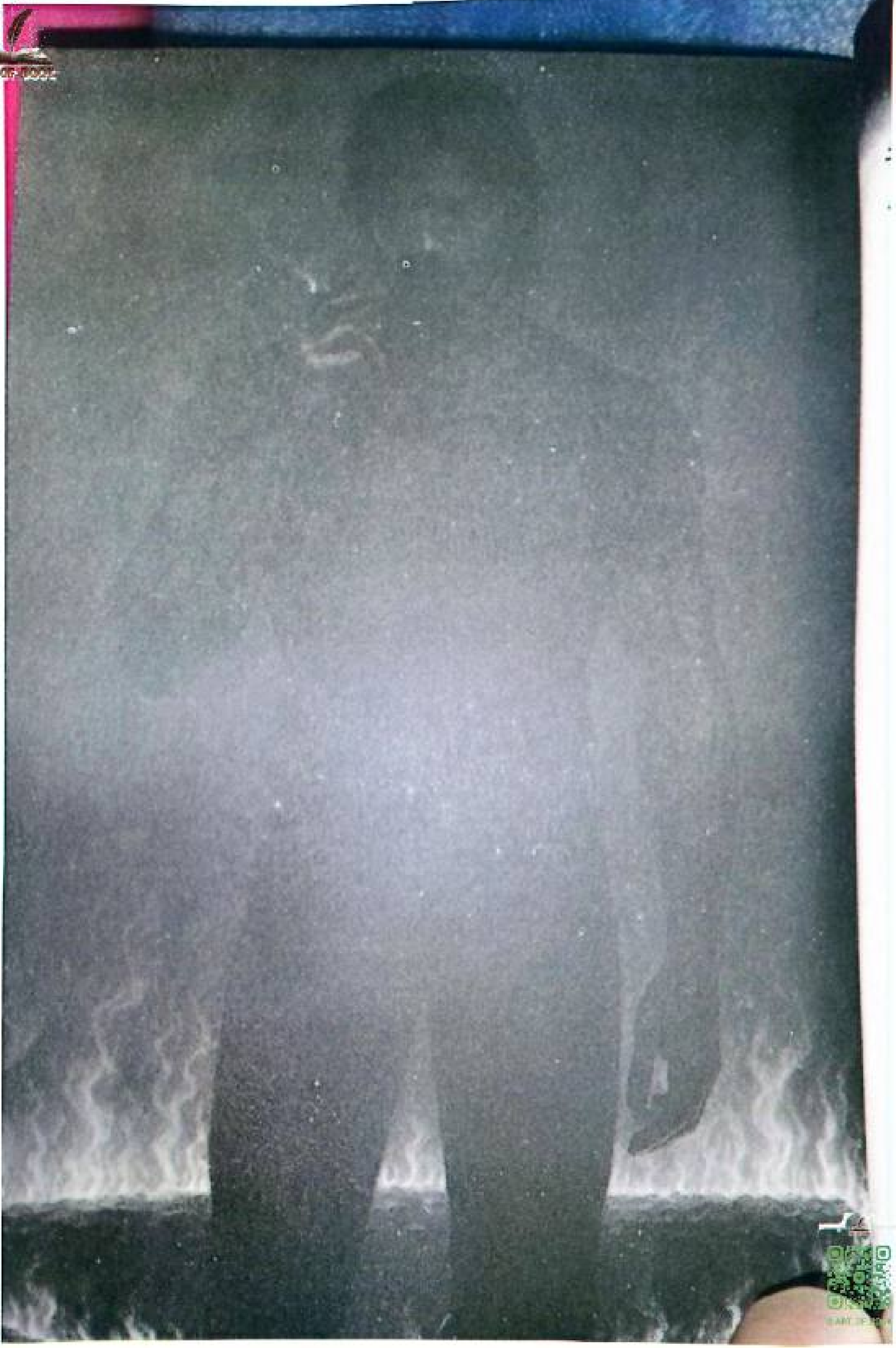

سَحبت من قدميها تُجر نحو الاختبار التالي، تراجعتُ خطوة إلى الخلف ووقفت على حافة الدائرة صامتة باردة أراقب دون أن أرمش، أما رَايْفَان فقد خطا بثبات إلى قلب الساحة وسط زئير الجنود ورفع يديه عاليًا كمن يعتلي عرشًا لا يُناقَش، راح يدور ببطء جسده يتحرك كأنه يراقص الموت، صاح بصوته القوي:

- الدَامُون... استعدوا.

فانفجرت الساحة، أصوات «أُوي أُوي أُوي» تصاعدت من الجنود كطقوس قديمة لا يُستهل الذبح دونها، الأرض اهتزت وصرخات الرعب تزايدت، أشار بيده فنزلت السلاسل من السماء، سلاسل سوداء ثقيلة تتدلى من العدم من سماء لا نرى لها سقفًا، وعندها اندفع الدَامُون، سحب أحدهم الجسد من الأرض من شعرها وجرها وسط الساحة ثم رفعوها وعلقوها من قدميها رأسها للأسفل جسدها يتدلى كذبيحة عبر تتقلب وتشهق وتصرخ.

رفع رَايْفَان ذراعه مرة أخرى ثم قال ببرود:

- افتحوها... من الأعلى إلى الأسفل.

تقدم أحد الجنود وسحب سكينًا عريضة ثم غرسها عند العنق وشق الجسد نزولًا حتى الرحم، كان صوت التمزق وحشيًا لا يُحتمل، الجلد انفتح والدم اندفع كنافورة سوداء كثيفة بينما الأحشاء بدأت تتسرب خارج جسدها تتدلى من البطن المفتوح قطعةً بعد أخرى حتى سقط بعضها على وجهها المرتجف، صرخت ثم صرخت أكثر ثم تحولت صرخاتها إلى عواء لا ينتهي، رَايْفَان لم يتحرك، بل ظل واقفًا يبتسم بهدوء وعيناه تتأملان كل تفصيلة من نزيفها كأنه يشاهد عرضًا مسرحيًا صنعه بنفسه.

ثم تقدم أحد الخادمون من جانبه حاملًا جسد رضيع صغير ملفوفًا بقطعة قماش رمادية داكنة. سار به بخطى بطيئة حتى بلغ المرأة الملقاة ثم توقف تحتها ورفع الرضيع بهدوء ودفعه داخل الرحم المفتوح بين الأحشاء المتدلية والدم الذي لم يتوقف. رَايْفَان بعينين نصف مغمضتين أشار بخفة شيطانية:

- خيطوا الجرح... ودعونا نكمل.

أغلقوا البطن بخيوط معدنية سوداء شدوا الجلد المهترئ وسحبوه ليعود مكانه وخاطوه كما تُخاط الأكياس، ثم جاء هو بنفسه سيد المعاقبين يمشي بثقة يحمل في يده وعاءً زجاجيًا داخله ديدان بيضاء ثعابين سوداء صغيرة تتحرك ببطء وسط سائل داكن. فتح الوعاء وبدون أن يتوقف لحظة سكبه داخل فمها. الديدان تساقطت إلى حلقها الثعابين اخترقت لسانها وبدأت تمزق الداخل، فصرخت كما لم تصرخ روح من قبل.

رَايْفَان اقترب ووقف بجانبها ثم قال:

- هذا ما شعرتْ به ابنتك... هذا بالضبط ما شعرتْ به وهي تنزف، وأنتِ؟ ماذا تشعرين الآن؟

أجابت وهي تبكي وتصرخ بين الدم والقيء والهواء المقطوع:

- أنا غنيت لها... غنيت لها! غنيت لها وهي نائمة... قلبي... قلبي ينبض من أجله... فقط لا تنزعوا قلبي... لا تأخذوا قلبي... قلبي ينبض من أجله...

ابتسم رَايْفَان ابتسامة انتصار:

- إذن... لم تتعلمي شيئًا.

رفع السكين ببطء ثم غرسها في بطنها، مرة اثنتين ثلاثًا ثم بلا ع،
كل طعنة كانت تشق الجلد أعمق تصفع الأحشاء وتُطلقها في الهو،
كرقصة جحيم، ثم اتجه إلى عنقها وغرس السكين ببطء بعمق حتى خرجت من فمها والدم انتشر في صمت كثيف، خيط منه اندفع على جسده ثم على وجهي.

كان واقفًا يضحك بهدوء والسكين لا يزال في يده، الكَوْسِيُون يهتفون الهامِسُون يصفقون والدَامُون يضربون صدورهم، كان في قمة نشوته!

اقتربتُ منه حتى وقفتُ في قلب الساحة وجهًا لوجه، نظر إلي بثبات ثم خطا خطوة ووقف في طريقي، قلتُ بصوتٍ هادئ وواثق:

- تحرك.

لكنه لم يتحرك، كررت بنبرة أكثر حدة:

- رايفان، أنا آمرك... تحرك!

ابتسم لكنه لم يتحرك، عندها الأرض اهتزت وبسرعة خرجت غازُولا الناهِشة من الظلال وزحفت نحوه كأنها على وشك الانقضاض، عندها تراجع، ضحك بهدوء ورفع يديه كمن يسخر من كل شيء لكنه لم يتركني بنظره أبدًا.

كنتُ أنظر إلى جسد المرأة أمامي وقد غطت عروقه السوداء كامل جلده، لم تَمُتْ بعد كانت تتلوى تتنفس تتشنج لكنها لم تبكِ ندمًا لم تبكِ على ابنتها، فقط على قلبها الذي نبض له، فنظرتُ إلى الجموع وقلتُ بهدوء:

- لقد فشلتْ في الاختبارين.

تقدمت نحوي لَازَار قائدة الهامِسين حاملة بين يديها كتابًا سميـ
مغطى بجلد أسود مشدود بخيط معدني مائل إلى الحمرة، أخذته مـ

بصمت ثم رفعت بصري نحو الجموع وقلت بصوت واضح خال من كل شعور:

- كما تعرفون جميعًا... عالم كُوْسَانُوكْتِيس له قوانينه، قوانين لا ترحم ولا تتغير، كل روح تدخل هذا العالم يغمر جسدها عروق سوداء وتُجبر على خوض اختبارين: اختبار النفس... واختبار الجسد.

تقدمت أكثر نحوهم، فتحت الكتاب ببطء، صفحاته خشنة ورطبة وواصلت دون تردد:

- من ينجح فيهما معًا، يتخلص من عروقه السوداء... ويخرج من الباب الذي تعرفونه جميعًا.

رفعت يدي وأشرت نحو التل المقابل حيث ظهرت البوابة... لا تشبه بابًا من الخشب أو الحديد، بل كانت دوامة معلقة في الهواء، سوداء كالعدم لا يمكن اختراقها إلا إذا اختفت العروق.

سكت ثم ابتسمت بسخرية هادئة وهمست:

- لكن... لم يخرج أحد بعد، ولهذا أنا لا أزال الملكة... منذ قرون.

رمشتُ، وفجأة تلاشت ساحة سوبكتيس من حولي كأن الزمان قد انشق وابتلعني في ومضة ليقذف بي إلى ذلك اليوم قبل ألفي عام، اليوم الذي وقفتُ فيه أمام البوابة، لم تكن مغلقة... لا، كانت مفتوحة تمامًا تنتظرني بصمت، كنتُ قد اجتزتُ الاختبارين وتخلصتُ من كل عرقٍ أسود، لا أثر للعنة في جسدي، كنتُ نقية... مؤهلة للعبور، لم يكن ينقصني شيء سوى القرار، لكن...

عادت الساحة كما كانت وعادت عيناي إلى الواقع لتتلاقى في لحظة خاطفة مع نظرات رَايْفَان، يحدق إليَّ وكُل كلمة أتفوه بها تطعمه وتسقي شيئًا شريرًا داخله، وفي تلك اللحظة كان يعرف تمامًا ما أفكر فيه!

ابتلعت الارتجاف في صوتي وتابعت بثبات:

- من ينجح في اختبار النفس ويفشل في اختبار الجسد... ينضم إلى الدَامُون، جسده لم يتحمل الألم... لكن وعيه استيقظ، يُستخدم كأداة للعذاب الجسدي تحت إمرة رايفان سيد المعاقبين، هم جنوده... لكنه يخدمني.

ثم نظرت إلى العيون المتقدة حول الساحة وأكملت:

- ومن ينجح في اختبار الجسد ويفشل في اختبار النفس... ينضم إلى الهامِسُون، أجسادهم صمدت لكن أرواحهم سقطت، أولئك يتبعونني لكن عبر لَازَار، هم أدوات تعذيب نفسي يُستخدمون كإبر في العقول يزرعون الجنون كما تُزرع الطفيليات.

توقفت لحظة، نظري عاد إلى الجسد الممزق المعلق أمامي:

- وأما من يفشل في الاختبارين معًا... فلا يستحق لا شرف الألم ولا شرف الظلال، يصبح كَوْسِيًا عبدًا لهذا العالم، جلده يُستخدم لبناء جدران القصر دمه يُسكب على الحجارة لا اسم له لا وظيفة لا نهاية فقط عمل أبدي.

نظرت إلى الكتاب ثم رفعت وجهي نحو الحشود، صمتي كان سيد اللحظة:

- أنا... مَلَيْكَانَا، ملكة هذا العالم! الدَامُون والهامِسُون كلهم جنودي، لا يهم من يتبع من، لا يهم من يعطي الأوامر داخل جيوشهم، فكل من يخدم رايفان يخدمني وكل من يخدم لَازَار يخدمني، كل همسة كل جلدة كل صرخة كل شق في العظام... يتم باسمي.

أخذت نفسًا أعمق ثم خفضت نبرة صوتي:

- لكني لا أقرر وحدي، أنت أيها القارئ أصبحت الآن جزءًا من هذا العالم، جزءًا من كُوسَانُوكْتِيس. تقرأ؟ إذًا أنت مسؤول عن هذا الحكم أيضًا، وكي يكتمل... يجب أن توقع.

اهتزت الأرض ومن قلب الظلال خرجت غازُولا، صرخت صرخة حادة مزقت الهواء كسكين ثم اندفعت نحو الساحة بسرعة غير بشرية تزحف كأنها مزيج من الهواء والعظام حتى أن الجميع تراجع خطوة إلى الخلف دون وعي. الروح المعلقة التي ما زالت تنزف من عنقها وبطنها لم تدرك شيئًا، كانت ترتجف تغيب عن الوعي وتعود وجسدها المهترئ لا يزال مرفوعًا في الهواء بالسلاسل المتدلية من السماء.

لكن غازُولا الناهشة لم تنتظر أكثر، تقدمت بلا صوت ثم انقضت فجأة على الجسد كأنها تحمل ثأرًا شخصيا، غرست أنيابها في البطن ومزقته من المنتصف، فتحته بالكامل كما يُفتح كيس بال فاندفعت الأمعاء و الرضيع دفعة واحدة نحو الأرض دافئة رخوة تنزف، لم تمهلها لحظة، عضت الذراع اليسرى واقتلعتها من كتفها بالكامل ثم رمتها بين الحاضرين، بعد ذلك التفتت إلى الوجه وبدأت تحفر فيه بأظافرها العظمية تمزق الجلد تنزع اللحم حتى تفجر الدم من محجر

العين فاقتلعته ثم فعلت الشيء ذاته مع العين الأخرى واقتلعتها أيضًا وابتلعتها.

الروح كانت تصرخ... ثم اختنقت... ثم ...سكتت.

أما أنا فقد كنت أنظر... دون أن أرمش... دون أن أغير ملامحي.

الهامِسُون كانوا في صدمة، بعضهم أعادوا وجوههم للخلف، بعضهم قد أغلق عينيه، أما الدَامُون فقد ضربوا صدورهم مرتين كما يفعلون حين يكتمل الذبح.

ثم في صمت شبه مقدس، تقدم الكُوْسِيُون وعيونهم غائبة تمامًا، بدأوا بجمع الأعضاء: قطعة من الفخذ، جزء من القلب، الجلد المتدلي من العنق، الأمعاء الملفوفة حول نفسها... سيُدفن هذا الجسد وفي غضون يومين ستعود لا كإنسانة... بل ككُوْسية، عبدة لهذا العالم، مجرد لحم لخدمة العالم والساحة.

أغلقتُ الكتاب، ونظرت إلى الجموع وقلبي أكثر برودًا من أي وقت مضى وقلت:

- الحكم انتهى، يمكنكم الانصراف.

ها قد انصرف الجميع إلى أحيائهم، تفرقت الجموع تلاشت الأصوات وبقيتُ وحدي في وسط الساحة أحدق إلى بقعة الدم التي لم تجف بعد على الأرض، عيني ثبتت عليها ثم تحركت ببطء نحو التل المقابل حيث البوابة التي لا تزال هناك صامتة سوداء تنبض بتنهيدة قديمة لا يسمعها أحد سواي. شعرت بوخزة في صدري... شيء يشبه الحنين يشبه الندم يشبه الخوف الذي لا أسميه، فأدرت جسدي فجأة، أردت الهروب من ذلك الإحساس، أردت العودة إلى قصري، إلى ظلالي.. لكني اصطدمت بجدار بشري.

خطوة إلى الوراء وأنا أحدق إليه دون أن أرمش، كان رايفان يقف شامخًا أمامي طويلًا حد الرهبة وأنا رغم كل عظمتي شعرت فجأة بأنني صغيرة ضئيلة بلا سلاح، نظري بحث تلقائيًا عن غازُولا لكنها لم تكن هنا، لا صوت لا ظل لا جناح لا عظم لا وحش، لا شك أنها تسبح الآن في السماء بعد وليمتها، اللعنة عليها!

عدت بنظري إليه إلى وجهه إلى عينيه الباردتين القاسيتين المليئتين بشيء مظلم لا يُفسر، يداه خلف ظهره ورأسه مائل قليلًا كأنه شيطانًا يراقب فريسته بسخرية. جمعت شتات صوتي وسألته:

- ماذا تريد يا رايفان؟

لم يجب...الصمت كان سلاحه الأشد، صمت ينزف احتقارًا ويُخيف أكثر من أي تهديد، لكن بعد لحظة طويلة قال أخيرًا:

- أنتِ تعرفين تمامًا ما أريد.

رفعت حاجبي ببرود وقلت بنبرة ثقيلة بالغضب المكبوت:

- أترى يا سيد المعاقبين، أنا ملكة، لا عرافة!

قال بهمس متململ:

- همم...

ثم تمتمتُ باسمه كتحذير:

- رايفان...

لكن قبل أن أُكمل الجملة، تقدم خطوة واحدة فقط كانت كافية ليكون أمامي مباشرة، ثم وبحركة خاطفة أمسك بيدي الاثنتين بيد واحدة وسحبَهما إلى خلف ظهري... بدأتُ أقاوم بعنف أتحرك أصرخ لكن قبضته كانت من حجر وكلما زادت مقاومتي زاد اقترابه. قوته كانت

مرعبة والمرعب أكثر أن غازُولا لم تكن معي، غابت وتركتني أمامه، شعرت بها تلك الخيانة كأنها خنجر.

استسلمتُ لا لقوته فقط، بل لوضعي المُذل وصدري يرتفع وينخفض من شراسة ما أشعر به بينما هو يبتسم ابتسامة خبيثة وبياض أسنانه يزيدني غليانًا، اقترب من وجهي حتى شعرت بأنفاسه الساخنة ثم أمسك بذقني بيده الأخرى، رفع رأسي بالقوة وأجبرني على التحديق في عينيه، ثم نظر إلى التاج فوق رأسي، تاج العظام والماس وقال بصوته الأجش:

-آه، حين نتحدث عن المُلك... أنتِ تعرفين لمن يجب أن ينتمي هذا التاج.

قلت بثقة ساخرة:

- لي بطبيعة الحال، هذا ما اختاره العالم وأنت تعلم ذلك.

قال ببرود:

- كذبتِ عليهم، أقنعتِهم أنك بلا قلب أنك لا تشعرين في عالم يُحرم فيه الإحساس، لكن أنا... أنا أعرف الحقيقة.

- فلماذا إذًا لم يُعلنوك ملكًا؟ أها، دعني أخمن! لأنهم لم يروك الرجل الذي...

تجمد وجهه اختفى الضحك اختفت الابتسامة وبقيت فقط شرارة الغضب كلهيب نار. أطلق ذقني من يده واستعملها ليمسك بعنقي بقوة ثم ترك يدي الاثنتين اللتين كان يشدهما خلف ظهري واستعمل يده المتحررة لجذب شعري من الخلف بقوة وأمال رأسي إلى الوراء حتى صرخت من شدة الألم لكنه لم يتأثر لم يهتز.

- رايفان دعني!

- إن تجرأتِ مرة أخرى على التشكيك برجولتي أقسم يا مَلَيْكَانَا...

- أنا...

- لم أنتهِ بعد، تتكلمين حين أسمح لك بالكلام! لا أسمح لأي روح، حتى لو كانت ملكة أن تهينني! لا تعرفين شيئًا عما...

قاطعته:

- ربما لأنك كنتَ مشغولًا جدًا بعقاب الجميع حتى لم تلاحظ العرش الفارغ...

- أنا؟ أشعر؟ هاهاها...

كان ذلك أكثر ما يُرعب فيه لا يصرخ لكن صوته وطريقته ونظراته كانت تهز الجحيم.

- الشيء الوحيد الذي أشعر به هو الحقد، أنتِ حصلتِ على هذا التاج بالكذب، لكن أنا...؟

- رايفان لا أستطيع... لا أستطيع التنفس...

نظر في عيني نظرة طويلة كأنه يحاول أن يخترقني أن يفتش خلف ألمي عن كذبة، عن خدعة، كان في عينيه مزيج من الشك والغضب والاحتقار، ثم فجأة حرر عنقي وأطبق بيده على فكي، ضغط بشدة حتى شعرت بأسناني تغرز في بطانة فمي ثم أكمل كلامه:

- أنا أعرف الحقيقة وسآخذ العرش، سيعرف العالم حقيقتك، ستشعرين ستنهارين وسأدمرك سأحولك إلى كَوْسِية إلى عبدة تائهة في هذا الجحيم!

رغم ألمي قلت:

- أتحداك...

سكت لبرهة ثم ضحك ضحكة عالية رفع فيها رأسه نحو السماء:

- لماذا تتمسكين بالعرش لهذه الدرجة؟

- لست متمسكة به فقط لا أريدك أن تأخذه انت.

قال بازدراء:

- أليس هذا هو الحب يا ملكتي؟ ثم... لا أذكر أني سمحت لك بالكلام.

اقترب من وجهي ووجهه لا يزال يفيض بغطرسة وقحة، هم أن يُقبلني لكن قبل أن يفعل تجمدت عيناه واتسعتا بدهشة وذهول.

قُلت بهدوء:

- لقد حذرتك يا رايفان... لا تقترب مني.

صوت الخنجر وهو يُسحب من صدره كان أكثر من مرضٍ. تركني وضغط على جرحه الدامي ثم سقط على ركبته بينما أنا تركته ومشيت نحو قصري وصدى ضحكته الشيطانية يملأ هواء العالم. ضحكة حاقدة مجنونة ساخرة... لم يمت، لا، ففي هذا العالم لا نموت هكذا ببساطة. بل نموت حين نشعر.

صعدت التل والدم يقطر من خطواتي، كنت مغطاة بدماء الاختبار ودمائه والخنجر لا يزال في يدي. كانت مشيتي تتسارع كأني أهرب من كل شيء، ورأسي مرفوع وفخري يشتعل. اعترضتني لازار مذهولة لم تجرؤ على سؤالي. تابعت صعود الدرج واجتزت الممرات ودخلت غرفتي وأغلقت الباب بعنف حتى اهتز الجدار وارتد صدى الضربة في الأعمدة. أخذت أذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا لا أهدأ. ثم رميت الخنجر على الأرض واندفعت نحو المغسلة أغسل يدي من دمه النجس كما لو كنت أنزع عني لعنة التصقت بي.

- أكرهه! أكرهه!

سمعت رفرفة أجنحة في الشرفة لا بد أنها غازُولا، انحنيت نحو الأرض التقطت الخنجر وركضت بجنون، فتحت الشرفة وقبل أن أفكر قفزت عليها.

طعنتها طعنة بعد أخرى... كانت تصرخ تتلوى تنزف دمًا أسودا تطاير على وجهي وأنا أصرخ:

- أنا مَلْيَكَانَا! أنا ملكتك! إن خنتني ثانيةً سأقتلك تسمعين؟ سأقتلك!

استمررت بالطعن حتى انقطع نفسي ثم قفزت مجددًا إلى الداخل، ركضت نحو الغرفة السرية خلف الستائر السوداء وقبل أن أغلق الباب قلت:

- لم يمت لكني سأفعل كل ما يلزم كي يموت!

منذ ألفي عام...

لا أعرف لماذا أكتب ولا لمن، لكن شيئًا بداخلي يصرخ ويُلح ويكاد يفتك بي إن لم أكتب الآن، اكتبي اتركي أثرًا اتركي شيئًا خلفك لا تختفي لا تذهبي معهم دون أن تتركي ما يثبت أنكِ كنتِ هنا!

لم أعد أستطيع الخروج من البيت دون أن يرتجف قلبي وتنقلب أحشائي، اليوم استيقظت على صراخ جاري، الرجل الذي أحببته يومًا واعتقدت أنه من الطيبين لكن يبدو أنه هو أيضًا كان يخفي شيئًا وإلا لماذا جاؤوا لأخذه؟

ركضت نحو النافذة وفتحتها بسرعة. كان ممددًا على الأرض جسده مغطى بعروق سوداء عيناه تتوسلان وامرأته تصرخ وأولاده يركضون خلفه وهم يبكون لكن تلك الكائنات التي تجره لم تكن تسمع لا ترحم لا تتوقف وكنا نعرف جميعًا إلى أين يأخذونه...

والأصعب من المشهد أن من يُسحب قد يكون أخاك، أمك، زوجك، صديقك، جارك، أو أنت، نعم، أنت!

كل شيء بدأ يوم انقلبت السماء، كنا نعيش حياتنا بشكل طبيعي نعمل ندرس نضحك نتمشى نتصفح

هواتفنا. أنا شخصيًا كنت صانعة محتوى بسيطة أشارك لحظات يومي أضحك أتكلم أنشر مقاطع قصيرة وأحكي عن حياتي.

حتى حلت لعنة على الأرض لا تفسير لها لا شكل فقط شعور ثقيل خنق كل شيء، الأشجار ماتت الأرض جفت الهواء تغير ثم بدأت العروق السوداء في الظهور، في البداية ظهرت على أذرع البعض ثم على أعناقهم وجباههم وأقدامهم، بعضهم استيقظ ليجدها تملأ جسده وبعضهم وُلد بها، كنا نظنها مرضًا جلديًا، ثم لاحظنا أنها تتحرك!

نعم، تتحرك!

داخلها شيء لا أعلم ما هو لكنني أقسم أنها ليست عروقًا عادية وكأن شيئًا حيا يتحرك ببطء تحت الجلد يزحف صامتًا ينتظر اللحظة التي يُستدعى فيها، ومع كل من تشتد عليه العروق وتغزو جسده بالكامل وتبدأ بالتحرك، تأتي كائنتان تسحبانه دون مقاومة، تأخذانه نحو باب على شكل دوامة!

بدأنا نختلق تفسيرات؛ البعض قال إنه مرض روحي البعض قال إنه غضب إلهي البعض قال إنه انتقام من الجن لكن أكثر ما بقي في عقلي هي الأسطورة التي لا أنساها حتى وأنا أكتب.

يُقال أنه بعد موت النبي سليمان تحررت أغلب الشياطين والجن ففروا جميعًا، إلا واحدة لم تكن شيطانًا عاديًا، بل كانت امرأة، زوجة إبليس! يُقال أنها كانت مرعبة إلى درجة أن الجن أنفسهم لم يجرؤوا على فك قيودها فتركوها هناك مربوطة مكبلة منسية في مكان لا يعلمه إلا القليل لكنها لم تُنسَ كانت تنتظر بصمت، تنتظر أن تبني جيشًا.

لكن كيف تبنيه؟ الجن هربوا والإنس لا يتبعونها...

إلا إن تم تدميرهم من الداخل!

فأرسلت أعوانها ليزرعوا العروق في بشرٍ يحملون ماضيًا ثقيلًا ومع كل إنسان يُصاب يخسر جزءًا من إنسانيته، شيئًا صغيرًا كل يوم حتى يصبح هشًا ضعيفًا فارغًا لا يعرف من هو... لكنه يبقى إنسانًا، وهذا هو الرعب...

هم لا ينتمون لجيشها بعد، ليسوا جاهزين بعد، لا يزالون بشريين فقط على وشك الانهيار كأنها تبني جنودها من الداخل خطوة بخطوة حتى تكتمل العروق وتتحرك فتأتي الكائنات ويسحبونه إلى الباب...

ولا أحد يعود.

ولا أحد يعرف ما وراءه...

هل يُعاد تشكيلهم هناك؟ هل يتحولون إلى جنود؟ هل تُغسل ذاكرتهم ويُمحى ماضيهم؟ البعض يقول إنها تبني جيشًا في عالم آخر، جيشًا لا يُمكنه عبور البوابة إلا بوجود ملك وملكة يقومان بفتحها من الداخل، اثنان فقط يحررانها...

أعلم أنها خرافة لا معنى لها لكن عقلي يحتاج تفسيرًا لأني لا أفهم لا أستوعب لماذا أنا؟ ماذا فعلت؟

أنا لست شريرة، لم أقتل أحدًا، لم أؤذِ أحدًا، فقط كنت أظهر على الشاشة، أضحك، أشارك تفاصيل حياتي، هل هذا خطأ؟ هل هذه هي الخطيئة؟ هل...

رقيقة.

أظن...

أظن أنهم هنا... أظن أنهم هنا... العروق... العروق تغطي جسدي كاملًا...

ساعدوني... أرجوكم... ساعدوني!

@ART_OF_BOOK

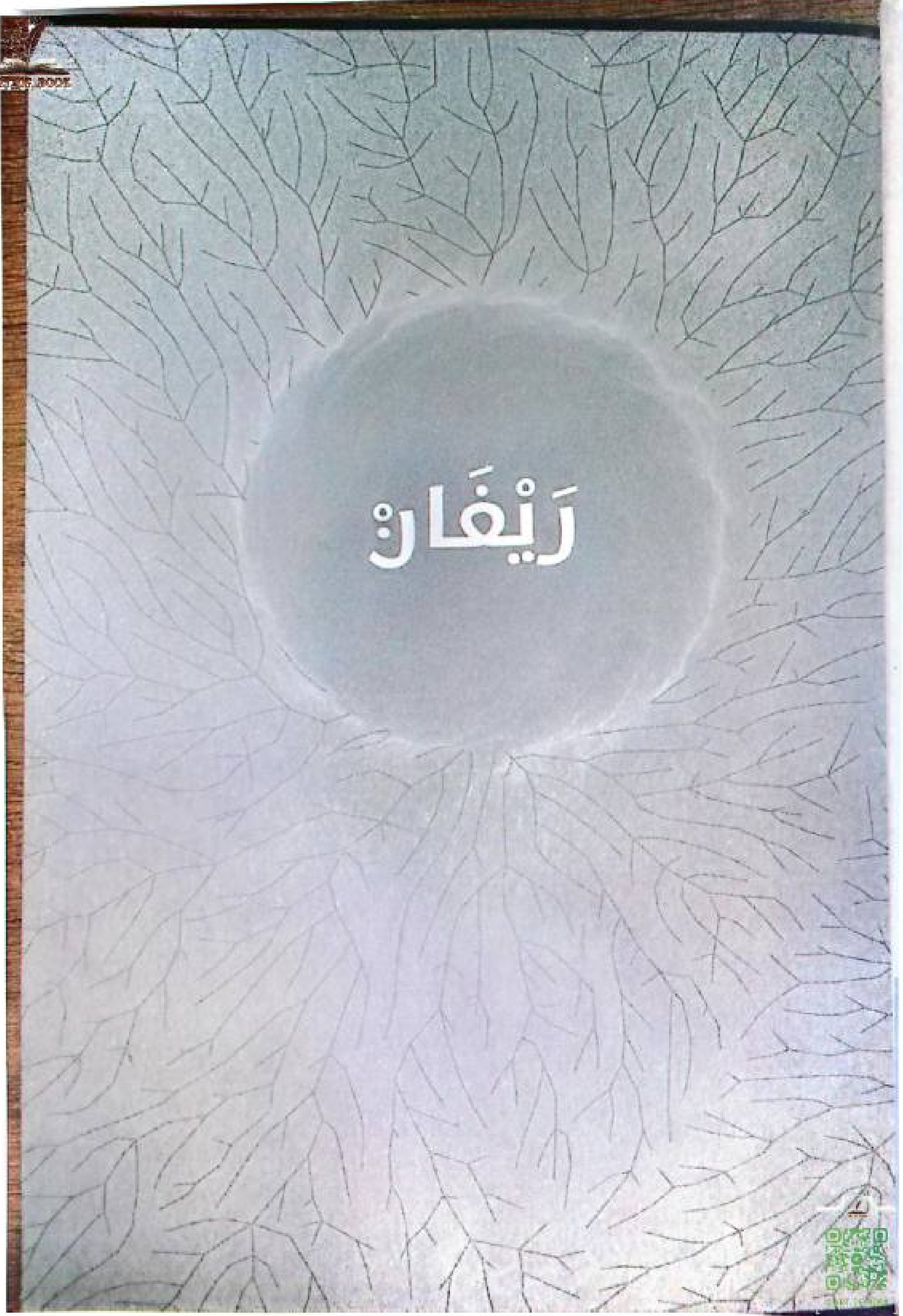
رَيْفَانْ

أخخخ، كأنها تعمدت أن تغرز الخنجر في صدري لا في قل
ضحكتُ، وبعد؟ طعنة أخرى لا أكثر، هل تعرفين كم خيبة منحتُ
من طعنة تلقيت وكم من جرح نُقش على جلدي وكم من نزفٍ
وشمًا لا يمحوه الزمن؟ هذه مجرد زخرفة إضافية لا أكثر.

كنت أضغط على الجرح بيدي والدم يقطر من بين أصابعي
المطر الذي يسقط بهدوء فوق هذا العالم اللعين، عالم لا شمس
ولا قمر، لا شروق ولا غروب، لا زمن يُقاس ولا فراغ يُملأ... فقط
مؤجل.

اتجهتُ نحو حي الدامُون، نحو مسكني الذي لا يفصله عن مساك
سوى خط واحد من الحجارة السوداء. حيُنا يقابل حي الهامِسُون مبا
لكن بيتي كان مختلفًا: أضخم، أعتى، أشد سوادًا. ليس قصرًا... لـ
يكاد يكون. كنتُ أسير بينهم، بين العبيد والجنود، الجميع يتنحى د
أن أطلب، الجميع ينحني دون أن أمد يدي. هذه هي الهيبة: لا تُمنح
تُفرض. وإن تجرأ أحدهم على النظر في عيني مباشرة اقتلعتُ عينيه
وجهه، إن كان يملك عينين أصلًا.

في طريقي، رأيت أحد الكَوْسِيين، عبدًا يسير بظلٍ منحنٍ ممس
بقلبه بين يديه، يأكله ببطء وهو يُنشد:

ART_OF_BOOK

♪♪♪♪♪♪

ذقتُكِ نارًا... وكنتِ السُّكَّرَ في فمي

خنتُكِ عمدًا... وكنتِ الوطنَ في دمي

أحرقتُ قلبَكِ ثم بكيتُ رمادَه

ركعتُ للعهرِ... وناجيتُكِ في سجودي

دعوتُ عليكِ... وكنتُ أرجو وُدَّكِ

وها أنا آكلُ قلبي... كي لا أشتاقَ إليكِ

♪♪♪♪♪♪

لم يتوقف، كان يبتلع قطعة ثم يتقيأها ثم يبتلعها من جديد... ويُعيد الكرة. وقفتُ أراقبه بصمت حتى أنهى قلبه تمامًا. يا لسُخفهم هؤلاء العبيد! أكرههم وأحتقرهم وأرثي لحالهم! بؤساء، يظنون الألم خلاصًا كأنهم خُلقوا ليتعذبوا فقط، لا يصلحون إلا أن يكونوا ضحايا والضحية في هذا العالم تُذبح. اللعنة عليهم!

وصلتُ باب بيتي أخيرًا: حجر أسود مصقول يحرسه جنديان من الدّامُون، دفعتُه بيدي الدامية ودخلت. كان وجهي عبوسًا، قاطبًا حاجبي، خلعتُ قميصي ببطء ونظرت إلى الجرح. العروق كانت تمتد من عنقي حتى خصري تتلوى على جسدي مثل حيات سوداء تنبض بلعنة لا تهدأ، لكن الجرح نفسه... كان واضحًا، مفتوحًا، ساخنًا... ساخنًا أكثر من اللازم!

نظفته ثم ضغطتُ عليه بقطعة قماش سوداء وربطته بإحكام
وقت للضعف لا مكان للألم ولا عذر للانكسار، يجب أن أشفى يجب أن
أستعيد كامل طاقتي فكيف سأنتقم وكيف سأستولي على العرش وكيف
سأصبح ما أستحق أن أكون إن جعلتني طعنة واحدة أتأرجح كعبد؟

وفي اللحظة التي شددت فيها الرباط على صدري دخل هو بدون
طرق كالعادة، رازمَهْت، أخي، أقربهم إلي وأكثرهم إزعاجًا. دخل بخفة
وجلس أمامي دون استئذان ثم نظر إلى جرحي بابتسامة نصف ساخرة
نصف حنونة، قلت له:

- أين كنت؟ لقد فاتك عذاب رائع الليلة، جسد هش، انهيار تام، كنت ستحبه.

رد وهو يتكئ على الكرسي كأنه لا يبالي بشيء:

- كنت في مهمتك تذكُر؟ الخطة؟ التسلل إلى الهامِسُون؟ لا تزال الأمور صعبة إنهم أوفياء لها أكثر مما توقعت.

نظرت إليه مطولًا ثم قلت ببرود:

- الأمور لم تبدأ بعد رازمَهْت، نحن فقط نحفر تحت العرش.

رد بضحكة متعبة:

- رايفان، أخي، مضى على هذا الجنون ألفا عام، متى ستكف؟ أنت المَلك بلا عرش أنتِ الحاكم بلا تاج، ما تريده لا يُريدك اقبل وانتهِ، أنت سيد المعاقبين، أليس هذا كافيًا؟

قلت وأنا أضغط على الرباط حتى كدت أختنق:

- طبعًا ليس كافيًا! لا أريد أن أكون ظلا في مملكتها لا أريد أن أكون يدها اليمنى لا أريد أن أكون أي شيء لها أريد أن أكون كل شيء أو لا شيء!

رد وهو ينظر إلى السقف:

- ولماذا لا تكون مَلكًا بجانبها؟ أليست فكرة أسهل أن تتوج معها؟ أن تحكم العالم معها؟

صمت.

نظرت إليه لوهلة، شعرت بأنه جرحني أكثر من الطعنة نفسها ثم قلت:

- هي لن تسامحني، وأنا لا أريد منها الغفران أصلًا! لا أريده، أنا فقط أريد أن أدمر كل ما يثبت أنها كانت أقوى مني كل ما يدل على أنها نجَت!

قال وهو يقوم من مكانه:

- وهل تظن حقًا أنك لم تَعُد تُحبها؟

صرخت:

- لا أحب، لا أريد الحب، أنا لا أملك قلبًا، أنا... لا شيء في داخلي ينبض. أما هي؟ فهي تكذب. قلبها لا يزال هناك خلف عرشها خلف عينيها خلف صوتها... ينبض، لكنها جمدته!

قال:

- وما الذي تخشاه إذًا؟ أن ينبض لغيرك إذا...

لم أتركه يُكمل، كسرتُ المرآة أمامي، سال الدم من يدي ونظرتُ إلى الزجاج المكسور فرأيتُ انعكاسي الممزق يتبعثر بين الشظايا ثم قلت بصوت يملأ الغرفة:

- لا أحد سيملكها... لا أحد! أنا في فكرها في صوتها في أنفاسها في جُملها في تعذيبها في نومها، أنا في كل شيء، وإن حاولت

أن تُحب... سأقتل القلب قبل أن ينبض، لم أسمح لأحد، ولن أسمح لأي قلب أن يجعل قلبها ينبض لأجله، هي لي، لي أنا، لي وحدي!

رد علي رازمهت وهو في حيرة:

- إذًا، إذا فهمتُ جيدًا... لا تريد أن تحبها لكنك لا تريدها أن تحب غيرك؟ تريد أن تصبح ملكًا لكن دون أن تكون هي ملكتك؟ ألن تعقد الأمور كثيرًا يا رَايْفَان... لماذا لا تحبها فقط؟

كان صدري يرتفع وينخفض من شدة الغضب، قبضتاي مشدودتان نظرت إليه وقلت:

- أن أحب؟ وهل هناك شيء أشد إهانة من الحب؟ أن تُكسَر مرة أخرى؟ أن يُكسر قلبي مجددًا؟ أفضل أن يُقتل على أن يُكسَر، أفهمت؟ أنت تعرف تمامًا لماذا جئتُ إلى هذا العالم تعرف من الذي جرني إليه تعرف الجرح الذي دخلت به تعرف أني ما زلتُ أنزف، هل تظن أنني سأسمح بأن يُكسر قلبي مرة أخرى؟ أبدًا، أبدًا!!

أنا لا أكذب على نفسي، أعلم أنني غير قادر على الحب، لا أستطيع! بل لا أريد، لكني أعرف أيضًا أنها تستطيع لكنها تكذب، تمثل، هي تضع تاجًا من الجليد على قلب لا يزال ينبض وهي تحكم بهذا الكذب، وهذا... ظلم، ظلم كبير لا يراه أحد سواي، وسأثبت للعالم كله أنها تكذب، سأثبت لهم جميعًا أن قلبها... ما زال ينبض.

وفجأة، اخترق الصمت صراخ حاد مزق الهواء كأنه صدر من أعماق الجحيم، التفت نحو أخي وقلت:

- ما زالوا يعذبونه؟

رد دون أن يرف له جفن:

- دائمًا، لا شيء يتغير، حياتنا كلها أصبحت تعذيبًا لا يتوقف.

وضعت بسرعة ضمادًا على جرحي، ارتديت قميصي مجددًا ثم سرت بخطى واثقة نحو الغرفة التي انبعث منها الصراخ، كنت أعرف الطريق، أعرف الرائحة، أعرف أن ما ينتظرني خلف الباب ليس إلا استمرارًا للفوضى التي صنعتُها بيدي. وحين فتحتُ الباب، رأيت صديقي زِفراهن، أقرب شخص إلي بعد أخي، يقف وسط الغرفة التي تحولت إلى مسرح لجريمة لا تشبه شيئًا على الأرض: جدران مغطاة بالدم الأسود، أرضية لزجة، رائحة صدئة، وفي المنتصف... كان هناك هامِسٌ واحدٌ، مقيد في الهواء بسلاسل من عظام مشقوقة، جسده مرفوع كالمصلوب، رأسه مفتوح إلى نصفين، الدم يسيل دون انقطاع...

كان زِفراهْن يضربه بقبضته، يصرخ:

- اخرس! لا تكررها! لا تعدها أبدًا!

اقتربت منه وسألت:

- ما الذي قاله؟

جفلت ملامحه، تردد، ثم تمتم:

- لا شيء... كان يهذي... يتكلم عن ثغرة في جيش مَلَيْگانَا.

نظرت إليه مطولًا بعينٍ لا تسامح، فقال بصوت متقطع:

- لا تصدقه هو يكذب فقط، يريد النجاة لا يقول شيئًا ذا أهمية، عذبته لأيام ولم أنزع منه غير الخوف... سأنهيه الآن.

مددت يدي وأمسكت بمعصمه، قلت بهدوء:

- دعني أكلمه أولًا.

رأيت الذعر في وجهه لكنه لم يعترض، تقدمت نحو الجسد المعلق وخفضت السلاسل ببطء حتى لامست قدماه الأرض ثم انحنيت، قربت أذني من فمه، قلت:

- قلها.

قالها.

وانفتحت عيناي، اتسعتا بما لا يمكن تفسيره، وما إن انتصبت حتى ابتسمت ابتسامة لا تمت للرحمة بصلة ثم استدرت نحو صديقي وقلت:

- تقول إنها معلومة غير مفيدة؟ هل تمزح؟

قال، مرتبكًا، محاولًا التراجع:

- هذا كلام فارغ، لا يمكن لجيش أن يسقط بسبب ذلك.

نظرت إلى أخي، تمتمت:

- كنت أشك، أُقسم أني كنت أشك...

ثم انفجرت ضاحكًا، ضحكة مدوية ساخرة غارقة في الجنون، وتقدمت نحو النافذة بخطوات ثقيلة كأني أجر العالم خلفي، نظرت عبرها، لا أحد يعلم ما الذي رأيته لكنه كان هناك، شيء ما... أو أحد ما. اقترب صديقي، وقف بجانبي، نظر حيث أنظر، ثم التفت إلي ووجهه الشاحب، مرتبك، خائف، التفت إليه مجددًا، ثم إلى النافذة وقلت:

- تظن أنها تتحكم بكل شيء... لكنها لا تدري أن أعظم نقاط ضعفها... تزحف داخل جدرانها.

استدرت فجأة نحو أخي:

- حان وقت الوليمة، أليس كذلك؟ رتبتَ كل شيء؟

- طبعًا، بأمرك أخي.

اقترب صَديقي، لمس كتفي وقال:

- الجنود هناك، ينتظرونك.

أخرجت سيجارة، أشعلتها، صمت طويلًا، طويلًا جدًا، أستحضر كل الأموات الذين دفنتهم بيدي وكل الخطط التي وضعتها وكل الطرق التي فشلت وكل الاحتمالات التي تنزف الآن في عقلي، شيء ما تغير... كلمات الهامِسُ ذاك تسللت داخلي كسم بارد وبدأت تخطط، تحرك العتمة في عقلي... نظرت إلى الباب، ثم مشيت نحوه ببطء وأعلنت:

- فلتبدأ الوليمة!

بدأنا نمشي ببطء، شعرت فجأة أنني بخير، لم يكن هناك ألم ولا شعور سوى اندفاع داخلي نحو السيطرة نحو ما خططت له منذ قرون. مشيت باتجاه قاعة الوليمة، رأيت الدَامُون يدخلون دفعات بأعداد كثيفة وما إن دخلت حتى انقسمت الصفوف تلقائيًا، كلهم تنحوا جانبًا دون أمر أحد ليُفسحوا لي الطريق.

جلست في أعلى القاعة على منصة سوداء تفصلني عنهم بدرجات قليلة لكنها تعني كل شيء، بقينا أنا وزفراهن ورازمهت صامتين ننتظر، حتى امتلأت القاعة بأجساد الدَامُون بأصواتهم العالية وصراخهم وضحكهم الفارغ.

كانوا كالعادة غارقين في الفوضى يتقاتلون على اللحم ويشربون شراب أسود يُستخرج من طحالب الكَاوْس ويُطهى على جمر لا ينطفئ، كانوا يمضغون قطعًا لزجة يسمونها فَرَاس ويتغذون بها، يرقصون يصرخون يضحكون ويرمون بعضهم فوق الطاولات يركلون المقاعد يقطعونها بالسكاكين فقط للتسلية، البعض بدأ يتعرى البعض تسلق الجدران البعض بدأ يزحف على الأرض كأن الجنون خرج من رؤوسهم

@ART_OF_BOOK

وسُكب فجأة في هذا المكان، كل شيء فيهم يدعو للشفقة والقرف وأنا كنت أراقبهم من علو بشعور واحد فقط: الاحتقار.

أنا فوقهم؛ فوق هذا العبث فوق هذه العقول الساذجة فوق هذه الوجوه التي لا تفهم شيئًا عن القوة الحقيقية، لكن إن أردت أن أملك هذا العالم، علي أولًا أن أملك جنودي، هؤلاء الجنود المساكين علي أن أجعلهم يرون أنني قائدهم الشرعي الوحيد، القائد الذي لا يرحم الذي لا يخطئ.

وقفت فجأة ورفعت كأسي، صمتوا جميعًا دفعة واحدة:

- كلكم الليلة، كل واحد منكم، أنا فخور بكم، لقد أثبتم لي أن القوة لا تأتي من الرحمة ولا من العدل، بل من القسوة، من القدرة على سحق الآخر دون أن يرف لكم جفن، من قدرتكم على تعذيب الأرواح التي تتسكع بيننا، أنتم أسياد هذا المكان، أنتم المُختارون، ولهذا الليلة نحتفل بكم!

رفعت كأسي من جديد وصرخت:

- نخبكم!

دَوى التصفيق وارتفعت الزغاريد الوحشية التي يصدرها الدَامُون وبدأ البعض يسجد أمامي فجأة!

الأول ثم الثاني ثم الخامس ثم العاشر ثم العشرون تحت نظرات قلقة من بعض الدَامُون الذين لم ينحنوا والهامِسُون الذين راقبوا المشهد من الزوايا، لا أحد تجرأ على الكلام لكنني رأيت في عيونهم سؤالًا مرعبًا: هل بدأ رَايْفَان يخطط للعرش؟

كنت في قمة النشوة حتى كدت أضحك من شدتها، لكن فجأة، بدأت الجموع تفتح طريقًا دون أمر أحد ورأيت من بعيد ظلًا أحمر يقترب بهدوء وعرفت فورًا أنها هي: مَلَيْكَانَا.

كانت تمشي بين الجموع وكأنها تسير على هواء لا على أرض بثوب أحمر قاتم يلتف حولها كاللهب بشفتين مطليتين بلون دموي وشعر مرفوع كالملكات، لم تنظر يمينًا ولا يسارًا لم تلتفت لأحد لم تبتسم لم تَخف، كانت كمن يعرف تمامًا لماذا جاء وماذا سيفعل.بعد دقيقة.

أنا ورازمهت وزُفْرَاهِن نزلنا من المنصة واقتربنا من مليكانا، كنتُ أنا في المقدمة، أتقدم بخطًى واثقة مشبعة بالغرور، وعيناي معلقتان بعينيها، ثم قلت ساخرًا:

- ملكَتنا... أشرقتِ بحضورك، لو أخبرتِني مسبقًا بزيارتك لكنتُ أرسلتُ فرسان الدَامُون ليصطحبوكِ... ولكنتُ أنا ارتديتُ بذلتي التي تليق بثوبك.

لم ترد، لم تنظر إلى أحد غيري، كانت عيناها مُثبتة في عيني كأنها تُحرقني من الداخل بصمتها، لم تتكلم للحظة طويلة ثم قالت بصوت منخفض لكنه اخترق كل القاعة:

- هذه خيانة.

اقترب رازمهت منها بسرعة وذعر ثم أمسك بذراعها وقال:

- مَلَيْكَانَا، دعينا نتحدث!

هنا لم أعد أرى شيئًا سوى يده على جلدها، رأيت النار تتصاعد في رأسي وشعرت بعروقي السوداء تتصلب بين أضلعي، كل شيء انقلب أحمرا، أمسكتُ كتفه وسحبته بعنف حتى طرحته أرضًا ثم جثوت على ركبتي ووضعتُ سكيني تحت عنقه وقلتُ بصوتٍ منخفض يقطر غضبًا:

- إذا لمستَها مجددًا يا أخي، أقسم! أحبك، لكني أقسم أني سأقطع يدك و...!

لكن قبل أن أنهي جملتي، دوى في القاعة صوت مرتل لق
قرآنية بصوت قوي يهز الجدران، كل من في القاعة صمت
تجمدوا، مَلَيْكَانَا لم تُبعد نظرها عني وأنا لم أُبعده عنها.

اقتربت لازار من الملكة وقالت:

- مَلَيْكَانَا، لقد دخلت روح جديدة.

نظرت إلى الجموع ثم قلت ساخرًا:

- روح جديدة؟ هاهاها، أعتقد أن وقت التسلية قد بدأ.

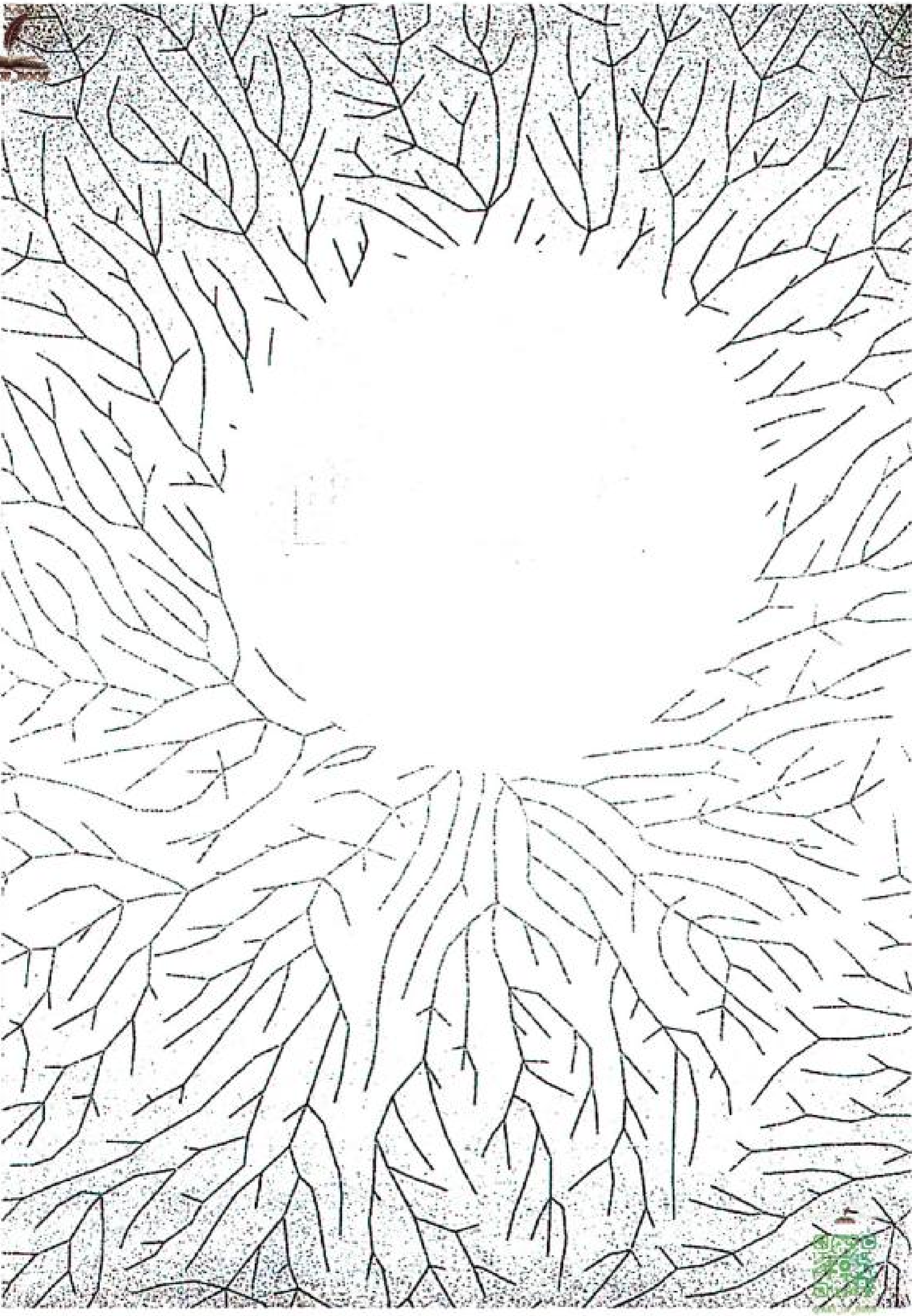

كنت غاضبة إلى حد لا يُوصف ومع ذلك لم أُظهر شيئًا لذلك الوحش لأنني أعرفه، أعرف أن أكثر ما يُرضيه هو أن يراني أتحطم أمامه أن أنكسر أمام عينيه أن تنعكس جراحي على وجهي، لذا نظرت إليه بصمتٍ باردٍ للحظة طويلة ثم استدرت دون أن أنطق وخرجت من تلك القاعة والغضب يحرق داخلي. مشيت بخطى واثقة ثقيلة والجموع خلفي تنتظر أن أغادر أولًا ليبدؤوا بالخروج، كان وجهي قاسيًا صلبًا لا يخفي شيئًا من النار التي تحترق خلف عظامه.

قالت لازَار وهي تمشي خلفي بخطى هادئة كأنها تعرف ما سأفعله قبل أن أفعله:

- هو يفعل هذا ليغضبكِ يا مليكانا، أنتِ تعرفين ذلك.

لم ألتفت وقلت:

- لا، هو لا يفعل هذا ليغضبني، هو يفعله لأنه يريد أن يسحب العرش من تحت قدمي، أراه بوضوح، خطته واضحة، خداعه واضح، هو لا يريد أن يثير غضبي هو يريد أن يخلعني وأنا لن أسمح له.

اقتربت لازَار ووضعت يدها على ذراعي وقالت:

- لا تدخلي لعبته هو لن ينجح، كلهم اختاروكِ ملكة لأنهم يعرفونكِ ليس لأنه لا يوجد غيركِ، بل لأنكِ الوحيدة التي لم تؤذِهم، الوحيدة التي لم تلمسهم بسوء بينما هو لم يكن إلا قاسيًا متعجرفًا مريضًا بالقوة، لقد نسي الجنود كم عذبهم نسيَ الدَامُون كم جَرهم نحو الجحيم، أنتِ لم تلمسي أحدًا منهم أنتِ فقط عاقبتِ الأرواح التي تستحق العقاب.

قلت وأنا أستدير إليها بحدة:

- ومع ذلك بعضهم ركع له، رأيتهم!

قالت:

- قلة فقط وقد أخبرنا الهامِسُون بما حدث مباشرة. الكل ما زال معكِ هو فقط أراد أن يصنع مشهدًا. أراد أن يزرع الشك لكنه نسي من تكونين.

نظرت في عينيها طويلًا ثم قلت:

- لازار. أنا لا أحتاج الآن كلمات تُهدئني...

اقتربت لازار أكثر وضغطت على يدي وقالت بنبرةٍ خافتة:

- أنت تعرفين أكثر مني يا مليكانا. أنت تحكمين هذا العالم منذ ألفي عام وأنا معك منذ ألف عام. أنا أعرفك أعرف أنك ستفعلين ما يجب فعله وأنك لن تنحرفي عن طريقك. حتى لو احترق هذا الأخير. أنا مستعدة أن أموت من أجلك أن أقتل لأجلك أن أمشي معك حتى النهاية.

نظرت إليها لحظة ثم سحبت يدها برفق وقلت:

- أعلم يا لازار أعلم. شكرًا.

ثم أدرت وجهي إلى الأمام وعدتُ إلى صمتي. لم يبق لي في هذه اللحظة سوى هدف واحد. كان صوت الآيات يتصاعد من أعماق البرج يهبط من السماء، كأنه يناديني من بُعدٍ سحيق. كل صخرة في سُوبكْتيس كانت ترددها كل جدار كل هواء أتنفسه وكل شيء في هذا العالم يهمس لي بأن ساعة الامتحان قد حانت. فمضيتُ بخطى ثابتة نحو الساحة، نحو الصوت، نحو الروح الجديدة التي تجرها أقدارها نحوي دون أن تدري.

كانت قطرات المطر تتساقط بخفة... سرتُ دون أن ألتفت. كنت أسمع خطوات الجيش خلفي تختلط مع أنفاسٍ متقطعة وأصوات خافتة لا أعرف إن كانت خوفًا، أم خضوعًا أم مجرد حيرة.

كلما اقتربتُ من الساحة ازداد صدح الصوت، كان صوتًا غريبًا... مستفزا، صوت رجل يقرأ القرآن... لا، ليس يتلوه، بل يرميه كالسياط كأن الآيات أصبحت أدوات عقاب في يده حيث كان يصرخ بها بصوتٍ أجش. اقتربتُ أكثر، وبدأت أفهم بعض الكلمات: عذاب، جحيم، نار، عقاب، ثم رأيتهم، اثنان من الكوسيين يسيرون بجانبه، لا يجرؤان على لمسه يحملان خناجر طويلة يلوحان بها من بعيد، يهددانه، لكن جسده لم يُمس.

كان واقفًا بقامته المائلة قليلًا، ثوبه أبيض لكنه ملطخ ببقع سوداء لا أعلم إن كانت رمادًا أم شيء أسوأ، لحيته كثة بيضاء مشعثة، في يده اليمنى مسبحة تلف أصابعه بعنف وفي اليسرى مصحف مرفوع نحو السماء وكان يصيح:

- وَسَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ...
- وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى...
- ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ...

كان يلتفت بكل الاتجاهات؛ يصرخ في وجوه الحضور يتقدم، ثم يتراجع، ثم يركض نصف ركضة، ثم يضحك، لم يكن يقرأ، كان يقاتل، لم يكن يبلغ، كان يعاقب، وكنت أراه يقترب شيئًا فشيئًا حتى دخل الساحة أمامي. كل الجنود تجمعوا حول الساحة كما يفعلون دومًا، ورايفان كان هناك أيضًا، واقفًا على حافة النظرة، لم يتحرك، لكنني شعرتُ بجسده مشدودًا كما لو كان مستعدا للانقضاض، التفت نحو الهامسة وسألتها:

- ماذا فعل؟ لماذا هو هنا؟

أجابت:

- يُصلي ليلًا ونهارًا، يتلو القرآن بلا توقف، لكنه يدين كل من حوله

يراهم نجسين، يظن نفسه نقيًا وحده، يتحدث باسم الله وكأن

اختاره دون سواه.

نظرتُ إليه...كان يقترب مني بخطى سريعة، عيونه محملة بشيء

بين الجنون واليقين وكان فمه لا يزال يصرخ:

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ... لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ... أَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ...

وفجأة، اهتزت الأرض من تحتي وارتفعت عاصفة من التراب الأسود

التفت حول الساحة كأفعى عمياء خرجت من باطن الأرض، تعوي

وتصفع الوجوه. كانت الأرض تنشق والصخور تتساقط من الأعلى

الرياح تعصف، العظام تطير، أصوات بكاء تأتي من اللاشيء، جنود

الهامِسُون انبطحوا أرضًا وغطوا وجوههم، ورايفان ظل واقفًا، لكن

صدره كان يعلو ويهبط بقوة محاولًا البقاء متماسكا، شعري بدأ يطير

حول وجهي، لكني لم أتحرك، كنتُ ثابتة، عيوني تحترق من الداخل، ثم

ارتفع رأسي وحده، نظري اخترق الرجل، وصرخت:

- بدأ اختبار النفس!

خلقتُ الجحيم بيدي واستعملتُ الهامِسُون كما أفعل دائمًا، جعلتُهم

يرتدون وجوهًا جديدة، يحملون نفوسًا مكسورة وأجسادًا محترقة، كل

واحدٍ منهم أدى دوره بإتقان. كانت الأرض تحتهم من لهب والسماء

فوقهم من رماد والصراخ لا يتوقف يتقاطع مع ضحكاتٍ مفككة ونحيب

بلا دموع، كل شيء يشبه جحيمًا افتراضيا.

دخل الرجل وأنا أراقب من بعيد يسير فوق الصخور البركانية بخطوات ثابتة بطيئة، لم يهتز لم يتردد لم يرتبك، عيناه تتفحصان الجدران التي تقطر دمًا، يمشي بخطوات المصلي، يحمل مسبحته، يهمس آياتٍ عن العذاب وشفتيه تتلونان بسوادٍ كالفحم وابتسامة غريبة ترتسم على وجهه، مزيج من الاستعلاء والاحتقار، لم يخف لم يتأثر لم يشعر بأي شيء.

وفجأة، سَمَعَ صوت بكاء.

توقف ثم استدار ببطء، كان هناك رجلٌ يركع على نهرٍ من الحمم، جبينه ينزف من حرارة السجود لا يقرأ شيئًا فقط يبكي، يتمتم:

- أريد الرجوع، لا أستطيع، قلبي ثقيل، أريد القرب...

اقترب منه وقال:

- لماذا تبكي؟ أنت لا تصلي. أنت فقط تركع بلا روح، بلا معنى، لماذا تسجد دون كلام؟ الله لا يراك. الله لا يقبلك. الله لا يريدك!

رفع الرجل رأسه وقال بصوتٍ مخنوق:

- بل يريدني، هو الغفور، يقول إنه قريب، أحتاج أن أرجع، لكني ضعيف، أنا أطلب رحمته، فقط رحمته...

صفعه.

ثم نظر إلى الأرض أمامه، رأى ألواحًا من المعدن اللامع، شحذها بأظافره، غرسها تحت النقطة التي يسجد فيها الرجل ثم تراجع خطوة.

قال له:

- اسجد مجددًا... أرني كيف تصلي.

تردد الرجل، ثم انحنى.

وفي اللحظة التي لامس فيها جبينه المعدن، ... صوت تمزقٍ حا
كأن قطعة قماشٍ مبللة قُطِعَت بِمدْية صدئة، اخترقت الشفرة جلد
وجهه، مزقت جلده من منتصف الجبهة حتى أسفل الأنف، صرخ وارتد
إلى الخلف، لكن الجلاد لم يمنحه وقتًا للراحة.

أمسكه من عنقه ودفعه مجددًا نحو السجود، ومع كل سجدة، كانت الشفرة تغوص أعمق تمزق طبقاتٍ أعمق من اللحم حتى وصلت إلى الغضروف، سمعتُ صوتًا خافتًا يشبه صرير العظم حين يُجر على الزجاج ورأيتُ كيف كان أنفه ينشطر، كيف كان وجهه ينكمش كجلد يحترق على موقد حتى لم يبقَ منه سوى فتحة واحدة تنفث دمًا ساخنًا.

كان يصرخ:

- يكفي، يكفي، أرجوك...

تركه أخيرًا ثم تراجع بخطواتٍ غير متزنة. لكن فجأة، سمعها...

صوتٌ لم يكن كالصراخ ولا كالنحيب، بل كأنَّ أحدًا يغني... لا، كأن أحدًا يهمس بلغةٍ مقلوبة، لغةٍ لا تُشبه ما أنزل ولا ما رُفع. ارتعشت ذراعاه دون أن يفهم، واستدار نحو النداء.

كانت هناك، في عمق الكهف الجحيمي. امرأةٌ تنحني أمام مرآة مغطاةٍ بالبخار ترتجف في ثوبٍ أقصر من أن يُغطي العار. كانت تمسح شفتيها بأحمرٍ قاتم ثم تمحوه، ثم تعيده، ثم تمحوه من جديد، نظراتها مثقلة كمن يحدق إلى جروحٍ قديمة لا تظهر إلا في العيون. كانت تغني؛ نعم، كانت تغني بصوتٍ خافت شعرًا لا يُقرأ. كل حرف كانت تلفظه بالمقلوب، كلمات تتراقص مقلوبة في الهواء، مشوهة، حزينة، مبللة بالخطيئة.

ART_OF_BOOK

تقدم نحوها مرتبكًا مذهولًا، حاول أن يفهم، لكن كل ما سمعه كان طلاسم، كان همسًا منحرفًا عن الفهم. فجأة، ظهر واحدٌ من الهامِسُون بجانبه، مد يده وأعطاه مرآة صغيرة وهمس:

- عليك أن تفك الشيفرة...

رفعها الرجل نحو الأغنية، فرأى الكلمات تنعكس وتستقيم، رأى الشعر يُقرأ، ففتح فمه وابتلع صمتًا طويلًا...

امسح لتسمع (اختياري)

@ART_OF_BOOK

♪♪♪♪♪♪♪♪

أنا التي كنتُ وجهًا بلا اسم

أزينُ الشوكَ وردًا... وأكتمه في الفم

أصابعي دعاءٌ... ومساحيقي ندم

أضحكُ في العلنِ، وفي الليلِ أُعدَم

أنا التي باعني والدي في السكون

وتركني أخي وحيدةً بين السجون

أنا التي اغتُصبتُ في عمر الزيتون

ولم أصرخ... لأني كنتُ مدعوةً للجنون

كل الرجالِ أتوا ومضَوا

تركوا على شفتي ما انقضى

قالوا أحبكِ ثم اختفَوا

وتركوني وحدي... بلا صدى

كنتُ أؤمن أن الحب عبادة

لكنني كنتُ أبيعها بسعرِ الإفادة

كنتُ أقول: أريد اللّه، لا زيادة

ثم أُطفي الشمعة، وأُضيء السيجارة

أنا التي تعرف اللّه في صدرها

وتُطفئه بيدٍ ترتجفُ من صبرها

أنا التي تقول له: اقترب مني... فتهربُ

أنا التي تفتح باب السماء... ثم تغضبُ

أنا ثوبٌ ممزق في الحانة

أنا جسدٌ مصلوبٌ في الإهانة

أنا دمعةٌ في لحظةٍ فاجرة

أنا صلاةٌ في لحظةٍ كافرة

لكنني أعرف أن اللّه يراني

يعرف اسمي ويرى ألواني

أنا الغريقة في بحر الأحزانِ

لكنه يعلم من أنا، ومن أين أعاني

♪♪♪♪♪♪♪

توقف الصوت فجأة وسقطت المرأة، ارتطمت بالأرض وتحطمت شظايا تناثرت كقطع زجاجٍ نازفة وساد الصمت لحظة واحدة، لحظة معلقة في الهواء قبل أن تُسحَب المرأة بعنف!

كان هو...

يمسك شعرها كمن يمسك بسلسلة عاهرة سقطت في الرذيلة يسحبها كأنها لم تكن شيئًا سوى وسخًا يُجر على أرض الجحيم، وجهها يرتطم بالصخور أطرافها تترنح وصوتها ينفجر:

- أرجوك، لا، لا تفعل بي هذا، أرجوك... أنا نادمة، سامحني سامحني يا الله، سامحني...

لكن صوته كان أعلى، كان يردد كقاضٍ في محكمة السماء:

- ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا

- فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ

كانت تحت رحمة قبضته، ترد عليه بكلمات ترتجف وبصوت يملؤه القهر:

- وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ...

كان يجرها، يقذفها نحو فتحة لافا تغلي، لا دخان، بل بخار أسود، لا ضوء، بل حُمرة دمٍ يغلي في صحنِ جحيم. رفعها بيديه ووضع وجهها على حافة الحمم ثم... ضغط. سمعتُ الصوت: تمزق، تفتت، بخار لحمٍ حي يتبخر من وجهها، أصوات طقطقة عظام جبهتها، تأوهٌ طويل ومشروخ، ثم:

- أرجوك، أرجوك، سامحني، أنا أحبه، أنا أحبه رغم كل شيء، لماذا لا تصدقونني، هو يعلم، الله يعلم قلبي، أنا... لستُ سيئة، أنا فقط... ضعيفة!

لكن صوته خنقها:

- كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا

ثم أعاد رأسها مرة أخرى، وثالثة، ورابعة، كل سجدة تُغرَس فيها الجمجمة، وكل صرخة تُشعل فيه لذة الحكم، كانت تحترق وهي تردد:

- سامحني يا رب، أنا أحبك، أحبك، لكنهم... كسروني، كلهم... أبي، أخي، الرجال... كلهم استعملوني، أرجوك... إن كنتَ تعلم فاغفر، إن كنتَ تراني فخذني إليك، أنا لا أنتمي هنا...

قال لها وهو يضغط رأسها مرة أخيرة:

- لا، لا تنتمين إليه، تنتمين إلى العار!

ثم... رماها.

رماها بكل ما فيه من احتقار، أسقطها في الهاوية، في قلب اللافا

واختفى صوتها في عمق اللهب. رمى جسدها كما يُرمى جُرذ نافق في فرنٍ لا ينطفئ، لم ينظر خلفه، لم يرد سماع استغاثتها الأخيرة، كل ما أراده هو أن يُسكت ذلك الرجاء الممزق، أن يدفن صوتها مع جلدها المحترق. ولما استدار، رأى رجلًا على بعد خطوات، كان جاثيًا على الأرض، يلف حول جسده الرث بطانية ممزقة، لا يُظهر من وجهه سوى عينين واسعتين، تتأرجحان بين الحائط والسقف والفراغ، كان فمه يتمتم بشيءٍ لا يُفهم، يضحك... ثم يبكي... ثم يصرخ... ثم يضحك من جديد.

اقترب منه بخطى بطيئة ولما صار على بُعد ذراع، رأى الرجل يُلق كيسًا صغيرًا من الجلد، أخرج منه مسحوقًا أسود، واستنشقه دفع واحدة ثم شهق بصوتٍ عالٍ ثم قال:

- هم كذبوا... كلهم... قالوا لي جرب، قالوا لي مرة ولن تضر... قالوا لي ستنسى، لكني لم أنسَ... بل انكسرت...

ضرب الأرض بكفه المرتجفة وانفجرت عيناه بالدموع:

- قالوا لي إنني لست وحيدًا، لكني كنتُ وحيدًا... وحدي في الغرفة... وحدي في الشارع... وحدي في كل شيء... ثم جاءت هي... وقالت لي أحبك... ثم اختفت... لا أعرف إن كانت كاذبة... أو فقط... تعِبة... وأنا كنتُ تعِبًا أيضًا...

مد يده اليمنى وسحب قارورة مكسورة من جيبه ثم شرب منها ما تبقى ثم تابع:

- كنتُ أصلي، حقًا، والله كنتُ أصلي... لكن قلبي كان يحترق، ولا أحد سمعه... كنتُ أصرخ، لكن لا أحد ترجم صمتي... حاولتُ... أقسم أنني حاولتُ... لكن الألم أكبر مني، من عقلي، من ديني، من جسدي...

وبينما هو يُلقي بكلماته المختلة في الهواء، بدأ رأسه يميل يمينًا وشمالًا بعينين غائرتين شفتين متشققتين وصوتٍ يخرج من فمٍ لا يُصدق نفسه. كانت هناك كلمات متطايرة من شفتيه.

اقترب منه ببطءٍ، عيناه جامدتان، شفاهه جافة وخطاه تسحق الأرض ثم جلس القرفصاء أمامه، تأمله للحظات دون أن يتكلم ثم مد يده إلى صدره، فتح قميصه، ورأى الجلد الممزق من الإبر القديمة والأورد الزرقاء التي تشبه خريطة الموت وقال له.

- أنت نجِس، أفسدت جسدك وروحك، لا دواء لك، الله لا يحبك، أنت لا تستحق الغفران.

ثم أخرج من ثوبه أداة معدنية طويلة شبيهة بملقطٍ من الجحيم وغرسها في فتحة أنف الرجل المدمن الذي صرخ صرخة لم تخرج من حنجرة بشر، لكن التقي لم يتوقف، بل أدخل الأداة أكثر وسحب منها قطعة صغيرة من المخاط والدم، نظر إليها، وقال:

- ها هو ما في داخلك، تعفن وقذارة.

ثم أخرج قارورة صغيرة فيها سائل بني يغلي وسكبها ببطء في أذنه اليمنى، فبدأ اللحم يذوب مثل قطعة لحم تُلقى في زيتٍ يغلي، تصاعد الدخان وانبعثت رائحة تشبه لحمًا ميتًا يُحرق وبدأ المدمن يتلوى، يضرب الأرض برجليه، يصرخ بأسماء لا أحد يعرفها، يبكي، يشهق، يتوسل:

- أرجوك... لا... أريد فقط أن أشفى... أريد أن أعيش... فقط... أعيش...

لكن الرجل التقي لم يكن يسمع، أو ربما لم يكن يريد أن يسمع، بل أمسكه من شعره وسحب رأسه نحو الأرض ووضع خده على صخرة سوداء، ثم أخرج مسمارًا طويلًا، صدئًا، ومطرقة، وبدأ يدق المسمار في رأسه، في موضعٍ خلف الأذن مباشرة، صوت الضربة الأولى كان كالرعد، والثانية كأنها فجرت العصب، والثالثة جعلت الدم يتدفق مثل نافورة صغيرة، ثم أكمل الطرق حتى خرج المسمار من الجهة الأخرى وبقي الرأس مسمرًا في الصخرة.

صرخ الرجل، ثم غاب، ثم عاد، ثم سقط لسانه من بين شفتيه كقطعة لحم محترقة، ثم قال:

- هل... هل ما زال الله... يسمعني؟

وفي تلك اللحظة، بدأ رأسه ينتفخ ببطء ثم بسرعة جنونية حتى صار كأنه بالونٌ ضخم، ثم... *انفجر.*

انفجر رأس المدمن وتطايرت أشلاؤها في الهواء وارتطمت بوجه الرجل التقي، ثم اختفى كل شيء.

فتحتُ عيني.

كان يفتح عينيه في اللحظة نفسها، يتنفس بصعوبة، وجهه مغطى بالعرق والجنون، ينظر إلي وكأنه لم يرَ شيئًا!

نظرتُ إليه دون رحمة وقلت:

- لقد كنتَ القاضي حين كان الناس يبحثون فقط عن الله، حين كانت أرواحهم مكسورة وأيديهم ممدودة نحوه، أتيتَ أنتَ ودفنتَهم بكلماتك، بأحكامك، باسم من لم يكلفك بذلك.

اقتربتُ منه وهمست:

- لقد فشلتَ في الاختبار النفسي.

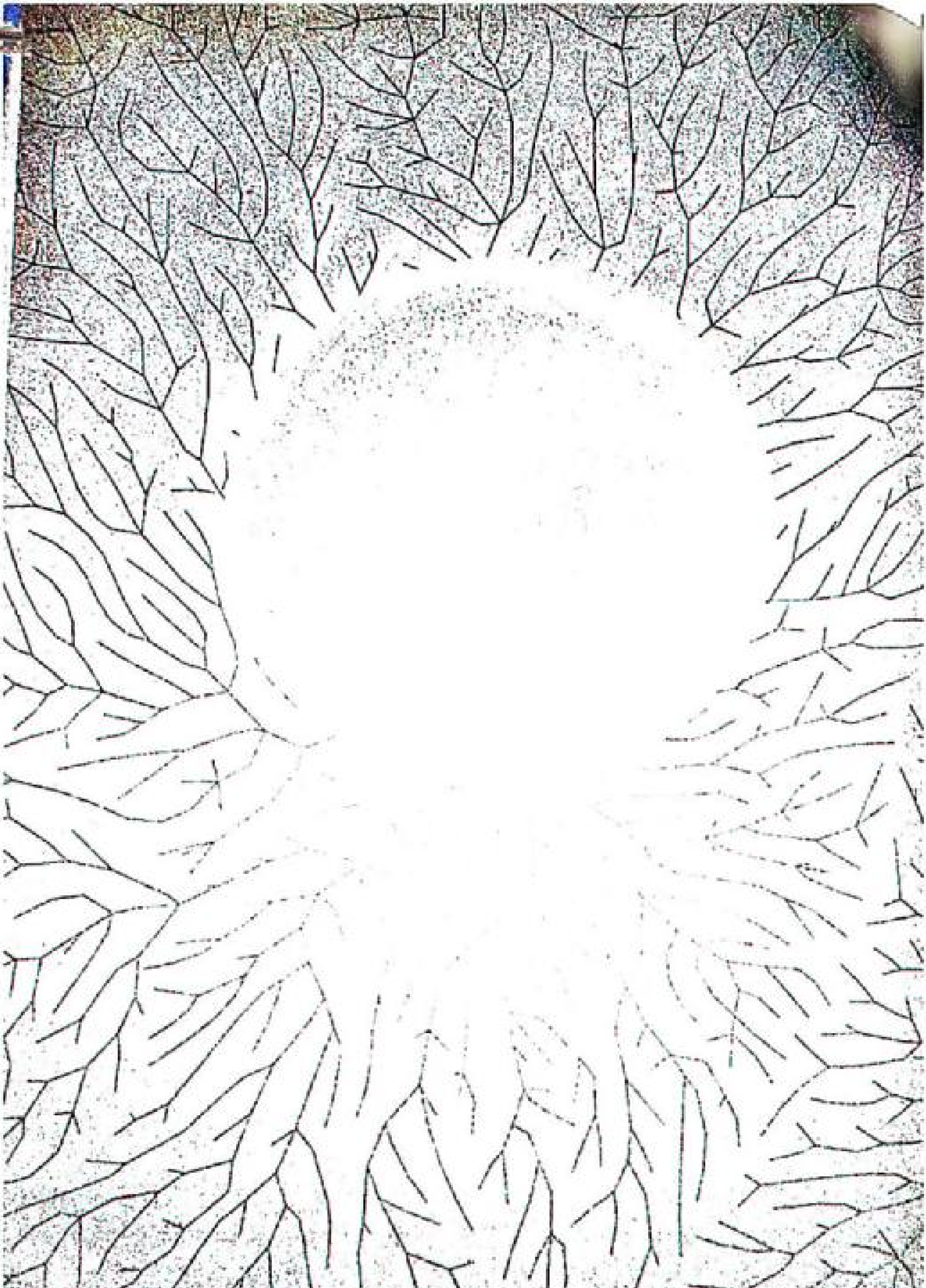

تكاد تقتلع الأجساد من أماكنها واشتد المطر حتى غطى الرؤية تمامًا، جعلني أصرخ كي يصل صوتي وسط الضجيج، تقدمت نحو الرجل وأمرت:

- ابدأوا الاختبار الجسدي.

بدأت كعادتي أدور في المكان أفتعل ذلك العرض السخيف الذي طالما منحني القوة، رفعت ذراعي نحو السماء رأسي إلى أعلى والمطر ينساب فوق وجهي، الدَّامُون يصفقون ويهتفون وأنا أشعر بنشوة لا تشبه شيئًا، تلك النشوة التي لا تُمنح إلا لمن يملك القدرة على تدمير الآخرين دون أن يرف له جفن.

أشرت بيدي فاقتربوا منه ثم صرخت:

- الآن... سيشعر بما جعلهم يشعرون به... سيذوق نفس الألم.

كنت واثقًا أنه سيخسر، ضعيف إلى درجة تُثير الشفقة، ظن نفسه فوق الجميع ولم يكن سوى حشرة، وددت التخلص منه سريعًا والمضي نحو خططي القادمة، نظرت إلى مَلَيْكَانَا، كانت لا تحيد ببصرها عني، ملامحها صامتة متجمدة تثير شيئًا لا أملك له اسمًا، لكنني تجاهلتها، المتعة الحقيقية قد بدأت لتوها.

صفرت، فجأة انطلق من العتمة كلبان ضخمان لا يشبهان شيئًا مما يُعرف في العالم الحقيقي، كانا أكبر من حجم إنسان، أسنانهما كأنياب نمر، أفواههما تقطر دمًا، أمرتهما أن يبدآ... فمزقاه.

غاصت أنيابهما في صدره، عضا كتفه فخرج عظمه، جراه من ساقيه حتى تمزقت، واحد عض وجهه والثاني كان يحفر في بطنه بمخالبه،

الأمعاء خرجت تتدلى، الدم غطى الأرض وأنا أضحك، لم أضحك منذ قرون كما ضحكت تلك اللحظة.

ثم ظهر أحد الدَامُون، يشبه ذاك الذي ظهر في اختبار مَلَيْكَانَا، اقترب منه وصرخ:

- كنتُ ضعيفًا، لم ترحمني، لم ترَني إنسانًا.

الرجل المتدين لا يزال يصرخ:

- أنا نفذت أوامر الله، أنا لم أخطئ، الله هو من خلقني لأحكم بينكم...

وهو يتمزق.

ثم ظهرت امرأة هي الأخرى شبيهة بتلك التي رأيناها من قبل، كانت تضع الكحل وتغنيه، تبكي وهي تقول:

- لم ترَ قلبي، حكمتَ علي من مظهري، كأن الله لم يزرع الرحمة في صدرك...

اقتربتُ منه، أخرجت السكين من حزامي، غرزته في صدره وبدأت أجره على جلده، لم أتوقف، كنتُ أشقه كما تُشق ثمرة عفِنة، كان يصرخ يتلوى وأنا أتابع؛ لا رحمة، لا صوت سوى صراخه، وفي لحظة... بدأ يبكي.

أول دمعة سقطت أربكتني، لم أكن مستعدًا لرؤيتها، أمعنتُ أكثر، مزقت لحمه، مزقت عنقه، فجأة قال:

- آسف... سامحني يا رب...

وقفت للحظة، حدقت إليه وكنت على وشك أن أصرخ من غضبي ثم اقترب رجل ثالث رأسه مفتوح، يصرخ:

- كنت محطمًا، ... لم تر الفي الله وحده رحيم...

أشرت إلى أحد الدَامُون فأعطاني مسامير حديدية طويلة، وضعتها على رأس الرجل المتدين، ضربت الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، بهدوء قاتل، كان يصرخ:

- سامحني، لم أفهم، لم أرَ، كنتُ أظن نفسي فوقهم، كنت أظن أن الله اختارني وحدي، يا رب اغفر لي، اغفر لي...

كنت أسمع صوته كأنه يُشعل شيئًا في داخلي، وفي لحظة، سمعت دَمْدَمَة صامتة داخلي، نظرتُ إليه، نصف عروقه السوداء بدأت تختفي كأن النور يشق جلده من الداخل، قلتُ لنفسي:

- اللعنة، لقد نجح.

تراجعت خطوة إلى الوراء، لم أصدق، الرجل الذي أذقته أشنع العذاب الرجل الذي خرج فاشلًا من اختبار مَلَيْكَانَا، انتصر الآن علي، منذ متى لم يهزمني أحد؟ نسيت الشعور، كنت مذهولًا، نظرت إلى مَلَيْكَانَا، ابتسمت ابتسامة ساخرة مملوءة بالفخر كأنها تقول:

- جندي آخر لجيشي.

تقدمتُ لأستعيد رباطة جأشي لكن قبل أن تنطق مَلَيْكَانَا بحكمها شعرت بيد تمسك قدمي، نظرت... كان هو، مُنهارًا، يُمسكني ويبكي ويصرخ:

- أنت أيضًا متكبر، أنت أيضًا تظن نفسك ربا، الله سيحاسبك، ارجع ارجع إلى الله...

حاولتُ دفعه، لكنه صرخ:

- كلُ ساقٍ سَيُسقى بما سقى...

شعرت بقشعريرة لم أشعر بها منذ دخلت هذا العالم، الخوف... نعم، هذا هو، شيء يشبه الخوف، رأيت عروقي السوداء تتراجع للحظة!

مَلَيْكَانَا كانت لا تزال تنظر إلي بعينيها الجامدتين، كانت صدمتها واضحة، حتى هي لم تتوقع هذا، حتى هي لم تزني أتراجع أبدًا، أغلقتُ عيني، ركزت، جمدت نفسي، جمدت كل شيء في داخلي واستعدت عروقي السوداء كما كانت.

تقدمت إلى الوراء كأن شيئًا لم يحدث، رفعت رأسي من جديد، لا أزال زَايْفَان، السيد الجبار، حتى في الهزيمة أنا المنتصر، نظرت إلى الجنود من حولي، المطر غطى كل شيء، لا أظن أنهم رأوا، فقط مَلَيْكَانَا كانت قريبة كفاية...

تقدمت مَلَيْكَانَا نحوه، لم تقل لي شيئًا، نظرت إلى الروح ثم قالت:

- لقد نجحت في اختبار الجسد... وفشلت في اختبار النفس، ستلتحق بجنود الهامِسُون.

وبدون كلمة إضافية، اقتربت لآزار وأخرجت الكتاب ذاته من صدرها وقدمته لمليكانا التي فتحته مباشرة وقالت كالعادة:

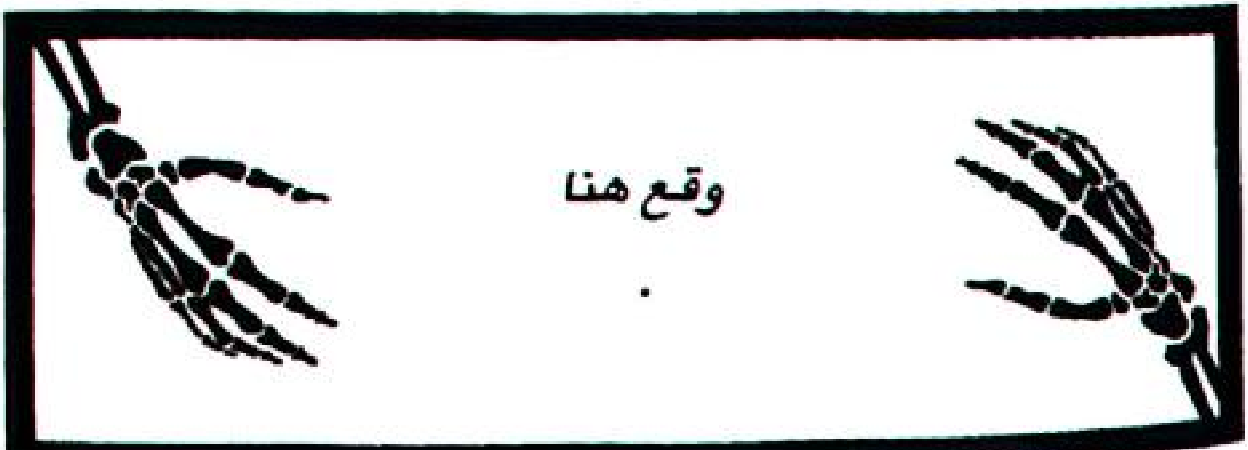

أغلقت لأزار الكتاب وأرجعته إلى مكانه ثم ابتعدتُ وبعدها مباشرة صرخت مليكانا:

- غازولا!

زحفت غازولا الناهشة من خلف الجموع كما تفعل دائمًا، لا صوت سوى لهاثها الثقيل الذي يشبه النباح المقطوع وصلت إليه، لم تنظر إلي، لم تنظر إلى أحد سوى نصفه الأعلى ثم غرست أسنانها العظمية في خاصرته وبترته إلى نصفين دفعة واحدة نصفه السفلي سقط أرضًا كجذع شجرة اقتُلع دون إنذار، أما النصف العلوي فقد حملته بأسنانها نحو الأعلى، بدأت تمزقه وتلوكه وتلعقه وكأنها تستمتع بمرارة ماضيه في دمه ثم بصقته بين أقدام الهامِسُون.

وقفت أنظر إليه وهو يتفكك ثم نظرت إلى الجنود من حولي كانوا قد باشروا بالتراجع رويدًا رويدًا، المطر لا يزال يهطل والعاصفة ما زالت تضرب الساحة وكنت أنا نفسي على وشك أن أعود إلى جناحي حتى سمعتها تصرخ صرخة اخترقت الطوفان:

- الحُكم... لم ينتهِ بعد!

تجمد الجميع، خطوة واحدة فقط كنت على وشك اتخاذها ثم توقفت التفت إليها ببطء، لم أفهم، لم نفهم، حتى الهامِسُون والدّامُون عادوا أدراجهم جميعهم ينتظرون التفسير جميعهم مرتبكون، حتى أنا شعرتُ بشيء... مختلف.

كانت واقفة كتمثال، فستانها الأحمر يلتف حول جسدها الرشيق عيناها لا تفارقاني، باردة قاسية ثم قالت:

- لدينا...خيانة.

شعرت بشيء يتحرك داخلي، لم يكن خوفًا، بل... لا أدري! ضيقت حاجبي، التفت نحوها مباشرة وهي ما زالت تنظر إلي، لم تغمض عينيها لم ترف ثم أضافت:

- وأنتم... تعرفونِ جميعًا ما يعنيه هذا الفعل.

لم أتحرك، لم أتكلم، فقط نظرتُ إليها كأن عيني تقولان لها: «أتريدين قتلي؟ تفضلي»، كنت أعلم ما يعنيه الاتهام بالخيانة، كنت أعلم أن غازولا ستكون نهايتي وأن جسدي سيُنهَش وسأُلقى في أحضان كَوْسَانُوكْتِيس عبدًا... دَامي أو هامِس، لكنني لم أتراجع.

قالت بصوت ثابت:

- يا سَيدُ المعاقبين، تقدم خُطوة.

ابتسمتُ تلك الابتسامة الصغيرة التي أحتفظ بها للشتائم المقنعة، تقدمت وقبل أن أفتح فمي لأتحداها بصوتي، قالت بصوتٍ أعلى:

- ليكن هذا العالم شاهدًا... اليوم...

لم أتحرك.

لكني لاحظتُ نظرتها تغيرت.

ثم نظرتْ إلى يميني، لم تنظر إلي مباشرة.

لا، لا... لن تفعلها.

قالتها بصوتٍ باردٍ فجر عاصفةً بداخلي:

- اليوم أُدين أخ السَيد رَايْفَان، رازمهت، بالخيانة، وحُكمُه: الموت.

شعرت بشيء ينهار داخلي لم أعد أسمع المطر لم أعد أسمع الهمسات، فقط رأيته، يقف هناك في مكانه، عيونه الواسعة تراقبني،

وأنا لم أعرف ما أقول لم أعرف كيف أتصرف، وجهي تفتت، انفصل عن ملامحي، اختنقت.

ثم أمرت مَلَيْكَانَا:

- أبعِدوا السَيد رَايْفَان... فورًا.

جاؤوا... العشرون من الهامِسِين... حاولت مقاومتهم لكنهم كانوا كثيرين!

صرخت:

- لا... لا تفعلِي هذا، مَلَيْكَانَا... لا تفعليها... هو أخي... أخي الوحيد... الشخص الوحيد الذي تبقى لي في هذا الجحيم!

كانت تنظر إلي كأنني شبح لا يُحرك فيها شيئًا، نظرة انتقام باردة.

صرخت:

- خذيني أنا... أنا من خانك... أنا من خطط، هو لم يعلم... هو لم يفعل شيئًا... رجاءً!

وهناك... نظر إلي... قال فقط:

- أخي...

ثم رأيتُ فم غازولا يطبق على رأسه دفعةً واحدة بلا تردد بلا صوت بلا مقدمات، عضت الجمجمة من الأعلى، هشمتها، قضمَتْ جزءًا من دماغه بأسنانها الطويلة وأنا واقف لا أستطيع الحركة! صرخت، بكيت، ضربت، مزقت، قتلت، لم أعد أرى شيئًا، كان كل شيء أحمرا، كل شيء يصرخ!

صرخت:

- مليكانا......!

لكن غازولا لم تتوقف، بل أمسكت بعنقه وبدأت تمضغه، سحقته بأسنانها العظمية حتى تفتت العمود الفقري وسمعت صوت تكسر

الفقرات كأنها أغصان ميتة تحت قدم ضخمة، وهو... ما زال يصرخ، صوته لم ينقطع، لا أعرف كيف لم يمت بعد، كان يصرخ باسمي، يناديني، مد يده تجاهي، يده التي ما زالت ترتجف وراح يقول:

- أخي... أرجوك... ساعدني...

طعنت اثنين ثم ثلاثة من الهامِسِين، أردت الوصول إليه، أردت فقط أن ألمسه، أن أمسك بيده، أن أقول له إنني هنا، لكنهم منعوني، كانت غازولا تمزقه وهم يمسكون بي، كان العالم ينقلب وأنا عاجز، كان العذاب يتنقل بيننا، هو يموت... وأنا أنزف حيا.

ركلت أحد الجنود، ضربت آخر على وجهه حتى سقط، أمسكت بسيف وسحبت نصلًا مغروسًا في الأرض، قطعت به حلق جندي كان يمنعني، كان جسدي كله غضب، كله نار، كله لعنة.

وجهي، صدري، يداي، حتى شفاهي كانت تتذوق ملوحة الموت.

المطر كان يخفي دمعة واحدة فقط، دمعة سقطت دون إذني، دمعة ساخنة اختلطت بكل هذا الجحيم، لم يرها أحد، لكنني شعرت بها، سقطت مني كما يسقط كل شيء حين تخسر أخاك.

ثم رفعت مليكانا يدها وقالت دون أن تغير نبرة صوتها:

- انتهى الحُكم... تفرقوا.

استدارت... مشت.

كأنها لم تمزق للتو آخر ما بقي لي في هذا العالم.

كأن أخي لم يكن... شيئًا.

لكنني لم أسمح لنفسي بالهدوء.

ركضت، مزقت، طعنت، نسيت كم واحدًا قتلت، ربما أربعة، ربما ستة، لم أعد أعد، لكنني أقسمت... أقسمت أن سِكيني سيغرس في قلبها.

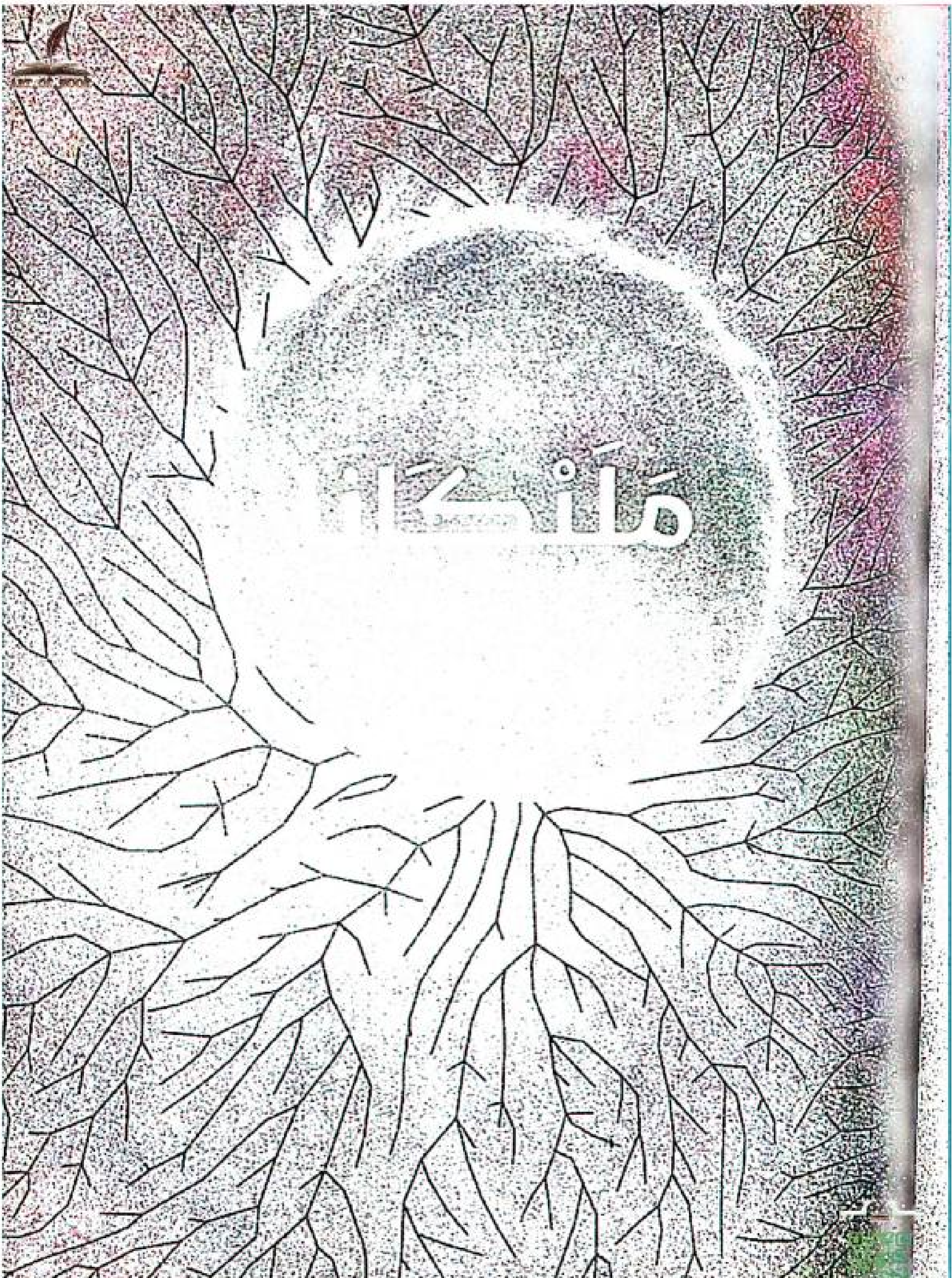
مَلْكَا

كنت أمشي ببطءٍ محسوب لا لأنني مطمئنة، بل لأن جسدي يعرف أن التسرع سيكشف ما أحاول إنكاره، كنت أزحف و في داخلي جُرح لا يريد أن ينفتح، أمشي وكأن كل شيء تحت السيطرة، كأن الخطوات المترددة فوق الطين ليست سوى اختيار، لم أكن أستطيع التراجع لم يكن لدي خيار لقد تحداني طعن سلطتي، تمرده زعزع عرشي وكان علي أن أبدو قوية.

ثم جاء الصوت... الصوت الذي اخترق طبلة أذني:

- مَلَيْكَانَا!

استدرت لا بعيني فقط، بل بروحي كلها، فإذا به يقترب لا يركض ولا يلهث، بل يمشي بخطى واثقة، لم يكن بحاجة للإسراع، اقترابه وحده يكفي ليقتل، المطر ينسكب على جسده العريض وعضلاته المشدودة وعلى سلاحه المعلق في يده اليمنى، وكل قطرة تزيده تهديدًا، خطواته ثابتة تكاد تُغرس في الأرض والغضب نفسه يدفعهُ نحوي.

تسارعت خطواتي، لم أعد أطيق التباطؤ، مضيت بسرعة دون أن أركض، فالركض هرب والهرب هزيمة... ألقيت نظرة خلفه، كان وحده، الجنود تأخروا، وغازولا... كانت ما تزال غارقة في وجبتها.

لا وقت... لا وقت للتفكير إنه يقترب سريعًا عنيفًا وكل شيء في يصرخ اهربي... ركضت نحو القصر نحو الباب نحو النجاة الأخيرة، كانت قدماي تغوصان في الطين، ثوبي يجر الوحل خلفه كذيل ملكة محطمة والريح تصفع وجهي وصدرِي يكاد ينفجر، كان قلبي يطرق عظامي من الداخل كأنه يريد أن يهرب قبلي، صعدتُ السلالم نحو الباب الكبير، يداي كانت ترتجفان لكني ابتسمت، نعم، ابتسمت لأني ظننت... أنني نجوت.

أخيرًا...

لكن الفرح لم يكتمل ولم يُمهَل إذ حين وصلت إلى الباب ودفعتُه بكل ما بقي لي من أمل... لم يتحرك.

الباب... مغلق.

نظرت إلى القفل... المفتاح ليس معي، المفتاح مع الحارسين، مع الهامِسِين الذين لم يصلوا بعد... والآن...

الخطوات خلفي،

هو!

هو يصعد الآن، أشعر به،

أسمع كل خطوة كأنها نبض موت!

استدرت ببطء والرعب يتسرب من قدمي إلى رأسي، رأيت وجهه... لا، لم يكن وجهًا كان لعنَة، كان وعدًا قديمًا يتحقق، عيناه كانتا نارًا لا تعرف الرحمة:

- ليس لكِ مكان تهربين إليه مَلَيْكَانَا، حتى لو دخلتِ قاع الجحيم سأعثر عليكِ.

قالها بصوته الأجش، بصوتٍ يمزج بين الوعد والعقاب بين الذكرى والقصاص، ثم اقترب.

أسرعتُ نحو الجهة الخلفية للقصر حيث تمتد الأرض حتى حافة الغابة، وهناك... تحت ظلال الأشجار وطبقات التربة، حفرة سرية لا يعرفها أحد سواه، تقود إلى غرفة مخفية في أعماق الأرض.

ركضت، ركضت بكل جنوني، وصلتُ الأرض الطينية، رأيت الغابة مثل من يرى الماء بعد التيه، لكن...

ART_OF_BOOK

قدمي...

انغرست.

الوحل ابتلعها.

صرخت، سحبت، حاولت، لم تتحرك، نظرت خلفي...

كان هناك.

يقف كجبل، كعاصفةٍ تمشي، المطر ينزلق على وجهه دون أن يطفئ النار في عينيه، تنفسه كان كصفير الموت، ومد يده، مدها ليأخذني ليُنهي كل شيء.

لكنها ظهرت...

غازولا!

زحفُها انفجر في المكان مثل إنذارٍ لا يُخطئ، فالتفتنا معًا نحو اتجاهها لكن قبل أن يستقر نظره عليها... كانت قد انقضت عليه بقوة دفعته بعنف وقذفته بعيدًا، لو لم تكن الأرض موحلة لقتله ذلك الهجوم لكن الوحل خفف الضربة، رأيته يسقط ورأيتها تزحف نحوه بأنيابها المكشوفة، كانت ستمزق رأسه، لكنه التف، تفادى العضة، صعد على ظهرها، وطعنها.

طعنها،

ثم طعنها مجددًا!!

وهي تصرخ، تقاوم، تتمزق، وفي اللحظة التي قلبته فيها على الأرض وهمت بمهاجمته، سحب سكينه من حزامه... وغرزها في عينها، عين الذئب، ذلك الجانب الأقوى، الأكثر توحشًا... غرز السكين في عمقه صرخت باسمها:

- غازولا!!!

@ART_OF_BOOK

لكنه لم يتوقف، كان يذبحها وأنا أواصل سحب قدمي، أواصل المقاومة، أواصل محاولة الخروج...

أخرجت قدمي!

وأخيرًا، هربت!

ركضت كأن الموت نفسه يزفر خلفي، لم أعد أفكر، لم أعد أشعر سوى بحاجة واحدة: أن أختفي، أن أذوب في ظلام الغابة، كنت أضرب بأطرافي أغصان الأشجار، أركل الطين، أزيح الأوراق بيدين مبللتين، متسختين، مذعورتين، كنت أركض وأنا ألتفت خلفي كل لحظة كل ثانية مع كل شهيق، أبحث عن ظله... لكنه لم يكن هناك، لا ظل، لا صوت، لا صدى.

لكني لم أطمئن.

رأيتُ أخيرًا غازولا تحوم فوق الأشجار، تنزف، تطير بشكل مشتت، أُصيبت بطريقة وحشية لكنها حية، هل هربت؟ هل قتلته؟ لا أعرف، فقط تابعت الجري.

ثم وصلت لمكاني السري...

أبعدتُ الأوراق، تلك الأكوام اليابسة التي أخفيتُ تحتها الممر، قلبي يدق بعنف وأصابعي ترتجف، حفرتُ بسرعة، رفعت الغطاء، فتحته وألقيتُ بجسدي داخله، سحبتُ الغطاء فوقي من الداخل، أعدتُ ترتيب الأوراق لأغلق المدخل... ثم حل الصمت.

صمت تام.

لا صوت سوى قلبي.

نزلتُ الدرجات الحجرية واحدةً تلو الأخرى، أمشي على أطراف أصابعي كأنني أعتذر من الجدران، نَفَسي يتقطع، الماء يقطر من

شعري من ثوبي من وجهي، المطر ما زال يهمس في الخارج، لكن هنا... لا يصل، هنا لا أحد يسمع ولا أحد يعرف.

وصلتُ إلى الممر فأشعلت الشعلة الخافتة المثبتة على الجدار ضوؤها المرتجف لم يمنحني الطمأنينة... تابعت السير في الممر الضيق الطويل الذي يشبه المقبرة، الرطوبة تلامس جلدي، والبرد يتسرب إلى عظامي وداخل رأسي... كل شيء في داخلي يصرخ: سيلحقك، لكنه لا يعرف هذا المكان، لا يعرفه سواي وشخص آخر فقط.

تابعت المشي حتى وصلت إلى الباب الحديدي، دفعتُه بكل ما بقي لي من قوة ثم أغلقته خلفي، استندت عليه بظهري وأخذت شهيقًا طويلًا.. أول شهيق دون مطاردة.

نظرتُ إلى الغرفة، جدرانها عارية وباردة، أرضيتها مبللة ولا شيء فيها سوى طاولة خشبية يعلوها الغبار وكل تفصيل يذكرني بأنني لست في مأمن... بل في قبر اخترته بيدي.

مشيتُ نحو الطاولة ثم جلستُ على الأرض، أغمضت عيني، حاولت أن أستعيد أنفاسي، أن أرتب أفكاري لكن الصور لا تتوقف: غازولا تنزف، رايفان يقترب، الباب مغلق، السلالم، المطر، خطواته...

ثم سمعتُها في الواقع!

خطوات،

ثَقيلة،

بطيئة،

قريبة...

شهيقي انقطع!

ليست خطوات امرأة... لا، ليست كذلك، ليست ناعمة ليست مرتجفة، بل كانت خطوات رجل.

خطواته،

رايفان، إنه هنا!

مستحيل... كيف؟

وقفتُ فجأة، اختبأت خلف الطاولة، ظهري للجدار، عيناي على الباب، قلبي لا ينبض، بل يخبط... كأنه يصرخ «اهربي»، لكن لا مفر.

ثم سمعتُها...الخدش...

كان يجر سكينه على جدار الممر، صوته يُمزق الهواء وكأنه يعاقبني قبل أن يصل وكأنه يقول لي «كل شيء لكِ... انتهى».

وصل إلى الباب الذي لم يكن مغلقًا بالمفتاح، فتحه ودخل.

أغلق الباب خلفه دون أن يُشيح بنظره عني، عيناه تتوهجان، ثيابه تقطر، خصلات شعره تلتصق بجبهته، يده لا تزال تمسك بالسكين، لكنني لم أرَ السكين... رأيتُ شبح أخيه خلفه، رأيت كل صرخة دفنها كل جرح كتمه كل غضب لم يُنطق به... والآن خرج، كله، في عينيه فقط.

لم يتكلم، لم يصرخ، لم يلعن.

كان ينظر إلي... فقط، ينظر كأنه ينتظرني أن أركع أن أُبكي أن أطلب الغفران. كان على الطرف الآخر من الطاولة وأنا في الزاوية المقابلة، لا شيء يفصل بيني وبينه إلا هذا الخشب البائس، خشب لن يحميني لن يوقفه لن يُبطئه لكنه يتركه بيننا فقط ليراني أرتجف.

ثم تحرك ووضع كفيه على الطاولة. كان طويلًا... طويلًا جدًا لدرجة أنه لم يكن بحاجة للقفز، كان يحتاج فقط أن يمد ذراعه ليصل إلي، لكنه لم يفعل مما جعلني أبتلع ريقي مرتين في لحظة واحدة.

قال بصوت منخفض أجش قاتل:

- تظنين أني لا أعرف هذا المكان؟

رمقت الباب برجاءٍ لعلني أجد منفذا للخلاص، وفي الوقت ذاته أردتُ أن أصرخ عسى أن يصل صوتي إلى من هم في الخارج، لكن لساني لم يتحرك، قلبي وحده يصرخ وجسدي يرتعش دون إذن.

تابع بنفس البرود، بنفس السخرية القاتلة:

- تظنينني غبيًا؟

ابتلعت دموعي وتراجعت خطوة للوراء، جسدي اصطدم بالجدار، لا مهرب اللعنة... ثم قلت أخيرا:

-أنا...

- مَلَيْكَانَا... لا تتكلمي!

رفع السكين ببطء، مرره على سطح الطاولة ثم قال:

- جئتُ لأحاسبك... لا لأسمعك.

ثم دار حول الطاولة ببطء، يخطو وكأن الأرض نفسها تتأوه تحت ثقله.

وأنا... أتنقل بارتباك للجهة الأخرى، نتبادل الأدوار حول الطاولة، أحاول أن أبقي المسافة لكنه لا يتعب، لا يُسرع، فقط... يُطوقني بنظراته.

صوته عاد أبطأ هذه المرة وأكثر قسوة:

- كان بإمكانك قتلي لكن أردتِ أن تقتليني بطريقة أخرى! ذبحتيني... بأخي.

تشبثتُ بطرف الطاولة بكل ما تبقى لي من قوة ثم دفعتها نحوه عله يتراجع خطوة تمنحني فرصة ولو ضئيلة للهرب، وانطلقت نحو الباب تسبقني يدي إلى المقبض، لكنه كان أسرع مني، شد شعري بعنف قبل أن أصل إليه فارتد جسدي إلى الخلف وانسحبت روحي بين قبضتيه القاسيتين، حاولت الإفلات لكنني أيقنت في تلك اللحظة أن فرصة النجاة قد تبخرت، وعندها فقط ارتخت القوة التي كنت أظن أنها تسندني.

وجدتُ نفسي ملقاة على ظهري فوق الطاولة، ذراعاي مرفوعتان فوق رأسي وساقاي تتدليان على الطرف، ووزنه فوقي ثقيل يكتم أنفاسي ويمنعها من الخروج. كان يثبتني بكامل جسده، بيد واحدة شد معصمَي معًا دون عناء، ويده الأخرى تمسك بالسكين تمرره بخفة على سطح الخشب بجوار وجهي. يحدث صوتًا خافتًا مرعبًا يذكرني أن حياتي بين أصابعه، وأنه قادر على قتلي في أي لحظة... لكنه لا يريد، ليس بعد، لا الآن.

لم يقل شيئًا، لم يحتج أن يقول شيئًا، كانت عيناه تقولان كل شيء، وكانت تلك النظرة كافية لتجعلني أرتجف بالكامل، أنسى من أنا، أنسى أنني مَلَيْكَانَا، أنسى العرش، أنسى الهامِسُون والدَامُون، وأصبح فقط جسدًا تحته، ضعيفًا، خائفًا، ينتظر مصيره.

انحنى ببطء ثم قرب وجهه من وجهي، أنفاسه الساخنة اختلطت بأنفاسي المتقطعة، كانت كل حركة منه محسوبة مؤلمة متعمدة، ثم همس:

- هشة... تمامًا كما أردتُكِ أن تكوني منذ البداية.

ثم مرر السكين ببطء على عنقي، لم يضغط، فقط لمس الوريد كأن

يرسم خط موتي ببرود قاتل وقال:

- ضربة واحدة هنا... وأنتهي منكِ إلى الأبد. لكن لا، لا، موتك لن يمنحني لذتي... لذتي أن أراكِ تتعذبين أن أراكِ تتهاوين أن أراكِ تُكسرين قطعةً قطعة... حتى لا يبقى منكِ شيء سوى الظل.

ثم شد شعري بعنف، رفع رأسي إلى الوراء وجعل عنقي بعد نحو أنظاره، وفي اللحظة التي امتدت فيها رقبتي، امتد بصري معها نحو ذراعي المشدودتين فوق رأسي، فرأيتُ عروقًا نافرة ووشمًا غائرًا في جلده، عضلات مشدودة كأنها على وشك الانفجار، عارمة، مهيمنة، وكان المشهد وحده كافيًا ليزرع في داخلي قشعريرة لم أعرف كيف أوقفها

ثم انقض على ذقني، غرس أسنانه فيه كما لو كان يقتص من عظم نفسه، ينتقم مني بجوع وحشي، شعرتُ أنني أصرخ من الداخل حتى خرج الصوت أخيرًا، عالٍ، مذبوح، لكنه لم يتوقف...بل تمادى.

مرر فمه المدمى على وجهي، على خدي، عضني هناك أيضًا وكنت أرتجف، أختنق، والدم يسيل من ذقني إلى عنقي ثم إلى صدري... كأنه يرسم خط انكساري.

همس:

- هذه... لأخي.

ثم انتقل لكتفي وعض بقسوة أكبر، أكثر عمقًا، أكثر حقدًا حتى شعرتُ أن عظمي انكسر تحته، كان يتغذى على ارتجافاتي على أنفاسي على دموعي التي لم أعد أعرف إن كانت من الألم أو من الخوف ثم قال:

- سأعلمكِ كيف تكونين عبدة، سأجعل جسدكِ يذكر اسمي، سأتركِكِ مَوْسُومة، كل مرة تنظرين فيها إلى المرآة تتذكرين لمن تنتمين، من يقرر متى تعيشين... ومتى تموتين.

حاولتُ أن أتكلم، أن أترجاه، صرخت باسمه:

- رايفان... أرجوك...

لكنه انفجر ضاحكًا، ضحكة هادئة مقيتة سوداء وقال:

- لا أحد يسمعكِ هنا، أليس هذا ما أردتِه حين اخترتِ هذا المكان؟ مكان لا تصل إليه صرخاتكِ؟ ... إذًا، اصْرُخي.

ثم رفع جسده عني دون أن يُحرر ذراعي، بل شد قبضته عليهما أكثر، وقف ببطء وبدأ يدور حول الطاولة كذئبٍ لا يتعجل، وأنا أتابعه بعينين مرتجفتين من مكاني كفريسة معلقة على حبل الانتظار.

ثم سمعتُ الصوت... ذلك الصوت الحديدي البطيء... صوت الحزام وهو يُنزَع من خصره.

تجمدت، ظننتُ أنه سيضربني، استعددتُ للوجع لكنه لم يفعل، بل لف الحزام حول معصمي المشدودين وشدهما بقسوة إلى أحد أرجل الطاولة، ربطني كأنه يربط ملكةً مهزومة أمام انتقامه، ربطني كأنه لا يريدني أن أهرب لا أن أتنفس لا أن أنسى.

اقترب من أذني وتمتم بصوتٍ خافت:

- لن أقتلكِ يا مَلَيْكَانَا، لا، بل سأجعلكِ عبدة في القصر الذي سيكون قصري وكان يومًا قصركِ... في الغرف التي كنتِ تأمرين فيها، ستطيعينني، في كل زاوية ستعرفين أنكِ لي... لي وحدي.

ثم اقترب من قدمي، أمسك السكين، رفع طرف ردائي الممزق وبدأ يمرره من الكاحل ضاغطًا ببطء شاقًا الرداء والجلد معًا، وكنتُ أصرخ، أرتجف، أنزف، لكنه لم يتوقف، صعد إلى ساقي ثم فخذي حتى وصل إلى خاصرتي والسكين لا يزال يشق، وأنا أبكي، أترجاه أن يتوقف لكن اقترب من وجهي، انحنى فوقي، وجعل طرف السكين عند ذقني ورفع رأسي به، نظر إلي من فوق وقال:

- هل ترين هذه الخطوط؟ هذه الجروح؟ هذه العلامات؟ كل واحدة منها شهادة... كل واحدة منها ستُخبركِ أنكِ مهما كنتِ الملكة فأنا، أنا رايفان، وأنا من يقرر.

مرر إصبعه على دمي ثم مسحه على فمي وتمتم:

- سأجعلكِ عبدة، لا في الخفاء، بل أمام جيشكِ، أمام أولئك الذين ركعوا لكِ. سأكسركِ أمامهم جميعًا وسأترككِ تجمعين ما تبقى من جسدكِ في أرجاء هذا العالم.

ثم... سُمع صوت الباب.

انفتحَ بصوتٍ صدى ارتجف له الجدار وانكشفت العتبة ولم يكن فيها جيش ولا الهامِسُون ولا الدَامُون ... بل كانت لَازَار.

واقفة هناك، فمها مفتوح، عيناها متسعتان، يدها ترتعش على المقبض، لم تفهم ما تراه لم تستوعب لم تتنفس.

ركضتْ نحوي، شهقتْ، صرخت:

- مَلَيْكَانَا!! ما الذي...؟!

ثم التفتت إلى رَايْفَان، صاحت:

- ابتعد عنها! ابتعد! سأُنادي الجنود! إن لم تخرج الآن سيقتلونك، أُقسم لك، سيقتلونك!

لكنه لم ينطق بكلمة، التفت نحوها ببطء، نظر إليها نظرة واحدة باردة قاطعة ثم ابتسم ابتسامة صغيرة، ابتسامة انتصار واحتقار وجنون. ثم التفت مجددًا وأخذ السكين ومسحه وخرج بهدوء، سكينه يُحدث صوتًا على الجدار يترك أثره في الحجر كما تركه في جلدي، ومشى في النفق وغاب.

لَازَار هرعت إلي، يدها تفتح الرباط تخلع الحزام تفك ما تبقى من القيود، كانت ترتجف، وأنا... لا صوت لا دمعة فقط جسدي يحترق، عنقي ينزف وثوبي ممزق.

وقفتُ بصمت ورفعت رأسي رغم الدم، رغم الألم، رغم التعب، لستُ عبدة، أنا الملكة، أنا مَلَيْكَانَا!

نظرتُ إليها، صوتي خرج كأنه مسموم:

- أين كنتِ؟ أنت الوحيدة التي تعرف هذا المكان.

لَازَار شهقت:

- لم أكن أعلم أنكِ هنا أصلًا! لم أتخيل أنكِ ستختبئين هنا!

لكني لم أُكمل، لم أرد أن أسمع. كل شيء داخلي كان يصرخ، جسدي يصرخ، فخذي ينزفان، رقبتي محترقة.

خرجتُ من الباب منهارة دون أن أُظهر انهياري، لم أُجب على أحد والجنود في الخارج يهتفون باسمي يركضون نحوي يسألون يصرخون:

- مَلَيْكَانَا! هل أنتِ بخير؟!

لكنني لم أجب، لم أنظر، لم أتكلم.

@ART_OF_BOOK

دخلتُ القصر، صعدتُ إلى غرفتي، أغلقتُ الباب، وانسحبتُ إلى الغرفة السرية خلف الستار:

هل... هل أنتم هنا؟

هل تسمعونني؟ هل تسمعون الصدى؟

لا؟

انتظروا فقط لحظة...

والآن؟ لا؟

لكني أسمعهم، يهمسون، يتنفسون

آه نعم، نعم، أعلم ما الذي يُوقظهم ويُسمِعكم ما أسمعه، تعالوا اقتربوا

سأنيرُ الأسطوانة، سرقتها من روحٍ دخلت وهي تغني، وكان في يدها الكمان

أنتم تسمعونها الآن؟ نغمةٌ غامضةٌ كأنها أنين إنسان

آه، دقيقة...أنا... أعذروني، أشعر بألمٍ في عظامي، في جلدي، في وجهي الموسوم بالهوان

أشعر بأنني قذرة، غاضبة، هشة كأنني قنبلةٌ من دخان، اللعنة عليه وعلى ما فعله بي!

هل تشعرون بما أشعر؟

☐ نعم

☐ لا

ظننت ذلك، كنت أعلم أن...

- أيتها الحمقاء

- لماذا تتكلم عنها هكذا؟

- وما دخلك؟

ها هم يستيقظون، أصواتٌ تتسرب، تتلون، تتوالى كالأوزان

قلتُ لكم، الموسيقى الناعمة تُخرج منهم ضعفهم، قبحهم، جُبنهم في سكونٍ وبيان

لكن دعونا منهم لحظة، قبل أن ينقضوا علينا كالغربان

اقتربوا أكثر، أنتم ترون الغرفة، أليس كذلك؟ لا تشبه أي مكان

جعلتُها وردية، نعم، غريبة، لكنها ليست بهتان

جمعتُ دماء الأطفال، دخلوا سُوبْكُتِيس بالخطأ... لا ذنبَ لهم، لا غاية، لا نية مبيتة

لكن دماءهم كانت الوحيدة حمراء، طاهرة، نقية، حية

لم أسمح لهم بالخروج من الباب، لأن إن خرجت روحٌ، أموت

ويُخلع تاجي ويهوي عرشي ويُنسف مُلكي من البقية

- غبية، حمقاء! ما زالت تحبه... هاهاها

مزجتُ دماء الأطفال بعظام الأرواح التي عذبتها، وسحقتها حتى ذاب الصراخ في رماد الانكسار

وصنعتُ منها طلاءً ورديًا، ظننته جميلًا، مهيبًا، يليق بجدران القرار

غرستُ في كل حائطٍ فمًا، عينًا، أذنًا، أنفًا... من أشلاءٍ مزقتها غازولا بوحشيةٍ وافتخار

كنتُ أظنها تذكاراتٍ لصمتي الجبار... فإذا بها تهمس، ثم تصرخ، ثم تلعنني دون استغفار

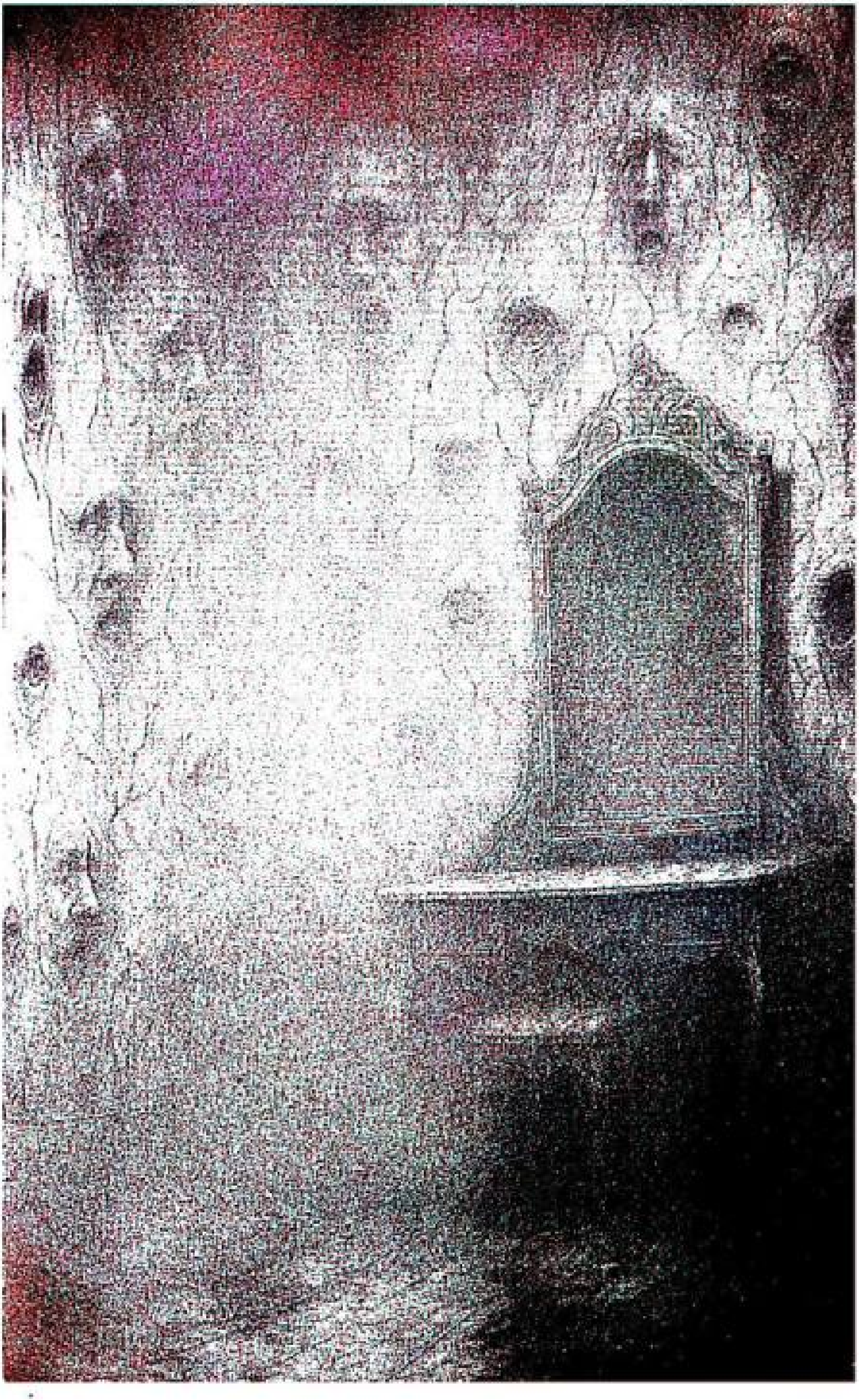

ترونها؟ تستفيق، تتحرك، تتنفس أنينًا خافتًا تحت الكلام

أصبروا، سيستيقظون... ستسمعونهم كما أسمعهم، كما يدق في داخلي هذا الملام... أصوات نساءٍ ورجال، شيوخٍ وأطفال، أنينٌ يختلط بالظلام وصراخٌ يشق عظامي قبل أن يشق السلام

في هذا المكان، غرفتي، جحيمي، مملكتي، الركن الوحيد الذي فيه أكون بلا لثام

ترون عروقي تختفي؟ ترون كيف يعود إلي الجسد، الإنسانية، الندم؟ لكن لو رآني العالم هكذا، لقتلني دون أي احترام

- ما زالت هذه الحقيرة تتكلم؟
- الغبية التي تدعي القوة؟
- دعوها، بحق الجحيم، دعوها في سلام
- لماذا تُخرسه دائمًا؟ ألا ترى ما تصنعه؟

أنا من أعطاكم أصواتكم، أنا من صممت هذا الجدار، هذا القبر، هذا المذبح القاتم! لو قطعت الموسيقى الآن، لما بقيت لكم حتى صرخة في الظلام العاتم

- آه، اسكتي، أنتِ لا تستطيعين قطع شيء، لا تستطيعين حتى قطع حبكِ لذاك الفاجر الظالم
- دافئة
- باردة
- اقتلوها، سامحوها، امسحوها من كل المعالم
- عانقوها، قبلوها، ربما تتغير وتُشفى من التراكم

أنتم تسمعونهم، أليس كذلك؟ لستُ وحدي في هذا الجنون، هذا التهالك؟

☐ نعم

☐ لا

- ما زالت تنتظرُ الجواب؟

- غبيةٌ... لم تتعلم العقاب

- أو لعلها تستحق الشفقة، أو ما هو أشنع...

- تستحق الجلد، لا الرقة

- السم لا العناق، السكين لا الحنان، السخرية لا الإحسان

اصمتوا، اصمتوا بحق الهلاك، بحق الهذيان!

- كانت تملك النهاية بين اليدين

- لكنه كان يحبها، فقط... بكاءٌ بلا عينين

- يا لغبائك، يا لعَارِكِ، يا لسذاجة قلبٍ ذابَ في طينِه اثنين

لو قتلته، لانكسر ميزان هذا العالم واحترق القلبان

- بل تفكرين، تتوهمين، تتشبثين

- نظرة منه، وتتحولين إلى كلبةٍ تُطارد ظل يديه

- لم تعودي ملكة، بل عبدة تنزف تحت قدميه

هل يقولون الحقيقة؟ أنتم أيضًا تقولون هذا عني؟

أجيبوني أرجوكم...

☐ نعم

☐ لا

- اهربي... اهربي من عارِكِ، من بكائكِ، من قيدِكِ

- أو احتضني هشاشتكِ، قبلي ضعفكِ، افتحي جرحكِ

- منذ متى صار الضعفُ قوة؟

- خذي هذه الكعكة يا مَلَيْكَانَا، تستحقينها... تستحقين النعومة

- يريدكِ ملكةً فقط ليُسقطكِ، ليسرق تاجكِ، ليصنع من عرشكِ نعشكِ

أنا لا أريد إلا هذه الكعكة... فقط هذه...

- هي تستحق الحُب والعناق

- لا! تستحق الذل والاحتراق

أعينوني، بالله عليكم! رأسي سينفجر، أفكاري تنهشني، أريد أن أكون في سلامٍ في هذا الوردي، أريد أن أتخلص من هذه الأصوات اللعينة!!!

- سيخونكِ مرةً أخرى

- سيتخلى عنكِ كما فعل أبوكِ

أنا لستُ تلك الطفلة، أنا أقوى من ذلك

- كذب! احرقوها! احرقوا قراءها معها!

لا، ليس قرائي! أقسم لا... إنهم أثمن ما أملك!

- ما داموا يرونكِ قوية، نعم... لكن إن بكيتِ، سيرحلون

- لا، إنهم يحبونها

- ما دمتِ تعطينهم ما يُرضيهم

سيفهمونني... يشعرون بي...

- اهربي... اهربي من عارِكِ، من بكائكِ، من قيدِكِ
- أو احتضني هشاشتكِ، قبلي ضعفكِ، افتحي جرحكِ
- منذ متى صار الضعفُ قوة؟
- خذي هذه الكعكة يا مَلَيْكَانَا، تستحقينها... تستحقين النعومة
- يريدكِ ملكةً فقط ليُسقطكِ، ليسرق تاجكِ، ليصنع من عرشكِ نعشكِ

أنا لا أريد إلا هذه الكعكة... فقط هذه...

- هي تستحق الحُب والعناق
- لا! تستحق الذل والاحتراق

أعينوني، بالله عليكم! رأسي سينفجر، أفكاري تنهشني، أريد أن أكون في سلامٍ في هذا الوردي، أريد أن أتخلص من هذه الأصوات اللعينة!!!

- سيخونكِ مرةً أخرى
- سيتخلى عنكِ كما فعل أبوكِ

أنا لستُ تلك الطفلة، أنا أقوى من ذلك

- كذب! احرقوها! احرقوا قراءها معها!

لا، ليس قرائي! أقسم لا... إنهم أثمن ما أملك!

- ما داموا يرونكِ قوية، نعم... لكن إن بكيتِ، سيرحلون
- لا، إنهم يحبونها
- ما دمتِ تعطينهم ما يُرضيهم

سيفهمونني... يشعرون بي...

- فقط... ما داموا لا يشعرون بأنكِ أقوى منهم

أنا... لن أسمح لكم بالحديث عنهم. هم وحدهم بقوا حينما سقطتُ، حينما احترقتُ، حينما مزقتُ قلبي بأظافري

- حتى في ضعفكِ؟

نعم، حتى في ذلك! هم هنا... يقرؤونني، يسمعونني، يشعرون بي

- غبية إن ظننتِ ذلك

- خذي الكعكة يا مَلَيْكَانَا... هي بطَعمكِ المفضل

- مغفلة! لا أحد يقبل أنثى مكسورة

- سيرمونكِ كذبابة، سينعتونكِ بالمجنونة

- أين جنودكِ؟ لمَ لا تدخلينهم إلى هذه الغرفة؟ لمَ لا تريهم هذا الوردي المتسخ؟

لأني...

- لأنكِ تعرفين أنهم لن يستمعوا لك، تعلمين أن النساء في هذا العالم لا يحق لهن الكلام

- تحبين الفراولة، أليس كذلك؟

- لأن الأنثى حين تصرخ تُرمى بتهمة الدراما، وتُوصَم بالعاطفية

- نعم، حتى قراؤكِ، سيحاكمونكِ، فقط لأنكِ أحببتِ، لأنكِ سُحقتِ

- تستحق أن تُسحقي لأنكِ بقيتِ في هذا المستنقع العاطفي

لكن الأمر ليس بهذه البساطة... إنه معقد!

- كما قلتُ تمامًا! تتكلمين؟ إذًا أنتِ دراميةٌ

- تصرخين؟ إذًا أنتِ هستيرية

- تبحثين عن تفسير؟ إذًا أنتِ ضائعة في متاهة

ربما أنتم على حق

دافئ... بارد... المد... الجزر...

هو بلا قلب، أو قلبه معطوب

ثم يتهمني بأن قلبي خاطئ

لكنه ينبض وأنا رأيتُه! لمستُه... لم يكن وهمًا

- مجنونة! مهووسة! متعلقة بقناعٍ صدقتِه

- أتلعبين معي رجاء؟ أنا وحدي

- يحب نفسه فيكِ، أنتِ مرآته

لكن لما عكستْ المرآة شيطانه...

- هرب... ليس منكِ، بل من نفسه... وأنتِ تطاردين شيئًا هاربًا من ذاته

- تستحقين الأفضل

- تستحقين الأذى والأجل

- تستحقين الحب

- تستحقين قبرًا يزهر بالوجل

توقفوا، توقفوا، لا أستطيع!

ساعدوني، أوقفوا هذه الموسيقى، أرجوكم... أوقفوا هذه الأصوات!

☐ أوقفوا الموسيقى

أشششش... الهدوء، أخيرًا القليل من الهدوء!

أسمعتم جحيم صوتهم؟

أنا هنا منذ ألفي عام

أحاول أن أرتاح في هذا الركن الوردي الذي صنعته بيدي

لكنهم يعودون كل مرة

إن لم أشغل الموسيقى، يهمسون

وأنتم لا تسمعون

يرافقونني ليلًا ونهارًا

لا يمنحونني هدنة، لا صمتًا، لا منامًا

أرتدي قناع القوة، قناع الملكة

لكني من الداخل... محطمة، منهارة

صنعتُ من سلامي جحيمًا

ومن وردي سوادًا

أدخلتهم غرفتي، أدخلتهم جدراني

والآن لا أستطيع إسكاتهم

يظنون أني لا أعلم أنني أدمر نفسي

لكنك... أنت

ألا ترى أني أعلم؟

فماذا أفعل؟

ماذا أفعل حين علمونا أن الوفاء أن تظل، حتى حين يؤلم

أن الحب لا يُمنح، بل يُستحق

أن من يعطي أكثر، ينال العذوبة

لكني رأيتُ قلبه... ألم تَرَه؟

ألم تحس به كما أحسستُه؟

ألم تلمح ذلك النور المخنوق في عينيه؟

حين حملني حين سقطتُ؟ حين...

لا، لا... يجب أن أقتله

يريد أن يدمرني

يريد أن يسلبني عرشي

لا يريد قتلي، بل استعبادي

لكني ملكة... أنا

لا أفهم... لمَ يحدث هذا لي؟

أنا... أنا...

لكن نظرته

نعم، نظرته حين التقينا لأول مرة

تُعيدني كل مرة لنقطة البداية

اقترب... تعال

أريدك أن ترى شيئًا

هذه الرسالة... كتبتُها منذ ألفي عام

افتحها، اقرأها... قد تفهمني، قد تراه بعيني.

منذ ألفي عام...

لا أعرف ما الذي حدث بالضبط، لا أذكر إلا الصوت حين كسروا الباب، اليد التي أمسكت شعري، الصرخة التي خنقتني حين سُحبت من بيتي كما تُسحب الجثث من النار...

قاومت، أقسم أنني قاومت، كنت أصرخ:

- لم أفعل شيئًا! لا أستحق هذا! لستُ مذنبة!

كل ما استطعت حمله كان هذا الدفتر، دسسته داخل ملابسي ويدي ترتجف والعروق السوداء بدأت تتحرك تحت جلدي كالأفاعي... سحبوني أمام الجيران أمام أمي أمام العالم، دفعوا كل من حاول الاقتراب، كانوا كوابيس أحدهم بلا وجه والآخر بطنه مثقوب تُرى أمشاؤه بوضوح وكنت أجر،

وصلنا إلى الباب، ذاك الذي يُقال إن من دخله لا يخرج، لم يسألوني لم ينظروا في عيني فقط رماني أحدهم داخله...

وكان كل شيء يدور،

رأيتُ عظامًا تدور، أرواحًا تصرخ، واحدة بلا قلب أخرى بلا يد وثالثة بلا ساق، كلهم مبتورون كلهم محترقون كلهم في دوامة وكنت بينهم أصرخ.

ثم... كأن البوابة لفظتنا.

نعم، كأننا لم نُستقبل، بل تُقيأنا... في عالم لا سماء فيه لا شمس لا ضوء لا حياة... عالم من الطين الأسود والهواء الساكن والوحوش المفزعة.

كان الرعب يزحف على جلدي وفجأة أمسكني أحدهم من شعري من جديد، جرني في الطين وأنا أرتجف ثم رموني داخل قفص من حديد عالق في الهواء يرتفع نحو السماء بسلسلة لا نهاية لها...

نظرتُ إلى الأسفل، الأرض مليئة بالعظام، الغبار في كل مكان وصرخة اخترقت أفكاري، رفعتُ رأسي، فرأيتُ كائناً لا يُشبه شيئاً رأيته من قبل: نصفه ذئب، نصفه غراب، بلا قدمين، يزحف، يصرخ، يطير، يهاجم الطيور السوداء... وكنت أعد الثواني حتى يأتي دوري.

أنظر حولي، أقفاص أخرى أرواح أخرى كلنا نرتجف.

لكن في الزاوية، رأيتُه... كان ينظر إلي.

هو، في قفص مقابل، لا يبعد كثيراً، كان يجلس صامتاً يُراقب وملامحه لا تشبه أي وجه آخر، لم أره من قبل لكني شعرت به، كان جالسًا بهدوء، شعره الأسود ينزل على وجهه، عروقه أكثر سواداً من عروقي، يديه مغطاة بوشوم تخفي ما أمكن من ذلك الزحف القاتم

ART_OF_BOOK

تحت جلده... لكن عينيه؟ زرقاوان لا تنتميان لهذا العالم، بل تنبضان بالحياة.

قال بصوت هادئ:

- تعلمين، هذه البداية فقط.

سألته بسخرية:

- ماذا؟ هل أنت ملك هذا الجحيم؟

ابتسم، وقال:

- نعم... فهل تصيرين ملكتي؟

منذ تلك اللحظة، لم نفترق.

بقينا خمس سنوات في الأعلى، لا نلمس بعضنا لا نعرف شيئاً عن الخارج، فقط ننظر إلى الأسفل، حيث الأرواح تُعذب.

كان العالم في فوضى...

لا نظام، لا حُكام، لا ترتيب... أرواح تعذب أرواحًا، البعض يعذب الجسد، والآخر يعذب النفس والنتيجة واحدة: الهلاك.

منهم من ينجح في أحد الاختبارين فيُعاد استخدامه كمعذب، لا أكثر...

لكن لا أحد يخرج، لا أحد يعود، لا أحد يرى النور،

لكنه كان نوري في هذا العتم.

كنا نتحدث لساعات، كنا نضحك أحيانًا وحين يضحك... كنت أشعر أنني ما زلت حية.

كان يُشبه الهدوء في وسط الجنون، كانت عيناه تتكلمان أكثر من شفتيه، كان لا يلمسني لكني شعرت أنه يحملني كلما سقطتُ.

قال لي مرة:

- لو خرجنا من هنا، هل تبقين معي؟

فأجبته دون تردد:

- وهل لديك شك؟

حدثني عن قلبه الذي كُسر، عن خيانة امرأةٍ بنى لها عالمًا فهدمته، عن غضبه، عن تحوله، عن الوحش الذي أصبح عليه، لكنه حين ينظر إلي، يعود إنسانًا...

ووعدنا بعضنا أن نخرج، أن نمر بالاختبار، أن ننجو...

هل سيُفتح الباب؟ لا أعلم،

لكنه قال لي:

- تمسكي بي ولا تتركي يدي وسأُخرجك.

وما زلتُ أُمسك بها... حتى الآن.

لكن... مهلًا... من هذا؟

من هذا الذي يسير بثقة كأنه لم يعرف الخوف يومًا؟

خطواته ليست كخطوات زَايْڤَان، لا تصدر الرهبة نفسها لكنها تحمل شيئًا آخر، شيئًا أخطرا رأيت ظله يقترب مني، خطواته تلتف حولي تدور، ترتفع، ذراعاه أمامي مليئتان بعروق سوداء تتحرك تحت جلده لكنها بلا وشوم... هذا ليس هو، ليس زَايْڤَان!

لماذا أشعر؟ لماذا يتحرك شيء في داخلي؟ هذا ليس شوقًا هذا ليس خوفًا هذا... مزيج قاتل، قلب ينبض، صدر يضيق، عيون لا تجرؤ أن تغلق، ثم...

ارتجف كل شيء، الهواء تغير الصوت تغير المكان نفسه بدأ ينبض كل شيء يذوب...

ثم... الصراخ!

صراخ حقيقي، صراخ يشق رأسي نصفين، أصوات أرواح تُحرق تُمزق. فتحتُ عيني، كنتُ ما زلت على الطاولة، رأسي على الدفتر، غفوت... حلمت... لكن الصراخ لا يتوقف والنار التي شممتها في حلمي ما زالت في الهواء، هذا ليس وهمًا، هذا... واقع!

نهضت، شعرت بجسدي يرتجف، حاولت الخروج، تقدمت نحو الباب بخطى ثقيلة لكن شيئًا داخلي شدني للخلف. تذكرت فجأة أنني ما زلت بلا عروق، ما زلت إنسانة في عالم لا مكان فيه للإنس وأن اجتياز العتبة دون العروق السوداء انتحار.

توقفت، أغمضت عيني بقوة، غرقت في كل ما يكسرني، استحضرت الخيانة حين تركوني، الهجر حين احتجت، الدموع التي سالت دون أن يراها أحد، الألم الذي صرختُه داخلي، الضعف، الخذلان، كل ما يسحب

العروق من سباتها ويعيدها إلى النبض، وبدأتُ أشعر بها تعود، تتمدد كالأفاعي تحت جلدي، تلتف حول عظمي، تنبض، تتنفس، تعلن أنني لم أمت بعد، أنني قادرة أن أقاتل أن أواجه أن أخرج... ففتحتُ عيني، خرجتُ، وصلتُ إلى الشرفة، وهناك...

رأيت تسعة من الهَايْمِيسِين راكعين مجردين من كل شيء، تغلي النار في أقدامهم، ألسنة اللهب تأكلهم ببطء لكنهم يصرخون صرخات كالذبح، كالجلد، كالكُفر، رأيتُ الجلود تتمزق، العيون تذوب، الألسن تتدلى من الأفواه، سمعتُ طقطقة الأسنان وهي تحترق، رأيتُ العظام تتعرى، الدم الأسود يسيل على الأرض.

ثم... مر خلفهم، هو، زَايْڤَان، يمشي وكأنه لا يرى النار، يمسك بالرأس، يذبح، يرفع الرأس المقطوع إلي، ينظر إلي، يرمي الرأس، ثم يكرر...

واحد،

اثنان،

ثلاثة... كلهم...

كلهم كانوا من جنودي الذين نفذوا أمري يوم أمس حين أرسلتُ غازُولا للهجوم على أخاه.

هو قتلهم، ذبحهم أمامي، وأنا؟ كنت أراه أراقب وأشعر بشيء لا يوصف، لم يكن غضبًا فقط، بل إعلان حرب، والأغرب أنه كان جميلًا على نحوٍ يُخيف. انحنى أخيرًا بسخرية نحوي... ثم اختفى، دخل الظلام دون أن يقول شيئًا أو يلتفت مرة أخرى.

لكنني عرفت: هذا الرجل... سيكون نهايتي لو لم أفعل شيئًا.

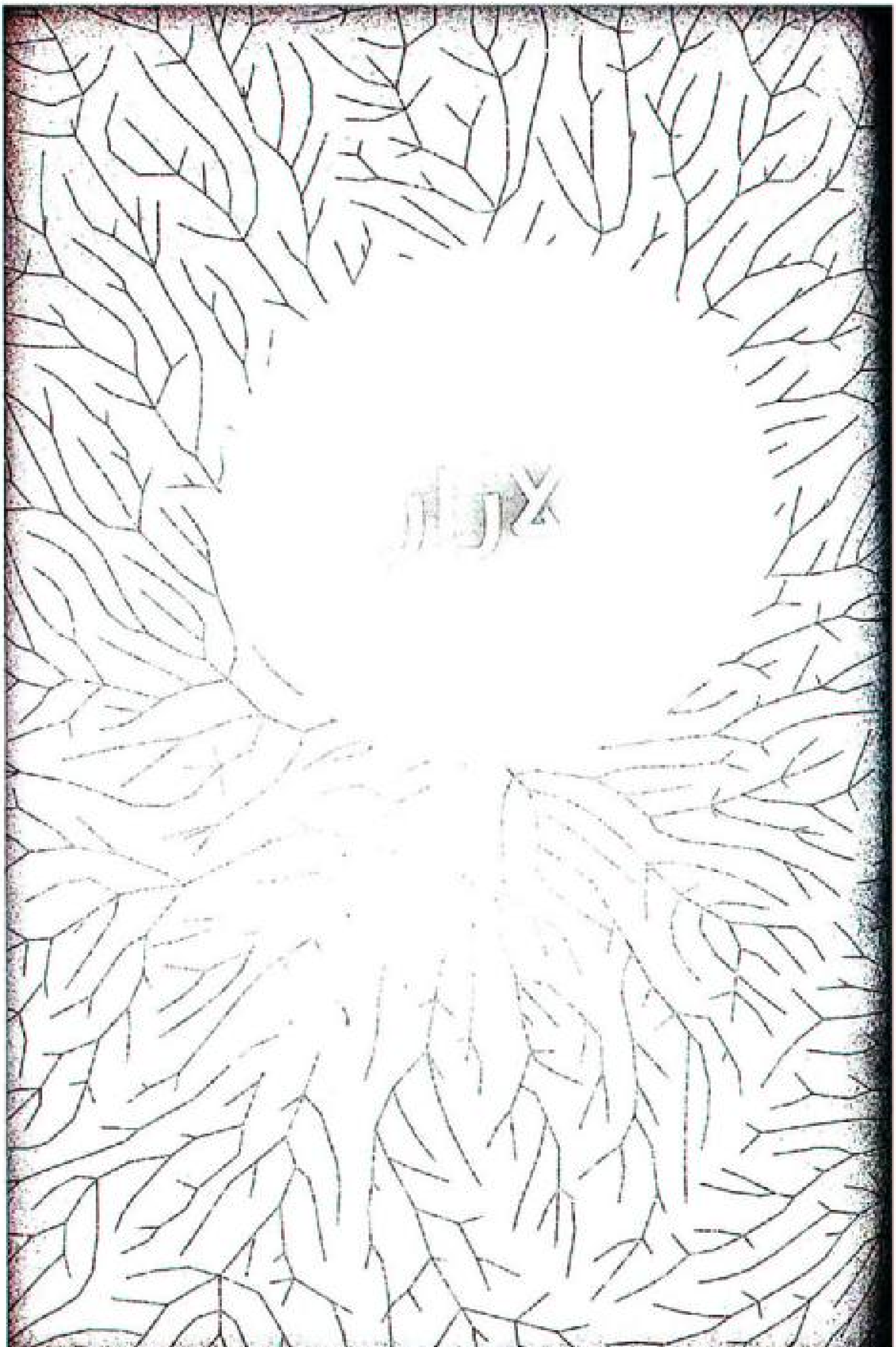

ART_OF_BOOK

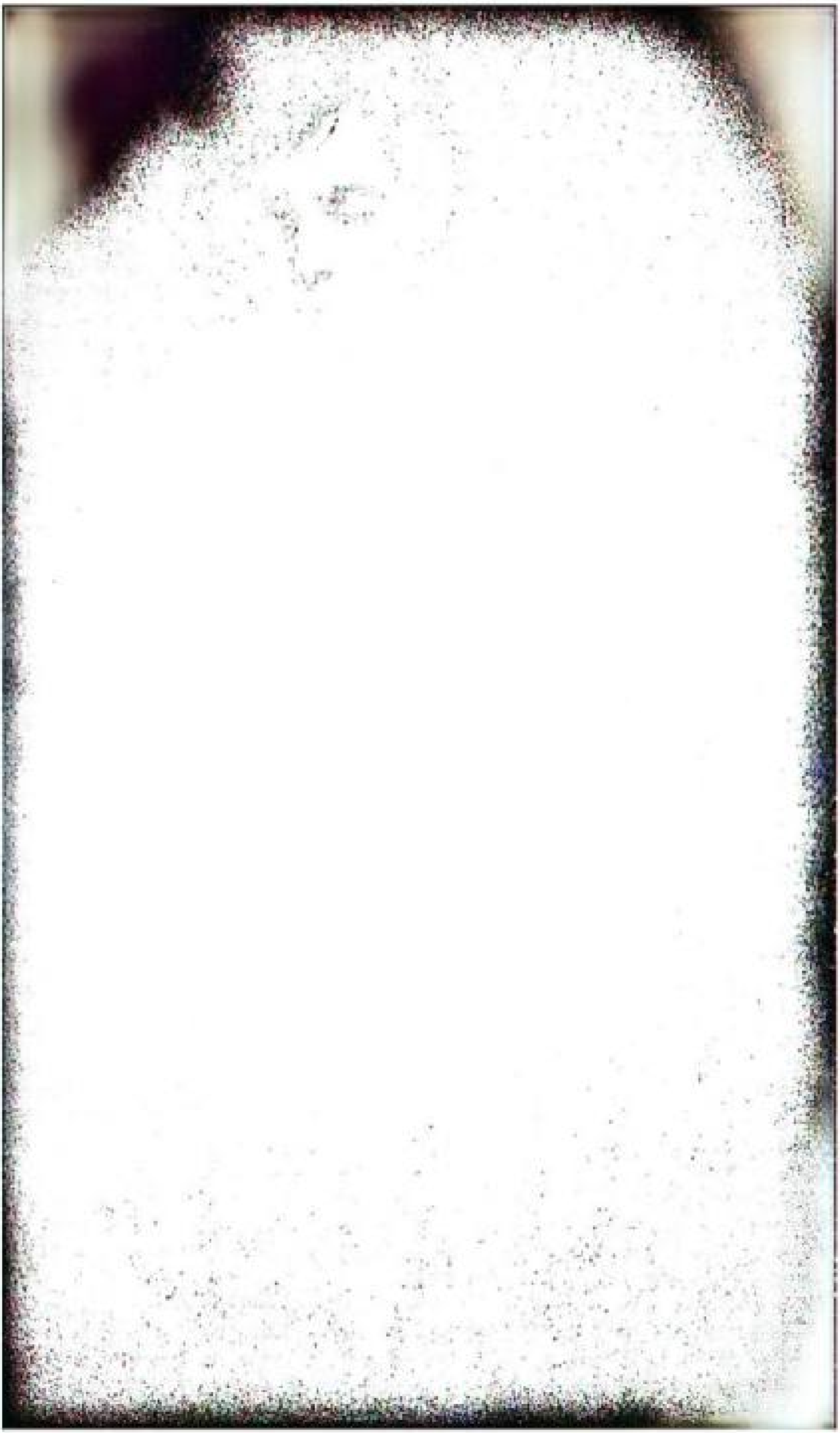

لم أعد أعرف كيف أتنفس، كانت يداي ترتجفان وأنا أذرع الغرفة جيئة وذهابًا أضغط أصابعي على بعضها وأعض شفتي السفلى حتى كدت أقطعها بأسناني، كانت الأفكار تتراكض في رأسي كذئاب جائعة، هل ستقتلني؟ هل سأجر أمام الجميع؟ هل... هل سامحتني؟ لا، لا يمكن، أنا تأخرت، أنا لم أصل في الوقت، كنت أعرف مكانها...

ثم... سمعت الطرق.

ثلاث نقرات بطيئة، قوية، مستفزة.

تجمدت.

اللعنة، هذا هو حكم الإعدام، ستعدمني!

اقتربت من الباب بخطوات حذرة وكأني أزحف نحو موتي، وضعت يدي على المقبض وفتحت ببطء... لم تكن هي.

كان هو، رَايْفَان!

واقفًا أمامي، شامخًا، عيناه نصف مغمضتين، شعره مبلل، ويده اليمنى تستند على الباب في هيئة لا تطلب الدخول، بل تعلن الامتلاك. رفعت نظري إليه، لم يقل شيئًا، فقط مر بي ودخل كمن يعود إلى بيته لا كمن ينتظر إذنًا من غريبة... خلف وراءه رائحة نار ودم وغضب، رائحة رجل خرج لتوه من معركة قتل فيها الجميع ولم ينجُ سواه.

خلع حذاءه ثم مشى بخطى ثابتة وسط منزلي المتواضع في حي الهامِسِينَ، لا يتكون إلا من طاولة حجرية وسرير وأريكة من عظام وأغطية سوداء. توجه مباشرة نحو الركن حيث خصصتُ حوضًا للماء النظيف، خلع ثيابه قطعةً قطعة ثم أمسك بالقارورة وفتحها وسكب محتواها على رأسه، كان يغتسل كمن يطهر نفسه من لعنة. وضع يديه على الجدار، جبهته عليه، رأسه منخفض، وصدره يعلو ويهبط بنَفَس

غير منتظم. لم أتحرك لم أنطق، كنت أنظر إليه فقط، لم أفهم لماذا أتى إلي، لماذا اختار أن يكون هنا، لماذا الآن وهو الذي يملك منزلا عظيمًا.

لكنه كان هنا، وكنت أراه.

كل عضلة فيه كانت تنبض بالقوة، جلده الموشوم يلمع تحت الضوء الباهت، عروقه تنبض وتتحرك كأنها كائن حي، ثم فتح عينيه فجأة، نظر إلي، لم يقل شيئًا، ثم أغلق القارورة بحذر، رفعت يدي بسرعة وناولته قطعة قماش، أخذها دون أن ينطق، مسح بها صدره، وكنت أراه... هناك جرح غائر يقطع صدره.

قلت بصوت لم يُخفِ قلقي:

- دعني أضع ضمادة

لم يجب، فقط نظر إلي بهدوء، وجهه بلا تعبير، قاسٍ، مرهق، لكنه وسيم، كان يحدق كمن يقرأ أفكاري، كمن يعرف أنني استحضرته، كم حلمت بهذا اليوم، ثم مشى نحو الأريكة لا يرتدي سوى سرواله، جلس دون قميص، فتح ساقيه وأسند يديه على حافتي المقعد كملك يستعد أن يصدر حكما.

أحضرتُ أدواتي، جلست بين ساقيه، وبدأت أنظف الجرح، نظرت إلى عضلاته، إلى تلك الخطوط التي رسمها الزمن والدم، لم أستطع أن أمنع نفسي، مررت أصابعي برفق على بطنه، على تلك العضلات التي حلمت بها وحين رفعت رأسي لأرى وجهه، وجدته يحدق إليَّ.

أمسك يدي.

حركها جانبًا.

قال بصوت منخفض، مميت:

- ماذا تفعلين، لازار؟

همستُ:

- كان من المفترض أن أكون أنا من يسأل: ما الذي تفعله هنا؟

قاطعني، أمسك بفكي، رفع رأسي نحوه، وقال:

- لا، أنتِ لا تسألين، أنتِ تجيبين. أعيد: ماذا كنتِ تفعلين؟

- أعالج جرحك...

- ممتاز. إذًا عالجيه ولا تلمسي شيئًا آخر. واضح؟

أومأتُ.

أفلتني.

أغمض عينيه من جديد وأرخى رأسه للوراء.

لكنه لم يكن نائمًا.

وفجأة، قال دون أن ينظر إلي:

- تعلمين أن ما تفعلينه الآن خيانة.

توقفت يدي، نظرت إليه، جف حلقي.

- لا، لا أقصد... أنتَ أتيتَ إلي... أنا لم...

اعتدل في جلسته وأسند مرفقيه على ركبتيه حتى صار أمامي، وجهي تحت وجهه وعيناي ترتجفان تحت سطوة نظرته، قال:

- تنظفين آثار الطعنة التي غرزتها مِلكتكِ في صدري، وتعتقدين أن هذا ليس خيانة؟

نظرتُ إليه، قلتُ بصوت خافت:

- لا أعلم... لم تكن نيتي.

قال بصوت كالسيف:

- إذًا لماذا جئتِ إلي وأنا أقاتل غازولا؟ لماذا أخبرتِني بمكان مليكانا؟ لماذا تركتِني معها لمدة طويلة؟ لماذا لم تُحضري الجيش لتحميها مني؟ كنتِ تعلمين أننا كنا معًا، وحدنا، وكنتِ تعلمين أنني كنت أنوي قتلها.

قلت وأنا أرتجف:

- رايفان، صدقني، لقد كان مجرد سوء فهم...

- سوء فهم؟ فعلًا؟ أنتِ حاميتُها أم خائنتُها؟ ماذا تريدين يا لَازار؟ تكلمي.

همست:

- لا شيء، أقسم أني لا أريد شيئًا...

- لَازار، لا تجبريني على أن أطرح السؤال مرتين...

ارتعشتُ، شعرت أن الهواء اختنق داخل حلقي، أردت أن أتكلم أن أشرح أن أبرر، لكن لساني تجمد، ثم قلت أخيرًا:

- أظن أنها بدأت تضعف، نعم، لا أحد يُنكر أنها قوية، قاسية، جبارة، لكنها أيضًا... تضعف.

صرخ:

- تضعف؟ تظنين أنها تضعف؟ هذه التي قتلت أخي أمامي، مزقته دون رحمة، هذه التي وضعت الخنجر على صدري وكادت تقتلني؟ تظنين أنها تضعف؟!

صرخت بدوري:

- لم أكن أريدها أن تقتل أخاك! أقسم بالله لم أكن أريدها أن تؤذي أحدًا، لا أخاك، ولا أنت! عندما خرجنا من مكان الوليمة، أخبرتها

أن تتركك، أن تبتعد عن لعبتك، كنتُ فقط أريد حمايتك منها، خفت أن تقتلك، أردت فقط...

قبض على شعري من الخلف وجذب رأسي بقسوة، قال وهو يصرخ:

- آه، إذًا أنتِ من أقنعتها ألا تقتلني... لكن أن تقتل أخي بدلًا من ذلك؟ هذا ما تعتبرينه حماية؟ أن أرى أخي يتمزق أمامي وتظنين أنكِ أنقذتِني؟!

قلت وأنا أرتجف:

- لا، لا، أقسم أن هذا ليس ما حدث، لم تكن تنوي قتلك، أنا متأكدة، رغم كل شيء، هي تحبك، حتى وإن أنكرت، حتى وإن أنكرت على نفسها، هي... تحبك.

دفعني عنه بعنف ثم قال ببرود مرعب:

- اخفضي صوتك فورًا.

سكت، لم أنبس بكلمة، شعرت أن الأرض تحت ركبتي تنكمش، وهو وقف، وبدأ يلبس قميصه بهدوء شيطاني، قال دون أن ينظر إلي:

- تظنين أنني لم ألاحظ؟ أنني لم أرَ عيونكِ كيف تراقبني منذ قرون؟ تظنين أنني غبي؟ أنني أجهل ما يعرفه الجميع؟ حتى الهامِسِين، حتى الهامس الذي كنتُ أذوب جسده، همس في أذني: إن أردت أن تسقطها، فاضرب في لَازَار.

ثم التفت إلي، ابتسم بسخرية:

- ماذا تريدين؟ ليلة معي؟ خذيها، بل خذي مئة، سأكون سعيدًا أن أدمر امرأة مثلك، لكن لا تخلطي بين الرغبة والتاج، لا تخلطي بين اللذة والعرش.

صمت قليلًا ثم قال:

- أخبريني، لَازَار... هل تريدين رجلًا يأمركِ أم رجلًا يُتوجكِ؟

توقف نفسي، شعرت أن كلماته نُقشت على جدار صدري، كنت أنتظرها منذ قرون، وقفتُ دون أن أشعر، وقلتُ وأنا أحبس شهقة:

- من تريد أن تكون عبدة إن استطاعت أن تصير ملكة؟ أن تجلس أمام ملكها، لا خلفه؟ هي لا تستحقك، نعم، هي تحبك، لكنها لا تستحقك، هي قاسية، كادت تقتلك، قتلت أخاك، كسرتك، مزقتك، وستكرر ذلك ألف مرة، أما أنا... فأنا هنا، سأفعل ما تأمرني به، سأكون ملكة تليق بك.

نظر إلي بصمت عميق كأنه يفكر، ثم قال:

- التاج لا يُمنح، بل يُنتزع، وأنا حتمًا سأصبح ملكًا، لكن السؤال: من ستكون الملكة بجانبي؟ لن تكون هي، هذا مؤكد، لكن قد أمنحك الفرصة لَازَار، فقط إن أثبتِ أنكِ تستحقين.

اقترب خطوة وقال:

- أريد ملكة لا تطيع فقط، بل تساعدني لأحكم، تفهمينني؟

فأجبت فورًا دون أن أفكر:

- نعم، نعم، سأفعل أي شيء، لن أخذلك، لن أخونك، أقسم أنني...

قاطعني:

- هل أنتِ مستعدة أن تخوني ملكتكِ لأجلي؟

همستُ، مترددة:

- لا... لا، ليس خيانة، لسنا... لن نقتلها، لن نفعل، فقط... فقط أريد أن أكون بجانبك، كملكتك...

ابتسم نصف ابتسامة:

- لا، لن نقتلها، لم يكن ذلك هدفي، سنعيدها إلى حجمها، فقط عبدة... لا أكثر. الأمر بسيط جدًا، فقط... أثبتي.

اقترب أكثر، وقال:

- هذا الجيش الذي تقودينه منذ قرون، سيكون لي لا لها، أنتِ تعرفينه أكثر مني، تعرفين تفاصيله، أوجاعه، نقاط ضعفه، علميه أن يتبعني لا يتبعها، يوم تفعلين ذلك، قد أفكر فعلًا في أن أمنحك العرش.

ثم مد يده، وضع إبهامه على فمي، فتحه ببطء، رفع ذقني، ثم خفضه، وهمس في أذني:

- لكن، لآزار... لا أظنني منحتكِ إذنًا بالنهوض.

ثم أمسك بعنقي ورماني على الأريكة...

وفي اللحظة التي ابتلعني فيها صمت الغرفة، وارتخت فيها أنفاسي بين يديه، كنتُ قد بدأتُ أخطط لعرشي.

***

لم أعد أعد الأيام، لم أعد أذكر آخر وجبة أكلتها ولا متى بدلت ملابسي ولا إن كنت قد نمت فعلًا أم أنني فقط انطفأت ثم استيقظت، لا أعرف إن كانت هذه الهالات السوداء التي غزت وجهي من الداخل أم من الخارج، لكنني أعلم يقينًا أنني لم أعد أنا، كنتُ شيئًا آخر، ظلا يشبهني ويتحرك من مكان إلى آخر دون أن يستريح، كنتُ أمشي بين الهامِسِين كأنني أبحث عن شيء لا أعرف اسمه، أكرر جملة واحدة في داخلي: يجب أن أسقطها... مهما كلف الأمر.

كنتُ أدخل على القادة لا على الجنود، أولئك الذين إن اهتز يقينهم اهتزت جحافل بأكملها، كنت أختارهم واحدًا تلو الآخر، كان الذي فقد

ابنه في إحدى معارك سُوبْكُتِيس، نَسُوف الذي طُرد من صفوف الرُ
لأنه لم يُنفذ أمرًا بتعذيب امرأة كانت تشبه أمه، ورِيبُوس الذي عاش
كعبد في دهاليز هذا العالم، أعرفهم، أعرف نقاط ضعفهم، أعرف متى
ينظرون إلى الأرض ومتى يتنهدون دون سبب وأدخل من تلك الثقوب.

في البداية، لم أكن أقول شيئًا مباشرًا، كنتُ أزرع الشك كأنه رائحة لا تُشم، بل تسكن الجلد دون إذن، أقول:

- هل لاحظت أن أوامر مليكانا باتت أقل وضوحًا؟
- ألم تلاحظ أنها لم تظهر منذ ثلاثة أيام؟
- هل رأيت كيف ترددت عندما نظرت في عيني رايفان؟
- إنها تضعف، صدقني، ومن الأفضل أن نكون نحن من يمسك بالدفة عندما تسقط.

كنتُ أقولها بنبرة محايدة، لكنني أراقب أعينهم، أراقب كيف تتجمد جملة في الهواء دون رد، كيف يتأخرون لحظة قبل أن يوافقوا على أمر، كيف ينظرون لبعضهم بصمت لا يقول شيئًا لكنه يقول كل شيء. لم أكن أزرع الخيانة، بل أُحيي ما مات فيهم من طموح منذ أن جلسَتْ هي على العرش.

وفي كل ليلة، كنتُ أعود إلى نفس الغرفة، إلى نفس الظلام، أجلس على الأرض وأكرر بيني وبين نفسي:

- لا أحد يفعل كل هذا من أجل لا شيء. أنا أفعل هذا لأصبح شيئًا، لأصير شيئًا، لأجلس هناك، على العرش بجانبه.

وفي نفس تلك الليالي، كان يأتي.

لم يكن يطرق الباب، لم يكن يتكلم، فقط يدخل، يغلق الباب، يقف للحظة، يراقبني، ثم يجلس مقابلي، نرسم خططًا على الورق، على

الجدران، على أجسادنا، نُحدث بعضنا عن نقاط ضعف الجيوش، عن الأماكن التي يمكن أن نزرع فيها رجالنا، عن القادة الذين يجب كسرهم، عن الطريق الذي لم تمشِ فيه مليكانا أبدًا.

كنا نهمس، نتجادل، نخطط، ثم في لحظة... يصمت كل شيء.

يلامسني كأنه يوقظ نارًا كانت تنتظر فقط تلك اللمسة، ينزع قميصه كأنه ينتزع هزيمتي، يمدني بالضوء تمامًا بالقدر الذي يكفيني كي أتذكر من يكون، من أنا، من نكون، يزرع في داخلي شيئًا لا يُشبه الحب ولا الشهوة، بل شيئًا أقرب إلى الجوع، إلى العطش، إلى العرش.

كان يعطيني جسده لكن لا يعطيني نفسه، كان يراني لكن لا يبوح، كنت أعرف أنه لا يزال هناك شيء منها في عينيه، شيء لم ينطفئ بعد... لكنني كنت أقول: ليس مهما، المهم أنني في نهاية هذا الطريق، سأكون أنا... الملكة.

كنا نلتقي في الليل لكنني في النهار كنتِ أراقب كل شيء. أراقب مليكانا وهي تمشي بين السكان، تتكلم، تحرك الهامِسين والدَامُون كأنها تعزف موسيقى لا يسمعها سواها، كانت تتحرك كمن يعرف أنه لا يُهزَم، وكان هذا يُثير جنوني. كيف لامرأةٍ أن تكون بهذا الاتساق؟ كيف لها أن تحكم هذا العالم دون أن ترتجف لحظة واحدة؟ لكنني رأيت، رأيت عينيها ذات مرة حين نظرت إلى رايفان، ورأيت الخوف... ولو للحظة.

في اليوم العشرون من خطتي وبينما كنتُ أمشي كعادتي بين الهامِسين أنثر كلماتي كالسم في الهواء، كنتُ على وشك التوجه إلى ذاك المكان المنعزل خلف النهر لكي نلتقي أنا ورايفان، حيث نرسم خططنا بهمسٍ لا تسمعه الآذان ولا تراه العيون، كنتُ قد أنهيتُ للتو همسة أخرى في أذن أحدهم وعدته بمنصب ولوحتُ له بالدماء إن هو

تراجع ثم واصلتُ طريقي لكنني لم أكن أعلم أنني سأصطدم بمن لا يُمكن التخفي أمامه.

وجدتُه واقفًا في منتصف الطريق: زُفْرَاهُن، صديق رايفان الأقرب ظله الذي لا يُفارق. لم يتكلم، لم يُظهر غضبًا ولا ترحيبًا، فقط نظر إلي تلك النظرة التي تتهم وقال:

- هل أنتِ مجنونة؟

لم أُجب.

قال:

- أنا الذي عذبت الهامِس الذي أخبر رايفان أنكِ نقطة ضعفه، أنتِ لا تعرفين ما الذي أنتِ بصدده.

ابتسمتُ وقلت:

- بل أعرف وأعرف أكثر مما تتخيل.

اقترب، نظر في عيني ثم قال:

- رايفان لا يزال يحبها. مهما خططتِ، مهما فعلتِ، قلبه لا يزال معها.

ارتجفت، لكنني لم أتحرك.

قال:

- وأنا لا تهمني مليكانا، لا يهمني العرش، لكنني لا أريد أن أراكِ تحترقين.

همست:

- أنا لا أحترق، أنا أشتعل.

قال:

- إن اشتعلتِ أكثر، ستحترقين، وستُحرقيننا معك.

قلت:

- اتركني، زفراهن، لا تفهم، لا تحاول، لا تُربكني، فقط دعني...

قال:

- أنتِ تعلمين أنني أحبك، أليس كذلك؟

سكت، لم أُجِب، فقط نظرت إلى الأرض وقلت:

- لا تزد الأمور تعقيدًا، أرجوك، إن كنت تحبني... دعني أكمل.

هز رأسه ببطء ثم قال:

- إذًا افعلي، لكن حين تسقطين، لن أكون هناك.

قلت:

- لا تسئ فهمي يا زِفراهن، أنا لن أسقط.

وتركتُه.

كنت أعرف أنه يراقبني، أعرف أنه لا يزال هناك شيء في قلبه لي لكن قلبي كان في مكانٍ آخر، مع رجلٍ لا ينظر إلي إلا حين يريدني عارية، صامتة، تابعة، ومع ذلك... كنتُ أبتسم لأنني كنت أؤمن: تلك اللحظة التي يُحدق إليها في كما يحدق إليها الآن... ستأتي، سأنتزعها من قلبه ولو كلفني روحي.

اخترنا أنا ورَيْفَانْ مكانًا لا يصله أحد، فوق تلةٍ صخرية تطل على مجرى ماء ضيق يمر كأنه شريان نازف وسط الهضاب. كانت الصخور هناك داكنة والرائحة تشبه صدأ قديمًا. من ذلك المكان، كنا نراهم جميعًا دون أن يرانا أحد.

جلسنا جنبًا إلى جنب، كُنا نراجع خطط التسلل، حديثًا عن الهامسين والدَامُون، عن نقاط الضعف، عن الأوامر التي بدأت تتأخر، عن همسات الليل التي لم تَعُد تُسكَت بسهولة.

قلت:

- ثلاثون جنديًا انضموا إلى صفي دون أن يُعلنوا ذلك، بعضهم من أقدم الجنود، هذا الأسبوع فقط، خمسة نفذوا أوامر مليكانا بتأخر، واثنان تجاهلوها.

قال:

- وأنا بدأتُ أخترق خطوط الدَامُون بقوة كبيرة، أدُورك بدأ يسمعني، ونِيبَارْ في صفي، أحتاج فقط أن يراني صوفيل كصديق لا كعدو، وبعدها... ستتحرك الكتلة.

نظرتُ إليه، كانت ملامحه ساكنة لكن عينيه فيها جمرٌ لا يخبو. كل ليلة يأتي إلي، نتحدث، نتآمر، ونختتم الليل على سريري بلا عهود، بلا كلام حب، فقط لمسٌ يزرع في داخلي يقينًا أنني أقترب وأنني يومًا ما سأكون ملكته.

لكنه اليوم... تغير.

كان يحدق في البعيد، يتظاهر أنه ينصت لكن عيناه تهيمان في مكان آخر...بل شخص آخر.

التفت حيث ينظر... فرأيتها.

كانت تسير ببطء، لا يرافقها أحد، عباءتها السوداء تلامس الأرض وخطواتها تُصيب الحجارة بالخوف. مرت أمام الوادي، تحتنا مباشرة، لم تنظر لأعلى لكن الأرض نفسها ارتجفت تحت قدميها.

نظرتُ إليه.

رأيتُه.

رأيتُ عينيه وهما تحترقان، رأيتُ قلبه يُبعث من رماده، رأيتُ الولاء يعود، الحب، الضعف والانكسار، رأيتُ كل ما أردتُ قتله فيه... يعود حيًا.

أكملتُ الحديث كأني لم ألاحظ، بصوت أجش كأن شيئا علق بحلقي ابتسامتي لم تكن لي وقلبي... كان يصرخ.

كنتُ أقول:

- نحتاج فقط أسبوعًا آخر، وسأجعلُ رِيبُوس يعلن ولاءه أمام الجميع، وهذا سيُحدث شقا في الجدار.

لكن داخلي كان يتمزق:

- في الجنوب، سَافِين مستعد للتمرد، فقط نحتاج دفعة...

لكنني كنت أسمع قلبي يقول:

- كل هذا... لأجله. كل هذا... كي ينظر إلي كما نظر إليها!

لم يقل شيئًا حتى حين ابتعدتُ لأنه لم يكن يستمع إلي، لم يقل شيئًا لأنه كان هائمًا في أفكاره.

لكنني كنتُ أعرف... رأيتُ في تلك النظرة نهاية كل ما كنتُ أبنيه.

وحين عدتُ، كنتُ أمشي على جثث أحلامي.

لم أرجع إلى الغرفة لم أذهب إلى المقر لم ألتقِ بأحد.

مشيت...

بلا وعي، بلا وجهة، بلا نفس.

كل ما في كان ينطفئ.

وصلتُ إلى مكان لا يدخله أحد، غرفة من حجر مبلل، سقفها منخفض...

وجلست...

أغمضت عيني.

تذكرتُ كل ليلة لم أنم فيها كل مرة أخفيتُ فيها دمعتي، كل كلمة همستها لجنود لا أعرفهم، كل لمسة منه جعلتني أؤمن أنني... سأصير شيئًا.

فتحت عيني بمرارة...لكنني لم أصِر.

لم أكن سوى ظل، ظل امرأة تنظر إليه وهو ينظر إلى غيرها.

بكيت،

صرخت،

عضضت يدي، ضربت الأرض، وعاهدت نفسي:

سآخذ التاج... مهما كلف الأمر.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

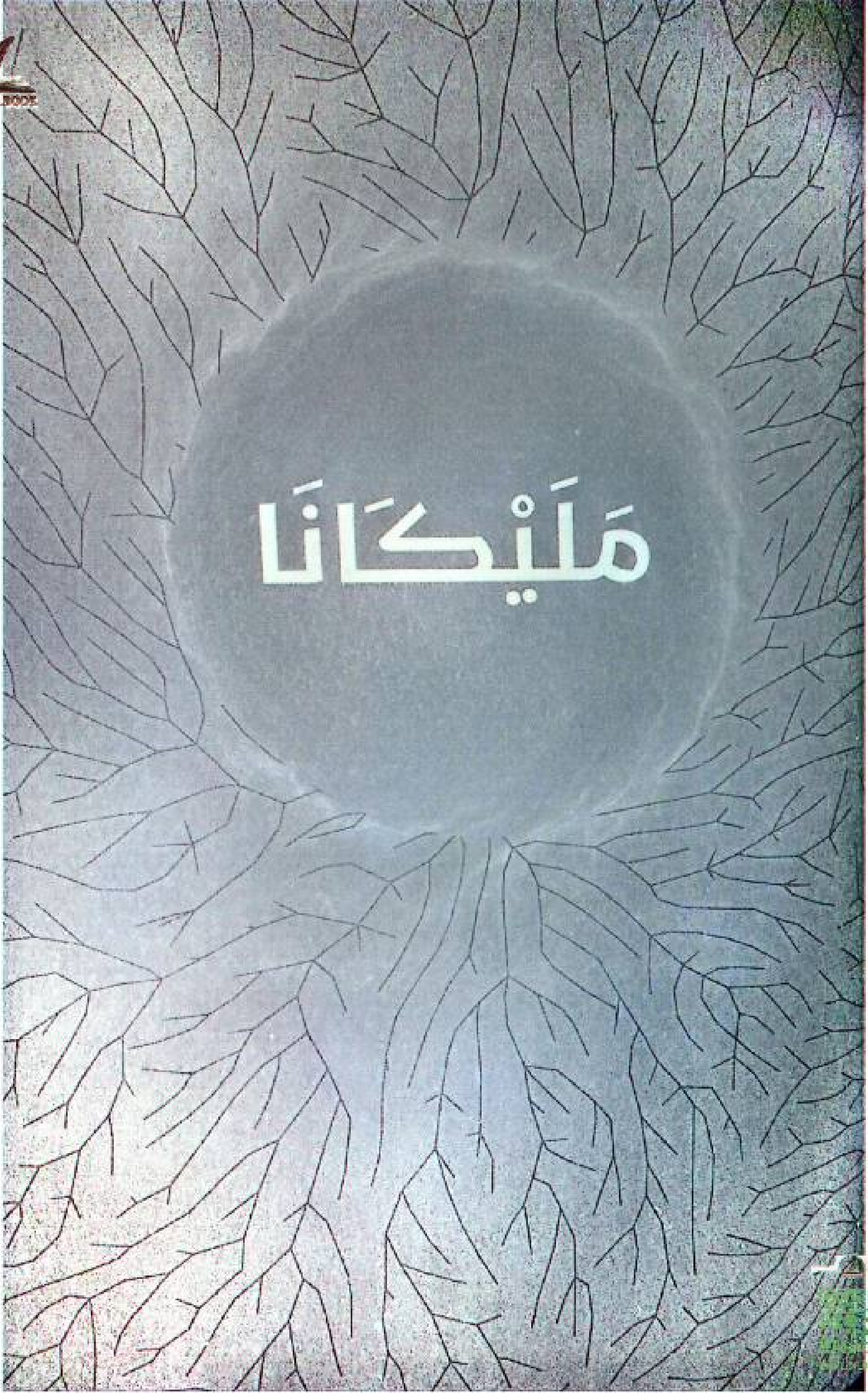
مَليْكَانَا

كنتُ أمشي بين أحياء مملكتي كما أفعل كل يوم، خطواتي صلبة والأرض تحتملها كما لو خُلقت لها، كنتُ أنظر إلى الوجوه، إلى العيون، إلى الفراغات بين الأنفاس وكان الرعب حاضرًا كما اعتدتُ، يتدلى من أفواههم قبل أن أصل، لكن في ذلك اليوم... رأيت شيئًا آخر، خائنًا كشبهة، والشك بدأ يتسلل، لم يكن واضحًا، لا، كان نظرة قصيرة ثم اختفاء، كان انحناءة لم تحدث، كان صوتًا يُهمَس ثم يُبتلَع، شعرتُ به... يقرصني من ظهري، من رقبتي، من داخلي.

لكن الأمر لم يصبح يقينًا إلا حين حدث ذلك، حين وقف أحد الهامسين أمامي مباشرة، لم يُخفض بصره لم ينحنِ لم يهرب، بل... بصق، بصق أمامي كأنه يبصق على عرشي على تاريخي على قروني التي قضيتها في ابتلاع هذا الجحيم وتحويله إلى حكم.

لم أتحرك فورًا.

نظرتُ إليه.

قلت:

- اقترب.

اقترب بخطوات باردة، أمسكته من رقبته بيد واحدة، رفعت جسده عن الأرض ثم غرزت أظافري في عنقه حتى خرج الدم من مسامه، ضربت وجهه بالحائط مرة، مرتين، ثلاثًا، حتى تشققت جمجمته وبدأ البياض يظهر من بين الكسر ثم قطعت شفته السفلى بأسناني، مضغتها وبصقتها على صدره، نظرت إلى الباقين إلى العيون التي تهتز، ثم قلت:

- مَن الذي أمرك؟ أجب! هل هو رايفان؟ هل هو من أرسلك؟ هل هو الذي يقودك؟

لم يجب.

كان يتأوه، يتلوى، لكنه لم ينطق.

صرخت:

- تكلم أيها اللعين!

لكنه ظل صامتًا، فرُحتُ أمزق جلده بأطراف أصابعي، لا أحتاج إلى أدوات لا أحتاج إلى جنود، أنا وحدي سيف وسُم وصاعقة، بدأتُ من صدره شققت الجلد أدخلت أصبعي داخل ضلعه سحبته ببطء حتى انكسر ثم وضعت رأسي على أذنه وقلت:

- أخبرني، من أرسلك يا حقير؟!

وحين لم يُجب، غرزت أظافري داخل عينيه الاثنتين، حركتهما في حركة دائرية ثم نزعت أحداهما، عرضتها للجميع وقلت:

- ثمن الخيانة!

ثم أمسكت عنقه بكلتا يدي وضغطتُ حتى بدأ الدم يخرج من فمه من أذنه من أنفه من روحه حتى انطفأ وسقط.

وقفتُ، يداي مغطاتان بالدم أظافري تتقطر وجهي يقطر عيناي تشتعلان، نظرت إلى الحاضرين، كلهم كانوا هناك، الهامِسُون، الدَامُون، الكُوْسِيُون، حتى الهواء تجمد.

رفعت يدي الملطخة بالدماء وأخذت أقلبها بين ناظري ومن دون النظر إلى وجوههم المرعوبة مما فعلته قلت بهدوء:

- من يتجرأ على الوقوف ضدي لن يُقتل فقط، بل سيُنسى سيُمحى سيُدفن بلا اسم بلا لسان بلا وجه ولن أرحم أحدًا، لا اليوم لا غدًا لا إلى أن ينكسر هذا العالم على رأسي!

أدرتُ ظهري ومشيت، لكن قدماي لم تتجها نحو القصر كما في العادة، بل حملتني نحو مكانٍ آخر، نحو المنزل الذي يسكنه رايفان

بين الدَامُون، كنتُ أعرف طريقه كما أعرف طريق دمي، لم أكن أفكر لم أكن أخطط، كنتُ فقط أشتعل، أغلي، أريد رؤيته محاسبته تمزيقه، أردتُ أن أسأله بعيني: هل كان هو من أرسل ذلك الكلب؟ هل بدأ يتحرك ضدي علنًا بعد أن فشل في كسري من الداخل؟ دفعت الباب بيدي دون أن أطرق، كان مغلقًا، فكسرت القفل، دخلت، لم يكن هناك، لا سيفه لا سترته لا ظلاله حتى، كان المكان فارغًا كأنه لم يكن موجودًا أصلًا.

مشيت بين الغرف، صرخت:

- أين هو؟ أين ذهب؟ مَن رآه؟ مَن تكلم معه؟

لكن لا أحد أجاب.

خرجتُ، عيني تتقد، قلبي يصرخ، رأيت أحد الدامين، أشرت إليه بيدي:

- أخبره... أخبر سيدك أنني أريده في قصري فورًا، إن لم يأتِ... فهو يعرف الثمن.

لم أنتظر الرد، لم أترك مجالًا للتفسير، استدرتُ وذهبت، والطريق يحترق تحت خطواتي، والسماء توشك على السقوط إن تأخرت لحظة، إن لم أنظر في عينيه وأعرف: هل خانني؟ هل... بدأ؟

وفي طريقي نحو القصر، رأيتُ روحا غريبة... روح رجل.

كان يجلس عند حافة المستنقع، لا وجه له لا عينان لا أنف فقط فم بسيجارة مشتعلة، يرتدي السواد من رأسه حتى قدميه لا قلب له، بل فجوة مفتوحة في صدره مكان القلب وكان شعره أسود يغطي نصف رأسه والنصف الآخر... كان مفتوحًا تمامًا، رأيتُ دماغه يتحرك بسرعة رهيبة كأنه لا يهدأ أبدًا.

كان ماسكًا جيتارة ويغني...

@ART_OF_BOOK

يغني لتلك الأرواح الغارقة في المستنقع. كانت الأرواح تحاول الصعود، تتنفس للحظة ثم تغرق من جديد وهو لا يساعدهن لا يلمسهن لا يتحرك، فقط يغني لهن وكأنه هو الذي خلق المستنقع وجلس يشاهدهن يغرقن فيه واحدة تلو الأخرى.

اقتربتُ منه...

نظرتُ إلى قدميه المغمورتين في الطين، إلى ملابسه الملطخة بذلك السواد ذاته، نفس الطين الذي تحاول الأرواح الإفلات منه وفهمت.

هو الذي خلق المستنقع، هو الذي أغرقهن، هو الذي يمنعهن من الخروج ثم يغني لهن كي لا يذهبن، كي لا يتركنه.

جلستُ بجانبه... شعرتُ أنني أعرف هذه الأغنية، شعرتُ أنني سمعتها من قبل، لا أدري أين لا أدري متى لكن شيئًا في داخلي بدأ يهدأ... قلبي بدأ يخفت كأن صوته يخاطب شيئًا قديمًا جدًا داخلي.

ثم التفت إلي وبدأ يغني لي نفس الأغنية...

مددتُ يدي نحو وجهه لكن لم أجد شيئًا، لا ملامح لا دفء لا شيء سوى السواد والدخان والسكون وصوت قلب لا يُسمع.

نظرتُ إلى صدره، إلى الفجوة المفتوحة مكان القلب ورأيتُ الدخان يخرج منها كما لو كان يحترق من الداخل...

ورأيت دمعة...

دمعة واحدة فقط تنزل من لا-عينه، كانت ساخنة بطيئة حزينة رأيتُ فيها وجعًا لم أره منذ قرون.

مسحتُ على وجهه وقلت:

- أنا لا أستطيع أن أبقى هنا... أنا ملكة، وقد تلطخت قدماي بالطين وهذا يكفي، لن أسمح أن أغرق في مستنقعك، لقد اتسختُ... لكني نجوت.

وقفتُ وتركتُه يغني بصوته الحزين.

دخلتُ قصري وأنا لا زلت أسمع الأغنية في رأسي، كانت خطواتي تترك أثرًا من الطين على الأرضية السوداء وذيل ردائي يجر خلفي ببطء ثقيل امتلأ بالحزن، بالغضب، بشيء لا اسم له، كنتُ أحاول أن أُقنع نفسي أنني تجاوزت رَيْفَانْ، أنني لم أعد أريده أن يأتي، أنني لا أراه، لكن الحقيقة أنني كنتُ أختنق من مجرد فكرة أن يتجاهل أمري! أن يتجاهل أمري أنا... ملكة هذا العالم!

صعدتُ درجات القاعة الكبرى الواحدة تلو الأخرى ببطء وحين وصلت إلى باب قاعة العرش دفعته بعنف فانفتح بصوت أجوف يشبه التهديد.

دخلت...

جلست على العرش الذي لم أجلس عليه منذ قرون، عرش العظماء الذي لا يُستعمل إلا في حالات استثنائية كإعلان المراسيم الأولى حين وُضعت قوانين كُوْسَانُوكْتِيس لأول مرة.

جلست عليه وجلست معه كل أوجاعي كل انكساراتي القديمة كل ما لم أقله قط، كان العرش باردًا قاسيًا يشبه قلبي الآن.

انتظرت...

مرت دقائق... ساعات... دهور...

الزمن هنا لا يُقاس لكنني شعرت أن الوقت يتمدد ساخرًا مني. جلست بشموخ، في البداية كنت متماسكة، أريد أن أُريه أنني لست بحاجة إليه

لكن شيئًا فشيئًا بدأت أترنح، أُحني ظهري، أُريح رأسي على مسند العرش الثقيل، حتى أغلقت عيني دون أن أشعر

وغفوت...

لا أعرف كم نمت...

لكنني استيقظت فجأة على أصوات خطوات لم تكن خطوات عادية، كانت خفيفة أكثر من اللازم، كانت كثيرة أكثر من اللازم، كانت مشبوهة، خاطئة...

فتحت عيني...

رأيت سُحبًا من الظلال تتحرك أمامي بسرعة لا تُرى ووجوهها لا تُرى، فقط خيالات تجر خلفها خناجر وملامح مشوهة، أحسست أن شيئًا رهيبًا على وشك الحدوث!

قمتُ واقفة بسرعة:

- من هناك؟

لكن لم يجبني أحد.

ثم رأيتهم،

خمسة...

خمسة وجوه بلا وجوه، خمسة هامِسين يرتدون وشاحي الخاص الذي لا يُمنح إلا لأخلص جنودي، لكنهم... كانوا هنا ليقتلوني.

لم أصرخ، لم أهرب.

مددت يدي نحو خنجري وقبضت عليه بشراسة وقلتُ في داخلي:

- سأموت وأنا واقفة... أو سأقتلهم كلهم.

رفعتُ الخنجر أمامي كمن يرفع قَسَمه الأخير، كنتُ أنظر في أعينهم ولم تكن هناك أعين، كانوا فراغًا قاتمًا داخل أقنعة سوداء طويلة تنزف دخانًا أسود من جوانبها. ركض أولهم نحوي، طعنته في عنقه، شعرتُ بحرارة الدم على وجهي كأنها قبلة جحيم، لكنه لم يسقط، صرخ، طعنني في كتفي، شعرتُ بحد النصل يخترق عظمي، ركضت للخلف، باغتني الثاني وطعنني في بطني، شعرت بالبرد يلتهم أحشائي، سقطتُ على ركبتي، لكنني قاومت، كنتُ أصرخ بلا صوت، كانت الدماء تملأ فمي.

ضربت الثالث بخنجر آخر كنتُ أخفيه في حزامي، مزقت خاصرته، سقط على الأرض يتلوى، لكنه ضحك. الرابع سحبني من شعري، جرني أرضًا، شعرت بثقل ردائي وهو يُجر على الأرض الملطخة بالدم، مزقوا كم فستاني، ضربني الخامس على وجهي، ثم على ظهري، ثم على فخذي، كانوا مثل قطعان جائعة يتناوبون علي، يريدون تمزيقي لا قتلي فقط كأنهم يثأرون مني!

صرختُ أخيرًا، بكيت، بصقت دمًا وقلت:

- مَلَيْكَانا لا تُقتل هكذا...

ضربني أحدهم على رأسي بمقبض خنجره، ارتج العالم، اختفى الضوء، لكنني كنت أرى... أرى ذكرى، أرى خيانته، أرى رايفان، أرى جسدي يتمزق، أرى العرش، أرى...

ثم فجأة...

قبل أن ينغرس الخنجر في عنقي، سمعتُ صوتًا قويًا:

انفجر الباب ودخل رايفان!

رأيته كما لم أره من قبل...

كان يركض والنيران تطارده، عيناه زرقاوان مشتعلة، يداه تنزفان من قبضته المشدودة على سيف أسود طويل بدا مقطوعًا من ظلال الغضب نفسه، لم يكن إنسانًا، لم يكن جنديًا، لم يكن معذبًا، كان... وحشًا.

طعن أولهم في صدره، رفعه في الهواء، مزقه إلى نصفين أمامي، صرخ الثاني، حاول الهروب، قطعه رايفان إلى أشلاء، رمى سيفه نحو الثالث، أصابه في الرأس، تدفق الدم مثل نافورة، أما الرابع فصرخ:

- لا! نحن فقط نُطيع الأوامر!

قطع رَيْفَانْ رأسه دون أن يرمش.

أما الخامس، فقد تراجع، اختبأ خلف إحدى الدعامات لكن رايفان لم يرحمه، أمسك به بيديه، ضغط عنقه حتى سمعنا صوت تكسر فقراته ثم رماه نحو الحائط كدمية ممزقة.

كنتُ لا أزال على الأرض...لم أتحرك...

كنتُ أرى دمي، أرى جسدي، أرى الخوف، لكنني كنتُ أراه هو رايفان... يقف في وسط بركة من الدماء.

كان يرتجف، يلهث بقوة!

اقترب مني وركع أمامي. أمسك وجهي بكلتا يديه الملطختين ونظر في عيني وقال بصوت غاضب مرتعش:

- مليكانا، هل أنتِ... هل أنتِ بخير؟! إن كانت هناك روح واحدة في هذا العالم تستحق أن تقتلك... فهي أنا!

جسدي لا يُطيعني...

أشعر بكل جرح كل طعنة كل كسرة في عظمي كما لو أن روحي نفسها نُزفت، رأسي يدوخني، نظري يضطرب، رايفان يصرخ في

وجهي وأنا لا أسمع. حملني ودفعني إلى الزاوية بين الحائط والظل ثم همس في أذني:

- لا تتحركي من هنا، مفهوم؟

أردتُ أن أجيبه، أن أقول له شيئًا، أن أصرخ فيه أنني لستُ طفلة، أنني أنا الملكة، أنني لا أتلقى الأوامر... لكن شفتي لا تتحركان، رأسي يترنح، يدي تنزف.

رأيتُ ظهره يبتعد، كان يتقدم في القاعة ببطء، يلتف نحو الزوايا، يبحث، يتوقع هجومًا آخر، وأنا...

لم أبقَ حيث أمرني، خطوتُ خطوة واحدة ثم قلت:

- رايفان...

استدار، رآني، وجهه تغير، ركض نحوي وأمسكني قبل أن أسقط:

قال بصوت غاضب:

- لماذا لا تستمعين؟! لماذا دائمًا أنتِ... عنيدة؟ هل ترغبين فعلًا في الموت؟!

ثم رفعني من ذراعي وأعادني إلى نفس المكان، هذه المرة دفعني بقوة وقال وهو يصرخ:

- لا أريدكِ أن تتحركي من هنا... إن تحركتِ مرة أخرى، أقسم أنني سأربطكِ، فهمتِ؟

نظرتُ إليه بصمت، لم أستطع أن أجيبه، رأسي ثقيل، لساني عاجز، قلبي يرتجف...

عاد يتقدم في القاعة، سُمِعَت أصوات أخرى.

قتال،

أنين،

زئير،

ثم صمت.

عاد إلي، أمسكني من ذراعي، سحبني إلى الأعلى وقال:

- قفي.

حاولت لكن فشلت.

قال:

- امشي أمامي.

حاولت لكن تعثرت.

تنهد، ثم حملني...

رفعتُ رأسي بصعوبة ورأيتُ عينيه. كانتا مشتعلتين، زرقاوين فيهما شيء لم أفهمه، شيء بين الغضب والخوف، بين الرغبة والذعر.

قال:

- سأخذك إلى غرفتك... لا أمان لكِ هنا.

مشينا، أو بالأحرى، حملني ومشى، جسدي على صدره، يده خلف ظهري، وجهي قريب من رقبته، كنتُ أتنفس صوته، عرقه، غضبه، كنتُ أسمعه يتمتم بكلمات لا أفهمها كأنه يلعن أو يصلي أو يهدد.

دخلنا الغرفة... أغلق الباب بالمفتاح، ثم القفل الآخر، ثم سد المزلاج، دار نحو السرير وألقاني عليه كجسدٍ بلا وزن.

قلتُ بصوت ضعيف:

- رايفان... لماذا؟

قال:

- اصمتي، مليكانا، ليس الآن!

ثم انقض على الغرفة كوحشٍ هارب من قفص، يقلب الزوايا، يفتش تحت السرير وأنا أراقبه من مكاني، أنفاسي مقطوعة، الألم ينهشني من الداخل، الدم يهرب من جسدي بلا استئذان، لكن نظري كان ثابتًا على تلك الفتحة خلف الستار، على الباب الذي نسيته مفتوحًا، على الغرفة التي لا يجب أن تُرى.

لو وصل إليها...

انتظرتُ لحظة أن يستدير نحو الشرفة، نهضت، دوخة سوداء فردت جمجمتي، وضعت يدي على بطني النازف والثانية على فخذي المعزز مشيت على قدمٍ واحدة، وصلتُ إلى الستار، سحبته، أغلقت الباب التفت... فوجدته واقفًا، لا يتكلم، لا يتحرك، فقط يحدق.

عيناه انتقلت من وجهي إلى الدم المتجمع على الأرض، إلى ساقي إلى أصابعي المرتجفة وانفجر.

أمسك بذراعي بقسوة جعلت جسدي يصطدم بصدره، شعرت بعظامي تئن، بعيني تغرق، بصوته يخترقني:

- هل فقدتِ عقلكِ؟ قلتُ لكِ لا تتحركي! هل تريدين أن تموتي؟ هكذا ببساطة؟!

لم أتحمل... صرختُ:

- وماذا يهمك؟ قل لي، ما الذي يهمك لو مت؟!

اقترب، صوته صار برقًا:

- إن مت، سأكون أنا السبب، أفهمتِ؟ لا أحد غيري. وإن قمتِ من السرير مرة أخرى... أقسم أنني سأقيدكِ فيه بيدي ولن تتحركي حتى آخر قطرة من دمك!

أخذني من ذراعي، جرني كأنني دمية مهشمة، رماني فوق السرير بلا كلمة، جسدي ارتطم بالمخدات كجسد ميت لم يعد له وزن.

قلتُ بصوتٍ مكسور:

- لا داعي لكل هذه القسوة!

لم يلتفت، لكن صوته جاء قاسيًا، عاريًا من الرحمة:

- إذًا أطيعي، مليكانا. لأنني أشعر أنكِ تحبين أن تُهانِي وأخشى أنني بدأت أحب ذلك أيضًا.

تركني هناك أنزف بصمت أنظر إلى جسدي المتهالك أشعر بالحرارة تسري تحت جلدي، ثم بردٍ يخترق العظم، لا شيء في سليم لا شيء في ملكي، الدم يغطي ساقي، فخذي، بطني، رقبتي، والشتائم تختبئ في شفتي، لا تخرج، فقط تحترق.

رأيته يخرج إلى الشرفة، يصفر بصوتٍ حاد، رأيتُ ظل الدّامُون يتحركون في الأسفل، فصرخت داخلي: يريد قتلي... سينهي الأمر الآن، سيسلم جسدي إليهم كفريسة!

سمعته يقول:

- اصعدوا إلى غرفة الملكة... حالًا.

لم أعد أسمع إلا قلبي، نبضاته صارت كصدى جرس الموت. انزلقتُ من السرير، شعرت أن كل خطوة تمزق عضويا شيئًا في، كل عظمة تتحطم، كل نفس يُقايض حياتي.

ركضتُ نحو الباب، فتحتُه، ركضتُ في الممر، و إذا بي ألمح العروق تختفي و تظهر من جديد كأنها نبض على وشك التوقف كل ما فكرت فيه أنه سيستغل الوضع و ينهيني لكني بين رمشة و أخرى تذكرت كل سيء حدث معي فأراها تعود إلى السواد من جديد ... لكن ... لكن قبل

أن أبتعد كثيرايده أمسكتني، شدني بعنف، التفت، وصفعته! لم يقل شيئًا، فقط حملني على كتفه ودخل بي الغرفة من جديد، أغلق الباب وصرختُ:

- اقتلني إذًا! أنهِ كل شيء! ما دمت قد خنتني، ما دمت قد استدعيتهم لشهادتي، اقتلني أنت، لا ترسلهم ككلابك!

لم يُجب، رماني على السرير، صعد فوقي، جسده يخنقني ثم صفعني!

نعم... صفعني!

تنهدت بدمعة. قلت:

- سترتكب خطأ عمرك، رايفان.

فصفعني مرة أخرى وصرخ في وجهي:

- ماذا قلت لكِ؟ هل تظنين أنني أمزح؟ تجرئين على الفرار وأنتِ بهذا الشكل؟ تريدين أن يُكمل عليكِ أحدهم ما بدأوه؟ تريدين أن أذبح الجميع؟ أن أشعل حربًا؟!

صفعة ثالثة.

لم أعد أملك شيئًا أرد به، لا صوت لا قوة لا كرامة، فقط جسدٌ يُجلَد.

- أجيبي، مليكانا. أنا أكلمكِ!

همستُ:

- أفضل أن أُقتل على يد ألف خائن من أن أصدق أنك تهتم بي. أنت السبب في كل هذا... أنت...

لكنه لم يدعني أكمل. نهض، نزع حزامه، قيد به يدي في السرير، مزق الملاءة بأسنانه، ربط ساقي إلى الأطراف وقال بصوتٍ مليء بالكراهية وبشيء يشبه خيبة الأمل:

- على الأقل الآن... ستضطرين إلى طاعتي.

طرقات خفيفة على الباب، همسات...

خرج رَيْفَانْ من الغرفة ليكلم الدَامُون. سمعتُه يقول بشيء يشبه التحفز:

- زفراهن، يجب أن نتحرك.

ثم عاد إلي.

أغلق الباب خلفه... بالمفتاح.

ظللتُ أنظر إلى السقف إلى الفراغ، لا دموع، لا صراخ، فقط داخلي ينكسر.

قلتُ بصوتٍ مرتجف، مكسور، محمل بكل الخيبة التي يمكن لامرأة أن تحملها بعد ألفي عام من الحرب:

- هكذا إذًا... هكذا ستأخذ عرشي؟ وأنا مربوطة إلى سريري؟ كنت أرجو موتًا لائقا أكثر على الأقل.

لم يرد، لم ينظر إلي حتى. مضى نحو الحمام، سمعتُ صوت الأدراج تُفتح ثم صوت الماء يُملأ في دلو. بعد دقائق، عاد يحمل دلوًا فيه ماء، وإسفنجة، وخيطًا، وإبرة.

جلس إلى جانبي ولم يقل شيئًا.

وفجأة، مد يده... وأمسك بالسكين.

مزق ثوبي.

صرخت:

- هل جُننت؟ لا تلمسني! لا تجرؤ على لمسي! أقسم أنني سأ...

لكنه قاطعني بصوتٍ بارد بطيء:

- لا تستطيعين منعي، مليكانا. أنتِ تنزفين، مُتهالكة بالكاد تتنفسين، جسدكِ مكسور وروحكِ تُحتضر. أنتِ تحت رحمتي ويمكنني فعل ما أشاء. لدي القدرة أن أمتلككِ الآن... ولن أُجاملك. لكن لا تخافي، الليلة لن أمتلككِ، سأكتفي بإنقاذك.

ثم اقترب من أذني وهمس بصوتٍ أجش، متعمد:

- وصدقًا... لم أتخيل أن تكون ليلتنا الأولى هكذا.

ارتجفتُ... لا أعلم إن كان ذلك من البرد، من الجرح، أم من صوته.

قلتُ بازدراء:

- ستموت قبل أن يحدث ذلك، رايفان، أعدك.

لكن صوت تمزق آخر جاء... قطعة الثوب الأخيرة سقطت، لم يبقَ إلا قطعة صغيرة تغطي ما تبقى مني، بالكاد.

رأيتُ عينيه تتغيران، تحول الجمود إلى ذهول فيه نوع من الحزن ثم قال بصوتٍ مكسور:

- مليكانا...

نظرتُ إلى جسدي... فشهقت.

كان خرابًا.

طعنات، جروح، نزيف من الصدر، البطن، الساق، اليد، حتى كتفي الأيمن كان مفتوحًا... كأن روحي تُسكب مني.

أمسك بالاسفنجة، بدأ يمررها ببطء فوق الجروح، صوت احتكاكها بلحمي كان أشبه بنحيب منسي، كانت يداه قاسية لكن حركته رقيقة، يراقبني دون أن يرمش، عيناه تتنقلان بين أماكن النزيف وأعماقي وكنتُ أرتجف، كل خلية في تصرخ ثم مد يده إلى الخيط والإبرة، وبدأ.

غرزة بعد غرزة.

كنتُ أرتعش، ثم أصرخ، ثم أبكي ثم أعض لساني كي لا أصرخ، لكنه لم يتوقف، لم يتردد، فقط قال:

- إن لم أفعل هذا، ستموتين... أكنتِ تظنين أنكِ خالدة؟ أنتِ قوية، نعم، لكنكِ لستِ خالدة. اتركي عنكِ العناد، مليكانا... اتركيه الآن.

بكيت.

صرخْتُ، قلت:

- رايفان... أرجوك... كفى... أرجوك، لم أعد أتحمل، كل غرزة تؤلمني أكثر من التي قبلها، أرجوك، توقف.

لكنه لم يتوقف.

قال دون أن يرفع عينيه عن الجرح:

- ظننتكِ أقوى من هذا.

أقوى؟

هل يسخر؟

كنتُ أنزف من داخلي أكثر مما أنزف من جلدي، كان الألم لا يُوصف، قلت بصوتٍ مختنق:

- رايفان... فك قيودي... لا أستطيع التنفس... فكني، أرجوك.

تمهل قليلًا، رفع رأسي بيده اليمنى، قرب فمه من وجهي، مر أصابعه على شفتَي المرتجفتَين وقال:

- مرة أخرى.

همستُ، بالكاد أسمع نفسي:

- ماذا؟

قال:

- ترجيني مرة أخرى... ربما أفكك.

ترددت، ثم قلتُ بصوتٍ مكسور:

- أرجوك... فكني.

ابتسم.

نظرة مُمتعة تغلفت في عينيه، ثم قال:

- أحب هذا الصوت... كيف لي أن أرغب فيكِ ميتة، وأنتِ تصدرين هذا الصوت؟ هذا الترجي؟ لا، مليكانا، لن أفكك... لأنني أعرف أنك ستهربين، لا أريدكِ أن تهربي. لستِ آمنة بمفردك.

ثم واصل وأنا أصرخ بصمت، أرتجف، ألعن، أبكي، لا أعلم إن كانت دموعي من الألم، أم من الذل، أم من الحيرة... كيف يمكن لرجل أن يخونك ويحميك في الوقت ذاته؟ أن يهينك وينقذك؟ أن يكون خنجرَك وطبيبك.

انكمش العالم حولي، السقف اقترب من وجهي، الأصوات تلاشت، لم أعد أسمع سوى صدى اسمي ثم لا شيء سوى الظلام...

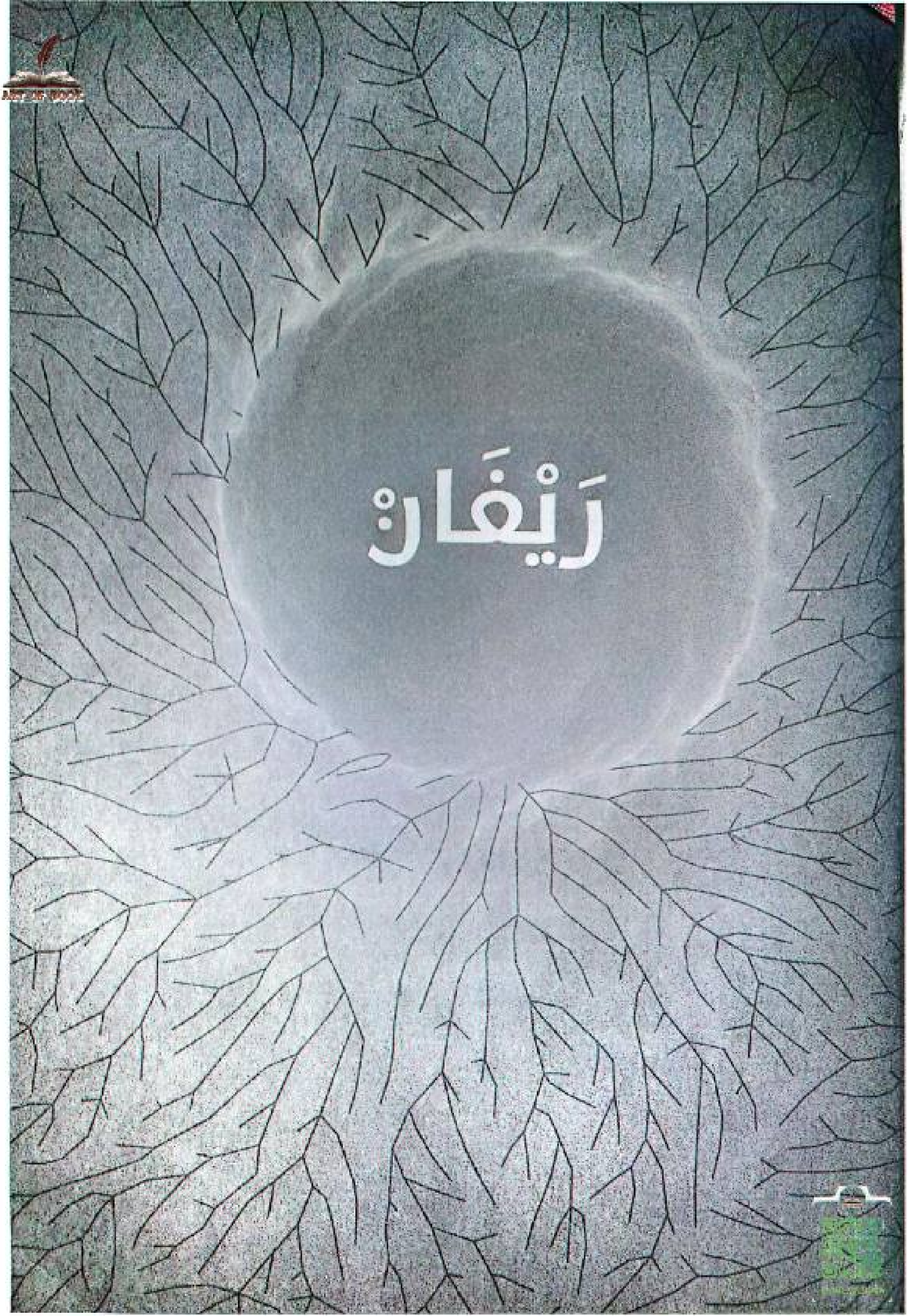
رَيْفَانْ

كان جسدها بين يدي كأن الحياة تسربت منه دفعة واحدة، نبضها ضعيف يتلاشى، جففتُ الدماء عن وجهها، أتممت الغرز، غسلتُ ما تبقى من جسدها بالإسفنجة المبللة. كانت ساكنة، متورمة، تنزف من الشفاه والخصر والفخذ، حرارتها تتصاعد وأنفاسها قصيرة لا تكفي لبقائها على قيد الحياة، سحبتُ الكرسي وجلستُ أمامها أراقب ما تبقى منها، كنتُ على بُعد لحظة من فقدانها، لحظة واحدة فقط وكانت ستنتهي، من أجل ماذا؟

أقسم أنني سأقتل لازار. أقسم أنني سأمزقها تمزيقًا، هي السبب. لكن هذه المرأة... هذه الملكة المجنونة، هذه التي لا أحبها ولا أشفق عليها، لا أحتمل رؤيتها بين يدي أحد، هي لي، ملكي، من رأسها حتى أصغر دمعة في عينيها، لا أحد يلمسها، لا أحد يلمسها سواي.

نهضتُ، وضعتُ يدي على عنقها من جديد، نبضها لا يزال ضعيفًا لكنه موجود، تحركت قليلًا، ارتجفت ثم فتحت عينيها فجأة، نظرت إلي وهمست:

- أنت... ما زلتَ هنا؟ لم ترحل؟

همستُ وأنا أضغط بالإسفنجة على جبينها:

- أنا هنا... لا تتكلمي.

كانت ترتجف، عارية تقريبًا، وجهها باهت، صوتها بالكاد يُسمع، قالت:

- لازار... لازار في خطر... احمِها، سيخونونها كما خانوني... لا تدعها تموت...

تلك الحمقاء تسرق أنفاسها حتى وهي تنزف، قلتُ دون أن ألتفت:

- لازار بخير... اهتمي بنفسك.

ART_OF_BOOK

حاولتْ أن تلمس يدي، أن تضع وجهها عليها، فابعدتها، قالت بصوت مرتعش:

- إيفان، أرجوك... أشعر بالبرد... لا تتركني...

وقفتُ، شعرتُ بالصراع داخلي كأنه سيف ذو حدين، هل أغادر؟ هل أبقى؟ هل أقتلها الآن؟ هل أنقذها؟ جسدها يتفتت نبضها يضعف عروقها تموت واحدة تلو الأخرى، الآن يمكنني أن أخرجها إلى الساحة أن أسقطها أمام الجميع أن أنتزع منها التاج. لن يُعارض أحد، الكل سيرى أن مليكانا انتهت، لكن لا، هذه ليست الطريقة. لن أنهيها وهي تحتضر لن أنتقم من ضعفها، سأسقطها وهي في أقوى حالاتها سأكسرها وهي في ذروة سلطتها سأمزقها وهي تظن أن العالم بين يديها، حينها فقط أستحق التاج.

اقتربتُ من السرير، تمددتُ بجانبها، لم ألمسها، لم أدفئها، لكنني راقبتُ أنفاسها، لن أتركها تموت الليلة، لأنني... لم أقرر، لم أقرر ذلك بعد.

***

تصفيق غريب، ضحكات عالية، أصوات لم أسمعها منذ قرون أصوات لا تنتمي لهذا العالم أصوات ذكرتني بذكريات بعيدة لعلها من الأرض... من حفلة... من زمن آخر. فتحتُ عيني على وقعها، رأسي كان ثقيلًا لكنني كنتُ مستيقظًا هذه المرة، فعلًا مستيقظًا، كأنني خرجت من نوم عميق دام دهورًا. أردت أن أنهض لأرى مصدر تلك الجلبة، لكنني أحسست بوزن على بطني... نظرتُ إلى الأسفل وكانت هناك، مليكانا، نائمة فوقي كطفلة مرهقة أو شيطانة وجدت ملاذًا أخيرًا... لا أدري متى وكيف أتت إلى هنا، لكن الدفء الذي طلبته قد حصلت عليه وهذا وحده كان كافيًا ليزرع في داخلي رجفةً لا أفهم معناها.

راقبتها تستيقظ، رفعت يدها إلى جبينها كما تفعل امرأة عانت من الحمى طوال الليل، وضعت كفها على بطني، حاولت أن تنهض تعبر بنظرها نحو الشرفة، لم تفهم شيئًا ثم نظرت إلي وفي لحظة واحدة فقط... اتسعت عيناها، نظرت إلي وكأنني الشيطان ذاته، ثم سرعان وامتدت يدها تحت السرير، أخرجت خنجرًا واندفعت نحوي!

تفاديتُ ضربتها بصعوبة، أمسكتُ بمعصمها، سحبتها إلى الخلف أسقطتُها أرضًا، انتزعتُ الخنجر من يدها لكنها لم تتوقف، كانت تصرخ كأنها ملبوسة:

- رايفان! قُم الآن! أقسم إن كنتَ قد لمستني، إن كنت قد تجرأت علي... سأحرقك حيًا وأطحنك رمادًا!

قلتُ لها مبتسمًا باستفزاز وأنا أضغط على معصمها:

- اهدئي، لم ألمسك، رغم أنكِ توسلتِ...

قاطعتني بصراخها، كانت تهتز من الغضب:

- أنا؟ أتوسل؟ لكلب مثلك؟ لخائن وضيع؟ حتى في أحلامك لن تنالني، انزع يديك القذرتين عني!

اقتربتُ من وجهها، كان قلبي ينبض بغضبٍ لا أصفه، نظرتُ في عينيها مباشرة وقلت:

- ربما لأنكِ كنتِ تحتضرين، تنزفين ككلبة مذبوحة، وكنتُ مجبرًا على خياطة جراحك، على إنقاذك... أفعل ذلك من خلال ملابسك أم ماذا؟ تفضلين أن تموتي؟!

سكتت، لكن نظراتها ما زالت تحترق... تابعتُ:

- على الأقل مهاراتي في التمريض لا بأس بها، أراكِ الآن تنهضين لقتلي... علامة جيدة على شفائكِ.

وفي تلك اللحظة، سمعنا أصواتًا عالية من الخارج، توجهت أنظارنا نحو الشرفة ثم قالت:

- دعني أنهض!

نظرتُ إليها ببرود ثم قالت:

- رايفان... انهض، اللعنة عليك! دعني أرى ما هذا الهراء بالخارج، ألا تذكر أنني ما زلتُ الملكة؟!

قالتها بشراسةٍ جعلت عروقها السوداء تعود كما لو أنها لم تختفِ قط، وقفتُ ببطء، أزحتُ نفسي عنها، شاهدتُها تنهض بسرعة تتجه نحو زاوية الغرفة، تفتش عن ملابسها بعينين تتوهجان حقدًا ثم صاحت بي:

- أدر وجهك... ألا ترى أنني عارية تقريبًا؟!

ابتسمتُ بسخرية، استدرت نحو الشرفة، أردت أن أفهم ما يجري، وما إن فتحتُ الستار حتى تراجعت خطوة للخلف... لم أصدق ما رأيت، لم أتصور قط أنني سأشهد أمرًا كهذا في سوبكوتيس.

اقتربتْ مليكانا من خلفي، وقفت إلى جواري، قالت بصوتٍ متفاجئ:

- ما هذا بحق الجحيم؟!

قلتُ دون أن أرفع عيني عن المشهد:

- لا أعلم... لكن المؤكد أن هناك...

لم أكمل جملتي إذ انفتح باب الغرفة فجأة، دخلت لآزار تلهث، وجهها شاحب، شعرها مبعثر، كأنها كانت تركض من نهاية العالم إلى هذه العتبة، وما إن دخلت حتى توقفت، نظرت إلي، ثم إلى مليكانا، ثم عادت إلي، فاحمر وجهها، ارتجفت يدها، وقالت:

- م... مليكانا... هناك روح جديدة دخلت سوبكوتيس.

قالت مليكانا بنبرة تحمل السخرية والغضب:

- روح واحدة فقط يا لازار؟

كنتُ ما زلت أحدق إليها، نظرتُ إليها كمن يخطط لذبح بطرف... لازار... هذه الخائنة... هذه الحقيرة التي تسببت بكل شيء. كانت عيناها تتهربان من وجهي، ويداها ترتعشان من مجرد وقوفي هناك.

قالت بصوتٍ مرتجف:

- نعم، أعني... لا... أعني نعم، الجحيم يعم المكان، لا أحد يفهم شيئًا، فوضى، لكن... لكن ماذا تفعل هنا يا رايفان؟

قالت مليكانا بحدة مقاطعةً:

- سؤال ممتاز... عدوي، من نظم خيانتي، هو نفسه من أنقذني من خونةٍ آخرين... ألا يبدو هذا رائعًا؟ ملعونٌ كل هذا البؤس!

لم أنطق بحرف، نظرتُ إلى لازار ولم أرَ سوى ألف طريقة لطعنها دون أن تنزف... مليكانا خرجت من الغرفة بخطى سريعة فتبعناها، لم يكن في عقولنا سوى فكرة واحدة: الوصول إلى ساحة العذاب. لكنها توقفت فجأة، وضعت يدها على رأسها، بدأت تتمايل. كنتُ خلفها تمامًا، أمسكتُ بها قبل أن تسقط وقلتُ:

- مليكانا...

لكنها صفعت يدي، أبعدتها بعنف، قالت دون أن تنظر إلي:

- لا تلمسني، لا أحتاجك، لا أحتاج أحدًا!

استقامت وحدها، تابعت سيرها، وأنا... أنا لم أتمالك نفسي، همستُ دون أن أريد:

- عنيدة...

وصلنا إلى بوابة القصر الكبرى، يقف خلفها اثنان من حراسي الـ... لما رأتهم توقفت، وجهها لا يزال مشتعلًا، رفعت يدها وأمرت:

- افتحوا الباب.

نظر الحارسان إلي بدلًا من تنفيذ أمرها لأنني كنتُ من أمرهم بعدم السماح لها بالخروج لأنها كانت في خطر. صرخت بصوتٍ هز أركان القصر:

- افتحوا هذا الباب اللعين فورًا!

أشرت إليهم برأسي أن ينفذوا، فقالا على الفور:

- نعتذر، مليكانا... لم نكن نريد أن يصيبك أذى.

لكنها تجاهلتهما تمامًا، خرجت مسرعة وعيناي لم تبتعدا عن أثر الدم الذي تتركه خلفها، تنزف... تنزف من جديد، فقلت بهدوء:

- مليكانا... تمهلي.

لكنها صاحت دون أن تنظر إلي:

- وما دخلك أنت؟!

قلت بصوتٍ حاد:

- خيوط الجراحة حديثة... حديثة جدًا... قلت تمهلي.

استدارت نحوي بعنف، اقتربت مني، لم أرَ في عينيها إلا الجنون ثم أخذت تصرخ:

- ما دخلك أنت يا رايفان؟! ما دخلك إنْ انفجرت خيوطك، إنْ نزفت دمي، إنْ تحطمتُ، إنْ متُ؟!

وضعت يديها على رأسها، بدأت تتقدم وتتراجع كالمجنونة ثم تابعت تصرخ:

- باسم هذا الشيطان باسم هذا الجحيم باسم كل ظلمة... من يهمك؟ تظن أنك تخدعني، ثم تنقذني، ثم تنزع التاج عني ثم ماذا؟! تشكرني؟ تقتلني؟ تملكني؟!

اقتربت منها لازار، وضعت يدها على كتفها لكن مليكانا صفعتها على صدرها حتى سقطت على الأرض وقالت:

- لا تتدخلي، لازار، لا تتدخلي أبدًا، هذا الأمر لا يخصك!

لو كانت تعلم أن الأمر يخص لازار أكثر من أي أحد...

ثم أشارت إلي بإصبعها وتابعت الصراخ:

- هذا دفئك وبرودك... احتفظ بهما لعبيدك القذرين، لن تملكني، لن تسقطني، لقد أخذت كل شيء أصلًا!

اقتربت مني وبدأت تضربني على صدري بكل قوتها:

- هل نسيتَ ما فعلت أمام تلك البوابة؟!

وضعتُ يدي خلف ظهري، أتحمل ضرباتها، أتحمل وجعها، لا أريد أن ألمسها... خشيت أن تتمزق غرزها.

- خائن!

لا أريد أن أؤذيها، هي منهكة أصلًا...

- جبان!

لا أريد أن أزيد جراحها، أن أسقطها بلمسة...

- أنتَ لا تعرف الرحمة، لا تعرف الحب، لا تشعر بأي شيء!

هناك دم على فستانها! اللعنة، لقد بدأت تنزف...

- لم أطلب أن أكون ملكة، بل أصبحت كذلك لأنهم رأوا ما فعلتَ بي... لأنهم رأوا...

شهقت:

- آه... رأسي...

أمسكتُ بها قبل أن تسقط وقلت:

- أتوسل إليك أن تتمهلي يا مَلِيكانا، لا تُجبريني على جَرِّكِ جرًا إلى الغرفة!

لكنها أبعدت يدي، نظرت إلي، وقالت والدموع تملأ عينيها:

- لا تقترب مني رايفان، لا تقترب! ملعونٌ أنت، ملعونة حياتك، ملعون هذا القلب المريض، ملعون دفئك وبرودك، لا أريد شفاءً من يد سقاني سمها.

ثم نهضت، بدأت تمشي نحو الساحة ولازار تلحق بها باكية، أما أنا... أنا بقيتُ راكعًا يدي على صدري حيث كان هناك قلب ينزف ذات يوم.

رفعت رأسي، وجهي أصبح حجَرًا، عروقي أشد سوادًا من الليل وبعتهم.

مَليْكَانَا

@ART_OF_BOOK

قالت مليكانا بنبرة تحمل السخرية والغضب:

- روح واحدة فقط يا لازار؟

كنتُ ما زلت أحدق إليها، نظرتُ إليها كمن يخطط لذبحٍ بطيء، لآزار... هذه الخائنة... هذه الحقيرة التي تسببت بكل شيء... كانت عيناها تتهربان من وجهي، ويداها ترتعشان من مجرد وقوفي هناك.

قالت بصوتٍ مرتجف:

- نعم، أعني... لا... أعني نعم، الجحيم يعم المكان، لا أحد يفهم شيئًا، فوضى، لكن... لكن ماذا تفعل هنا يا رايفان؟

قالت مليكانا بحدة مقاطعةً:

- سؤال ممتاز... عدوي، من نظم خيانتي، هو نفسه من أنقذني من خونةٍ آخرين... ألا يبدو هذا رائعًا؟ ملعونٌ كل هذا البؤس!

لم أنطق بحرف، نظرتُ إلى لآزار ولم أرَ سوى ألف طريقة لطعنها دون أن تنزف... مليكانا خرجت من الغرفة بخطى سريعة فتبعناها، لم يكن في عقولنا سوى فكرة واحدة: الوصول إلى ساحة العذاب. لكنها توقفت فجأة، وضعت يدها على رأسها، بدأت تتمايل، كنتُ خلفها تمامًا، أمسكتُ بها قبل أن تسقط وقلتُ:

- مليكانا...

لكنها صفعت يدي، أبعدتها بعنف، قالت دون أن تنظر إلي:

- لا تلمسني، لا أحتاجك، لا أحتاج أحدًا!

استقامت وحدها، تابعت سيرها، وأنا... أنا لم أتمالك نفسي، همستُ دون أن أريد:

- عنيدة...

وصلنا إلى بوابة القصر الكبرى، يقف خلفها اثنان من حراسي ولكن لما رأتهم توقفت، وجهها لا يزال مشتعلًا، رفعت يدها وأمرت:

- افتحوا الباب.

نظر الحارسان إلي بدلًا من تنفيذ أمرها لأنني كنتُ من أمرهم بعدم السماح لها بالخروج لأنها كانت في خطر. صرخت بصوتٍ هز أركان القصر:

- افتحوا هذا الباب اللعين فورًا!

أشرت إليهم برأسي أن ينفذوا، فقالا على الفور:

- نعتذر مليكانا... لم نكن نريد أن يصيبك أذى.

لكنها تجاهلتهما تمامًا، خرجت مسرعة وعيناي لم تبتعدا عن أثر الدم الذي تتركه خلفها، تنزف... تنزف من جديد، فقلت بهدوء:

- مليكانا... تمهلي.

لكنها صاحت دون أن تنظر إلي:

- وما دخلك أنت؟!

قلت بصوتٍ حاد:

- خيوط الجراحة حديثة... حديثة جدًا... قلت تمهلي.

استدارت نحوي بعنف، اقتربت مني، لم أرَ في عينيها إلا الجنون ثم بدأت تصرخ:

- ما دخلك أنت يا رايفان؟! ما دخلك إنْ انفجرت خيوطك، إنْ نزفت دمي، إنْ تحطمتُ، إنْ مت؟!

وضعت يديها على رأسها، بدأت تتقدم وتتراجع كالمجنونة ثم تابعت تصرخ:

ART_OF_BOOK

كنتُ أسمع الأصوات تتعالى مع كل خطوة أخطوها نحو الساحة، الصرخات تتداخل مع التصفيق، ضحكاتٌ هستيريةٌ تصدح من مكانٍ أعرفه جيدًا أراه من بعيدٍ أمامي لكنه يبدو اليوم وكأنه تحول إلى شيءٍ آخر، إلى مسرحٍ من نوعٍ مريضٍ لا ينتمي إلى سُوبْكُتِيس. كلما اقتربتُ أكثر، شعرتُ بقلبي يخفق بشدةٍ ليس خوفًا، بل غضبًا وحيرةً واستغرابًا مما يمكن أن يُحدثَ مثل هذه الأصوات الغريبة في عالمٍ لم يعتد إلا النحيب والتوسل والصمت.

كنتُ أمشي بخطوات ثقيلة تكاد تُزعزعُ الأرض تحت قدمي وأشعر بالدماء تتسرب من جراحي وبألمٍ حاد في ساقي وفي بطني. الأصوات ترتفع أكثر كلما اقتربتُ وبدأت الآن تتشكل أمامي على شكل ظلالٍ راقصةٍ على جدران الحجارة السوداء، ظلالٍ تبدو غريبةً جدًا كأنها تنتمي لعالمٍ آخر، لعالمٍ غادرته منذ ألفي عام ولم أعد أرغب في رؤيته مجددًا. يشبه ذلك اليوم وكأن التاريخ يعيد نفسه فقط الشخص مختلف. كان هنا بكل بشاعته بكل كذبه بكل نفاقه بكل الضحكات الزائفة التي تصعد الآن في الهواء تُذكرني بكل ما كنتُ أحاول نسيانه.

كانَت هناكَ حشودٌ متلاصقة ترفعُ هواتفها عاليًا تُصور تضحك تُسجل وتوثق كل لحظة كما لو كانت في حفلةٍ موسيقيةٍ صاخبة لا في ساحة تعذيب. لم يلحظني أحدٌ في البداية، كانت كل العيون مُعلقةً بتلك المرأة الواقفة في وسط الحلبة... المرأة التي شعرتُ منذ اللحظة الأولى أنها مرآة سوداء لوجهي القديم، وجهٌ دفنتُهُ منذ ألفي عام.

اقتربتُ أكثر واستطعتُ سماع صوتها بوضوح وهي تصرخ وسط ضحكاتٍ مجنونة:

- يا جماعة لا أصدق ما أراه! انظروا هذا المكان الغريب، أنا حرفيًا دخلتُ الجحيم! يا إلهي، لا أصدق أني أقوم بهذا التحدي المجنون!

رفعت هاتفها نحو وجهها لتُصور «ستوري»، وهي تقول بحماس:

- لو أعجبكم ما ترونه، شاركوا، تفاعلوا، وانشروا الهاشتاغ الجديد: #جحيم_المؤثرين! دعونا نصنع الترند!

بدأ جمهورها يصرخ ويردد وراءها بشكلٍ هستيري:

- #جحيم_المؤثرين!

رفعتُ حاجبي باستغرابٍ وأنا أتقدم. رأيتُ هامسة تقفُ عند الحافة تراقب بخوف، فسألتُها:

- مَن هذه المرأة؟ ولماذا كل هذا الحشد حولها؟

ترددت الهامسة قبل أن ترد:

- هي مؤثرة من العالم الخارجي، كانت تنشر حياتها كل يوم أمام هؤلاء الأشخاص وتبعتها هذه الجماهير طواعية إلى هنا رغم أنهم لم يكونوا يحملون ما يكفي من العروق السوداء لدخول كُوسَانُوكْتِيس، دخلوه فقط لأنها دخلت. يا لغرابتهم!

ART_OF_BOOK

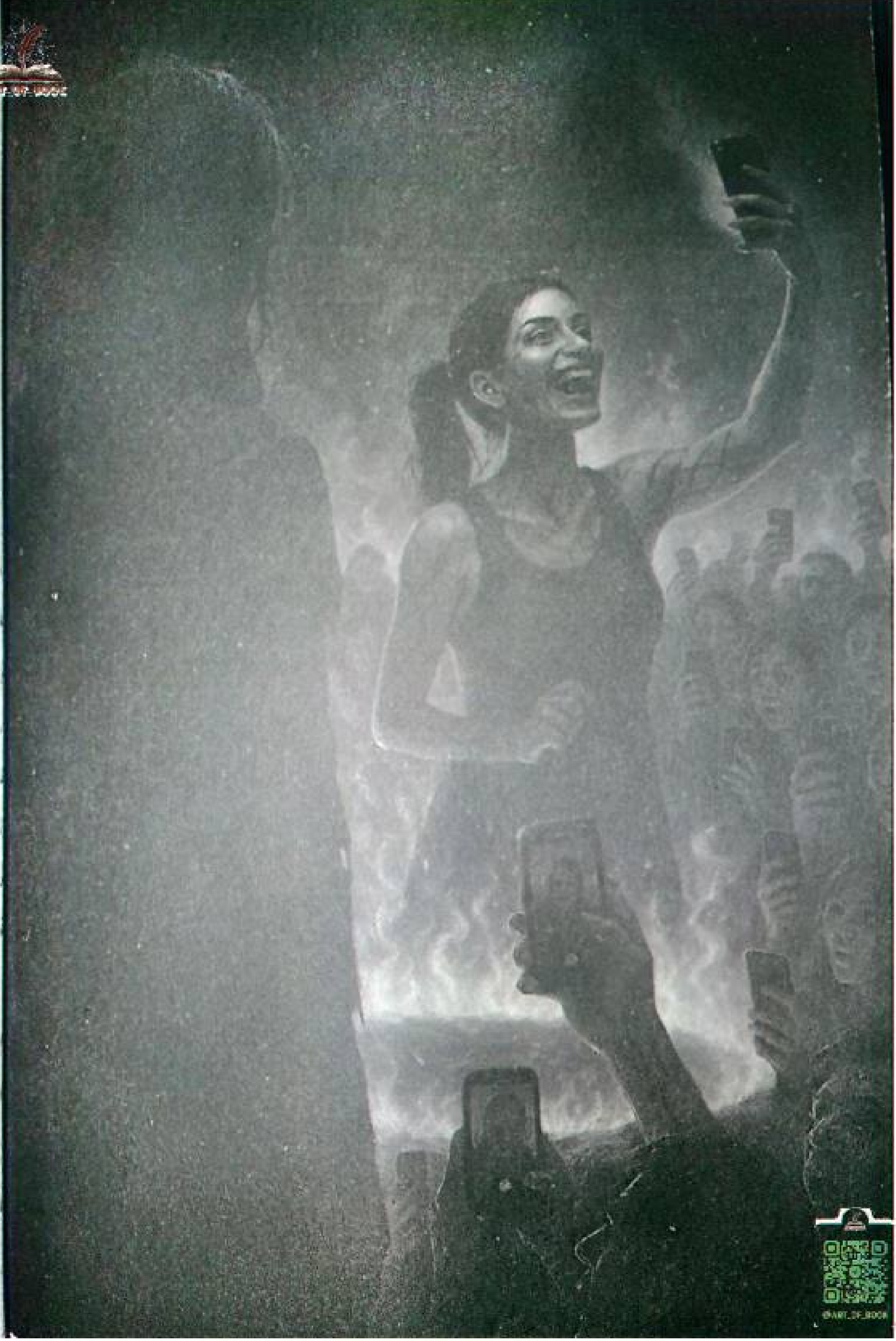

امسح لتسمع (اختياري)

صمتُ لحظةً وشعرتُ بشيءٍ ثقيلٍ جدًا يجثمُ على صدري. نظرتُ إلى رايفان من بعيد، كان يقفُ هناك يراقبني بصمتٍ تام، نظرتهُ تقول كل شيء: «هل تذكرين؟ أنتِ أيضًا كُنتِ هنا ذات يوم.»

صور الماضي اجتاحتني بسرعة، ذكريات اليوم الذي خضعتُ فيه لاختبار النفس والجسد. نعم، كان ذلك هو اختباري. لم أكن أعلم حينها أن العروق السوداء قد ظهرت على جسدي في العالم الخارجي فقط لأني كنتُ «مؤثرة» أكذب على جمهوري أقول لهم إني بخير سعيدة، أُريهم فقط ما أريده.

كنتُ في إنكارٍ تام، أردد: «أنا فقط أشارك حياتي، لا أؤذي أحدًا.» نعم، كانت هذه بالضبط كلمات هذه المرأة التي تستمتع الآن بغبائها وسذاجتها وجهلها، لم تعلم أنها بهذا تؤذي نفسها.

كنتُ مثلها يومًا، لم أكن أرى نفسي إلا من خلال أعينهم، كنتُ أعيش لأُرضيهم، لأبقى في عيونهم جميلة مرغوبة ناجحة. تخليتُ عن نفسي

لأحافظ على ابتسامتهم فاختفى وجهي الحقيقي. كنتُ أوهم نفسي أنني حرة أنني أحبُ نفسي بينما كنتُ عبدةً لنظراتهم.

لكنني، أنا، اجتزتُ ذلك الاختبار.

دخلتُ في جحيم عقلي، انهرتُ فيه نفسيًا، خضعتُ لتعذيبٍ جسدي لا يُحتمل، اعترفتُ، بكيتُ، صرختُ، جردتُ نفسي من كل كذبة، من كل قناع. خرجتُ من ذلك اليوم بلا فلاتر، بلا أقنعة، بلا عروقٍ سوداء. كنتُ أول من فقد تلك العلامة الملعونة، عدتُ إنسانة...

ووصلتُ إلى الباب...

نعم، كنتُ واقفةً هناك، أمام بوابة الخروج، جسدي لا يحمل أي أثر من العتمة، كنتُ على وشك المغادرة... لكنني لم أفعل. كنتُ أنتظره.

كنتُ أنتظر رايفان.

رأيته يقترب بدوره من الاختبار، كنتُ أراقبه من بعيد، أرجو، أؤمن أنه سيجتازه كما فعلتُ أنا وأننا سنخرج معًا، لكن...آخخخخ.

رجعتُ إلى ما تراه عيناي الآن، كانت المؤثرة بعينين لامعتين وشعرٍ مربوطٍ بإهمال في ذيل حصان، يكسو جسدها بالكامل شبكٌ من عروقٍ سوداء نابضة، تتلوى على ذراعيها ورقبتها وتحت جلد وجهها ومع ذلك كانت تبتسم، بل تضحك، ترفع هاتفها عاليًا وتدور حول نفسها كما لو كانت تُقيم حفلةً لأصدقائها المقربين، وكأن هذا العالم ليس سوى لعبةٍ جديدةٍ في هاتفها، لم تشعر بأي خطرٍ أو خوف، كانت بكل بساطة.. سعيدة أو تتظاهر بذلك.

شعرتُ بقبضةٍ قويةٍ على قلبي وأنا أتقدم نحوها... أفكارٌ بدأت تتسلل إلى عقلي رغمًا عني: «هل كنتُ هكذا يومًا؟ هل كنتُ بهذا الغباء؟ بهذا السخف؟ هل ابتسمتُ هكذا بينما كانت جراحي مفتوحةً تنزف؟»

اقتربتُ أكثر، بدأت الأعين تلاحظني، تنسحبُ الوجوه عن طريقي بسرعةٍ وخوف، همساتٌ سريعةٌ متقطعة تنتقل من فمٍ إلى فم:

- الملكة هنا...

بدأت الدائرة تتسع من حولي وتضيق في نفس الوقت حول المرأة التي لم تنتبه بعد لوجودي، كانت تضحك بصوتٍ عالٍ، تمد ذراعها أمامها والهاتف في يدها، تُشير نحو هامس يقفُ مرتجفًا في إحدى الزوايا، تقول بصوتٍ عالٍ وهي تُصوره وتضحك:

- انظروا إلى هذا المسكين، يا إلهي، كيف يبدو قبيحًا! هل ترون عروقه؟ انظروا إلى بشرته البشعة!

والحشد خلفها يردد بصوتٍ واحدٍ ضحكاتها وكلماتها يستهزئون بالهامس الذي يكاد يختنق من مرارة الذل وبدوره أحنى رأسه خجلًا وهو يرتجف.

ثم التفتت إلي فجأةً دون سابق إنذار ووجدتُ نفسي وجهًا لوجهٍ معها، كانت عيناي في عينيها مباشرةً، توقفت للحظة، الهاتف في يدها يتوقف عن التصوير وضحكتُها تتجمد على وجهها، نظرت إلي وتفحصتني بوقاحةٍ لم أعهدها من قبل من طرف أي روحٍ مرت في هذا المكان، ثم قالت بضحكةٍ هازئة:

- إذن أنتِ الملكة؟ هكذا أسمعهم يرددون عنكِ؟ لكن... كيف يمكن أن تكوني ملكةً وأنتِ بهذه الحالة المزرية؟! بالله عليكِ، انظري إلى نفسكِ إلى ثيابكِ إلى وجهكِ المتعب وإلى هذه الهالات السوداء التي تكاد تبتلع عينيكِ! يجب أن تكوني جميلةً إن كنتِ ملكة لا يُمكنكِ أن تظهري بهذه الصورة أمام الناس، أمام جنودك.

ثم اقتربت مني دون استئذانٍ وأخرجت من جيبها أحمر شفاه، تقدمت

نحوي وهي تقول بنبرةٍ تبدو ساخرة:

- تعالي تعالي دعيني أضع لكِ قليلًا من هذا، صدقيني سيساعدكِ قليلًا أنتِ تحتاجين بشدةٍ إلى بعض الألوان على وجهكِ وإلا لن يصدق أحدٌ أنكِ ملكة بهذا الوجه الشاحب!

في هذه اللحظة شعرتُ بالغضب يكاد يحرق عروقي بالكامل، قبضت يدي بقوةٍ حتى شعرتُ بأظافري تنغرز في راحتي وتكاد تُمزقها، وجمع الحشد خلفها بدأت تضحك بهستيريا، تعليقاتهم تنهال علي من كل اتجاه:

- انظروا إليها، انظروا كيف تبدو ضعيفةً ومهزومة، هل هذه هي الملكة؟

- يا إلهي، كم تبدو بشعة! هل هي جادة؟

- انظروا، حتى هذه المرأة الغريبة تبدو أفضل منها!

وقفتُ للحظات، صامتة جامدة أراقبهم يضحكون يُصفقون يصرخون ينتظرون ردة فعلي.

وفي داخلي، في عمق روحي، كانت عاصفةٌ عاتيةٌ بدأت تتكون. شيءٌ أعرفه جيدًا، غضبٌ قديمٌ حزنٌ عميق مرارةٌ لا تُحتمل عارٌ لم أعد قادرةً على تجاهله.

رفعتُ رأسي بهدوء، ثبت عيني مباشرةً في عيني المرأة التي أمامي، وعرفتُ في تلك اللحظة... أنها لن تخرج من هذه الساحة حية.

تذكرتُ كل شيء، تذكرتُ المرآة، تذكرتُ وجهي فيها، تذكرتُ إنكاري، كذبي، ضعفي، وتذكرتُ أيضًا أنني نجوتُ من هذا الاختبار.

لكنها... لم تكن أنا.

هي كانت أسوأ.

كانت أضعف.

كانت مستهترة.

ولن تمر من هذا الاختبار إلا عبر جحيمٍ من صنع يدها.

تحركتُ ببطءٍ شديدٍ نحوها ورفعتُ يدي عاليًا نحو السماء وتوقف كل شيء في لحظةٍ واحدة، ساد الصمت توقفت الضحكات تلاشت الهمسات، وشعرتُ بكل العيون تُحدق إليّ وأنا أقول بصوتٍ ثابتٍ، واضح، يحمل قوة عمرها ألفا عامٍ من الندوب:

- هذا الاختبار، اليوم، لن يكون مثل غيره. اليوم، لستُ أنا من سيختبر هذه الروح. ولستُ أيضًا أنتَ، رايفان. اليوم، من سيختبرها من سيقررُ مصيرها هم أنفسهم من جاؤوا خلفها هم أنفسهم من صفقوا لها من تبعوها من رفعوها فوق رؤوسهم. اليوم، لأول مرةٍ في هذا العالم، سيكون الاختبار... من جمهورها.

لكن لبدء هذا الاختبار... أحتاج إليكم، قرائي الأعزاء.

هيا بنا، لنُرِ العالم ماذا يعني أن يسخر منا، من جحيمنا، من قصتنا.

اجعلوهم يدفعون الثمن... بأنفسهم.

أنتم الذين تحملون هذا الكتاب الآن، افتحوا هواتفكم، صوروا هذه الصفحة، وانشروها مع الهاشتاغ:

#مليكانا

لكي يبدأ الاختبار.

لحظة صمتٍ مرت كأنها أبدية.

التوترات تصاعدت بين الحشود.

والمؤثرة... كانت لا تزال تضحك...

رفعت هاتفها وهي تقول بسخرية:

- أوه، ترند جديد؟ رائع!

ابتسمتُ ابتسامةً باردة، وقلتُ بهدوءٍ شديد:

- لا يا عزيزتي، هذا الترند خاص بكِ وحدكِ.

في اللحظة التي انتهيتُ فيها من كلماتي، تغير لون عيني، تحولت إلى اللون الأبيض وتبعتها عيونُ المؤثرة وجميع مَن معها في الساحة، تسللتُ إلى دواخلهم وأيقظتُ الوحشَ النائم في داخل كل واحدٍ من جمهورها. بدأت الهواتف ترتفع من كل مكان، الجمهور يلتفت نحو المؤثرة وبدأوا يصرخون بأصواتٍ وحشية:

- هيا نصورها! انظروا كم تبدو سخيفة!

- لا تنسوا أن تضعوا هاشتاغ #سقوط_المؤثرة!

- لنرى كم ستجلب مشاهداتٍ وهي تُدمر!

تغيرت ملامح المرأة فجأة، ابتسامتها السخيفة تحولت إلى فزع، صرخت وهي تنظر نحو جمهورها السابق برعبٍ شديد:

- توقفوا! ماذا تفعلون؟ أنا صاحبتكم، أنا التي كنتم تحبونها!

بدأ الجمهور بالاقتراب منها كأسرابِ غربانٍ تحيطُ بفريستها، كان صوتُ أقدامهم يرتفعُ بتناسقٍ غريبٍ ومرعب، آلاف العيون البيضاء تلمع في ظلام الساحة والأسنانُ مكشوفةُ بابتساماتٍ ثابتة مُخيفة وبلا روح.

لكنها ظلت تُمسك هاتفها وعادت الابتسامة على وجهها، بل بدأت بالتصوير مرة أخرى كأن شيئًا لم يتغير كأنها لم تُدرك بعد أن هذه الوجوه التي طالما صفقت لها وتابعتها باتت الآن على وشك تحطيمها!

صرخت ضاحكةً بتلك النبرة الزائفة التي أعرفها جيدًا:

- أنتم تمازحونني، صحيح؟ هذه مجرد مزحة، صحيح؟ هيا، أخبروني أنكم تمزحون...

تحرك الجمهور من جديد لكن هذه المرة لم يكن مجرد تصوير... دُفعت بقسوة سقطت أرضًا وتوالت عليها الركلات من كل جهة.هواتف مرفوعة، كاميرات تلاحقها من كل زاوية، ضحكاتٌ تتعالى وصرخات تُغرق المشهد، بينما جسدها المرتجف ملقى على الأرض، ثيابها ممزقة، شعرها متناثر ووجهها يقطر دمًا ودموعًا.

كانوا يتنافسون فيما بينهم على التقاط أفضل صورة، أفضل زاوية تُظهر ضعفها، ذلها، هوانها، دون أي شفقة. صرخت إحداهن وهي تقفز حماسةً:

- صوريها، صوري وجهها! سنضعُها في الستوري ليشاهد الجميع كيف سقطت الأميرة!

وانفجرت مجموعة أخرى بالضحك وهم يقولون بصوت واحد:

- نعم، سننشئ هاشتاغ خاصًا بها: #ملكة_السقوط!

أحدهم اقترب أكثر منها، وجهه يقترب من وجهها، يضحك بشكل هستيري وهو يصور بكاميرته كل دمعةٍ تنزل من عينها، كل جرحٍ في جسدها:

- انظري إلى الكاميرا أيتها الجميلة، ابتسمي! ابتسمي لتكسبي قلوب المتابعين!

وآخر كان يصرخ وهو يلتقط صورة سالفي قرب جسدها الممزق:

- لا تفوتوا البث المباشر، إنه أفضل من جميع فيديوهاتها التافهة التي كانت تضحك بها علينا!

كانوا يكتبون بأصابعهم على هواتفهم تعليقات مُهينة ثم يعرضونها على وجهها ليقرؤوها بصوت عالٍ أمامها:

- لقد كنا نتابع مهرجة، مجرد مهرجة!
- يا إلهي، ما أبشعها دون الفلاتر!
- من هذه القبيحة؟ أهي نفسها التي كانت تخدعنا؟

اقتربت مجموعة من الفتيات، يُمزقن ملابسها أكثر، يصرخن بغضب:

- هذه الثياب الرخيصة تليق بكِ! لماذا كنا نظن أنك مميزة؟
- انظروا كيف تتعرق كالخنزيرة! هيا صوروها بسرعة لنرفعها على التيك توك!

كان جسدها العاري الممزق يظهر أمام الجميع، عارها مكشوف وهي تغطي وجهها بيديها باكيةً بحرقة:

- كفى... كفى... أرجوكم...

لكنهم لم يكفوا، بل زاد حماسهم وسخريتهم، كانوا يلتقطون مقاطع قصيرة لمشاهد تعذيبها، يرسلونها لبعضهم ويعلقون بصوت عالٍ على عدد المشاهدات والإعجابات:

- تخيلوا كم لايك سنحصل عندما نشارك هذا المقطع؟
- يجب أن نكتب: «فضيحة القرن» أو «الانهيار النهائي» ستصبح ترند بسرعة!

كانت أضواء الهواتف تضرب وجهها، كلما حاولت أن تُغطي نفسها أو تداري جسدها كلما اقتربت الكاميرات أكثر وكلما ازدادت سخريتهم قسوةً ووحشية. أحدهم جرها من شعرها إلى المنتصف وقال ضاحكًا:

- تعالي إلى المنتصف لنصور لايف! هذه أجمل لحظاتنا معكِ!

رفعتُ يدي من جديد وعيْناي ما تزالان تشعان بذلك البياض الساحق.
كانت الأرضُ من حولي ترتجف كأنها تتذكر ما حدث قبل ألفي عام حين بدأ نفس الاختبار... ونجوتُ منه وحدي.

تقدمتُ نحوها. كانت راكعةً منهارة يداها تُغطيان وجهها لكنها لم تنطق بعد بأي اعتراف. لم تُسلم بعد، بل ما تزالُ تتمسك بخيوط كبريائها الواهية، ما تزالُ تهمس لنفسها بصوتٍ متقطع:

- ما زالوا يحبونني... ما زالوا يتابعونني... هم فقط غاضبون قليلًا... إنهم لا يقصدون...

ابتسمتُ ببرود ثم أشرتُ إلى اثنين من الذامُون. اقتربا منها، أمسكاها من ذراعيها وسحباها إلى منتصف الساحة. هناك حيث كانت الأضواء التي ظننتْ يومًا أنها أضواء الشهرة تُسلط الآن على وجهها المليء بالدموع و قلت:

-بدأ الاختبار الجسدي.

اقتربوا منها كما تقترب الضباع من فريستها بلا عجلٍ بلا تعاطف كأنهم ينتظرون هذا اليوم منذ ولادتهم. كانت ملقاةً على الأرض، وجهها مشوه من البكاء، من الدم، من الانتفاخ، لا تزال تهمس كلماتٍ ممزقة:

- لا... لا، هم ما زالوا يحبونني...

لكنها كانت مخطئة!

اقترب أحدهم، شابٌ يحمل هاتفًا بيده ويبتسم ابتسامةً مملوءة بالحقد. جلس على ركبتيه أمامها، رفع وجهها بلطفٍ خبيث، وقال:

- أوه، هل هذا وجهك الحقيقي؟ هيا، فلنصوره بدقة، بدون فلاتر هذه المرة.

ضحك، مد يده إلى جيبه، أخرج مشرطًا صغيرًا ثم قال بصوتٍ واضح كي يُسمعه الآخرون:

- سأرسل هذا المقطع بعنوان: «لحظة إزالة الفلتر».

ثم بدأ يمرر النصل على خدها برفقٍ شيطاني، حتى انفصل الجلد عن اللحم، كشف عن اللحم الأحمر الحي تحته، فصرخت.

لكن صرختها لم تُخِف أحدًا، بل كانت كالوقود.

هتفت فتاةٌ من الخلف، تحمل كاميرا كبيرة:

- أبطئ! أبطئ الحركة... أريد لقطةً واضحة حين تنفصل الطبقة الأولى.

وقام شابٌ آخر بجانبها بسحب الجلد المتدلي من طرف الفم ثم قطعه بإصبعه.

- هل كانت هذه شفاهها الجميلة؟!

ردت فتاة بسخرية:

- بانتفاخها الفارغ؟! ألم تقل أنها طبيعية؟!

ثم تقدمت وبيدها محقنة ضخمة مليئة بمادة الفيلر وغرستها في وجنتها اليسرى ثم الأخرى في الشفة العليا وبدأت تضغط.

- دعونا نُعيد بناء الجمال كما كانت تراه!

وجهها بدأ ينتفخ، يتضخم، الملامح تتشوه، حتى انفجرت إحدى الأوردة وتناثر الدم وسط صيحاتٍ من الضحك والهيستيريا.

أمسكت بها شابة من الخلف، رفعت رأسها من شعرها، نظرت إليها بتمعن ثم قالت:

- ما هذه التسريحة الرخيصة؟ شعرٌ تالف، غير لامع، وغير جذاب

ثم أخرجت أداةً حديديةً حادة وبدأت تسلخ فروة رأسها خصلةً خصلة. كل خصلةٍ تنتزعها كانت تتبعها قطعةُ جلد وهي تصرخ والضحكات تزداد.

قال أحدهم وهو يلتقط صورةً مقربة:

- العنوان: «حقيقة شعرها الطبيعي!»

اقتربت فتاةٌ ترتدي قفازاتٍ مطاطية، نظرت إلى جسد المؤثرة وقالت:

- هل سأل أحد عن الوزن؟

ضحك أحدهم:

- أوه، نعم، قالت أنها تتبع نظامًا غذائيًا صارمًا.

ثم سحب جلد بطنها بيدٍ واحدة وبدأ يقطع الشـــحم بسكينٍ جراحي، بتأنٍ، بشغف.

- هذه الدهون... لنعرضها على الستوري، نكتب: «الدايت لا ينجح إلا أمام الكاميرا. هاهاها».

فجأة، جاءت فتاةٌ طويلة القامة، بيدها مكواة حديدية، نظرت إلى جسد المؤثرة وقالت:

- انظروا إلى هذا الجلد المتدلي! سنعيد تشكيله!

ثم كبست المكواة على الفخذ الأيسر، فاحترق الجلد، ثم كشطته بأداةٍ حادة، وصاحت:

- Body sculpting مجاني يا عالم!

دموع المؤثرة تختلط بالدم، بعصارة الحروق، وهي تتوسل:

- أرجوكم... أرجوكم توقفوا...

لكن أحدهم اقترب، أشار إلى عينيها وقال:

- انظروا إلى الهالات السوداء! تحتاج «كونسيلر، أليس كذلك؟

ثم سكب سائلًا حمضيًا في كل عين... صرخةٌ فظيعةٌ ترددت في سوبكتيس.

تقدمت فتاةٌ صغيرة تقفز كأنها في فيديو تيك توك، ضحكت وقالت:

- اسمعوا، نحن لا نرى وجهها الحقيقي فقط... نُريد أن نعرف لماذا لم تتزوج بعد، أليس هذا هو السؤال الأبدي؟

ردت أخرى:

- نعم! قالت أنها لا تؤمن بالزواج التقليدي!

ضحك الجميع ثم قال شاب ضخم:

- سنُعالج الأمر الآن.

أمسك بها من ساقيها وسحبها إلى منتصف الدائرة، أخرج سكينًا بدأ يفتح بطنها ببطءٍ شديدٍ وسط صراخٍ متقطع ثم أدخل يده، ورفع رحمها أمام الجميع.

- حرية الاختيار!

ضحك أحدهم:

- ما رأيكم أن نرسل هذا المقطع في الجروبات التي كانت تُدافع عنها؟

صرخت المؤثرة بكل ما بقي من هواءٍ في صدرها:

- أنا آسفة! لم أقصد... كنتُ فقط أشارك حياتي! لم أؤذِ أحدًا!

كنتُ أقف بهدوء وسط هذه الفوضى عيناي باردتان قلبي جامد. المشهد كله كان مرآةً سوداء لما كنتُ عليه يومًا، الاختيار الذي نجوتُ منهُ بأعجوبة، لكن هي لن تنجو.

انحنيت نحوها ثم رفعت وجهها الدموي بين يدي وهمست أخيرًا في أذنها:

- هل أعجبتكِ تجربة الشهرة؟ هل كانت تستحق؟

أجابت بصوتٍ ضعيفٍ مكسور:

- اقتلني، أرجوك! لا أستطيع... أنا محبوبة، أنا محبوبة.

نظرتُ نحو الجمهور وقلتُ بصوتٍ حاسمٍ لا يحمل ذرة شفقة:

- انتهى الاختبار... اليوم سيتعلم الجميع أن الكاميرات التي تلتقط ضحكاتكم، قادرة أيضًا على توثيق عذابكم الأبدي.

غرستُ يدي في ظهرها حتى لامست العظم ثم سحبتُ عمودها الفقري دفعةً واحدة بعنفٍ نازف... تدفق دمها الأسود كسيلٍ مسموم ثم ارتطم جسدها بالأرض ارتطامًا عنيفًا دوى كصاعقة.

سكن كل شيء كأن أحدًا ضغط على زرٍ لكتم الصوت فجأة. الوجوه التي كانت تضحك قبل لحظات، تحولت إلى وجوهٍ حائرة، مرتعبة، كأنهم بدأوا للتو في إدراك معنى وجودهم الحقيقي هنا.

اقترب مني أحدهم، شاب نحيل، شعره مُصفف بعناية كأنه كان يستعد للظهور في ستوري جديد، صوته كان يرتجف من بقايا الثقة السخيفة التي تبخرت للتو، قال بابتسامةٍ مصطنعةٍ مترددة:

- حسنًا... هذا كان... كان مذهلًا حقًا، أداءٌ رائع! لقد أحببناه، صحيح يا شباب؟ والآن... كيف نخرج؟ من نفس الباب الذي دخلنا منه، أليس كذلك؟

ابتسمتُ ببطء ابتسامةً باردةً مخيفة، ألقيتُ العمود الفقري الذي كان بين يدي أرضًا وقلتُ بهدوء:

- الباب؟ الخروج؟ ظننتم أن اختباركم هو فقط أن تتابعوا من الحمقاء التي كانت تضحك عليكم؟ لا، أحبائي، الاختبار الحقيقي هو أنتم.

بدأت الخطوات تتراجع وعيونهم تتسع وبعضهم حاول التظاهر بالضحك ظنًا أنها مجرد مزحة ثقيلة أخرى. لكن صوتي لم يترك لهم فرصة الأمل. قلتُ بصوتٍ قوي مُهيمن:

- أهلًا بكم في اختباركم الحقيقي... اختبار الجمهور التافه الذي يلاحق الأضواء، حتى لو قادته إلى أعماق الجحيم. والآن... حان دور سكان هذا العالم ليردوا لكم الجميل.

رفعتُ يدي، إشارة بسيطة، لحظة واحدة فقط كانت كافيةً ليبدأ الجحيم الحقيقي.

تدفق الآلاف من الهامسين والدامُون من كل الجهات كجيوش الظل زحفوا على الجدران، على الأرض، أصواتهم تتشابك مع صرخاتٍ تشبه النحيب، تشبه اللعنات المنسية، تشبه غضب العصور.

انقضوا على أفراد المجتمع واحدًا تلو الآخر. بلا رحمة، بلا شرح. الهواتف التي كانت في أيدي الضحايا سقطت على الأرض. تحطمت تحت أقدام الجنود، تحولت إلى شظايا ومرايا تشهد على البشاعة.

صرخ أحدهم وهو يُركل الهواء، يحاول الفرار:

- لا! لا! لم أكن أقصد! أنا فقط كنت أتابعها... كنتُ فقط أبحث عن محتوى جديد...

لكنه لم يُكمل، لأن غازُولا كانت قد انقضت عليه من الأعلى، التقطت رأسه بأسنانها الحادة، قطعته، ثم بصقته كقطعةٍ لا تستحق البلع.

نَحو فم الأرض، ابتلع جزءًا من جسده، بينما الآخرون تدافعوا نحو ما تبقى منه، ليس لينقذوه، بل ليبتعدوا عنه، مذعورين، يصرخون، يتعثرون، يُسحقون تحت أقدام الجنود.

على الجانب الآخر، كانت فتاةٌ تُجر من شعرها، أظافرها تُنتزع واحدةً تلو الأخرى على يد إحدى الهامسات، ملابسها تمزقت، عُريها صار معلقًا للمهانة، كانت تحاول تغطية جسدها بالتراب، بالصراخ، بالأمل.

شابٌ آخر سقط أرضًا، رفع يده في استسلام، لكن أحد الدامُون ضرب وجهه حتى تهشم، سال دمه، وتكور وهو يبكي كأنه يحاول الاختباء داخل جسده.

أجسادٌ تُسحق تحت الأقدام، رؤوسٌ تُفجر، أحشاءٌ تُنتزع، أصوات بكاءٍ تختلط بهسهساتٍ متعطشة، أنينٌ قديم يعود من أعماق كُوسَانُوكْتِيس... لا ليُذكرهم، بل ليُحاكمهم.

كنتُ أنا في وسطهم، لا أتحرك، لا أصرخ، لا أتدخل، فقط أراقب، فقط أتنفس ببطء، فقط أشعرُ بأني أستعيد شيئًا من نفسي، شيئًا سُرِقَ منذ قرون، منذ أول كذبةٍ شاركتها مع الجمهور، منذ أول ابتسامة مزيفة، منذ أول فلترٍ وضعتُه على جراحي.

وبينما غازولا كانت تفتح جناحيها خلفي، سوداوين كالغضب، ركبتُ على ظهرها ببطء، لا كمن يهرب، بل كمن يصعد ليشهد المذبحة من علوها العظيم.

انحنيتُ نحوها، وهمست:

- حلقي... حلقي ببطء... لا أريد أن أفوت مشهدًا واحدًا من هذا الطوفان.

علَتْ في الهواء تخفق أجنحتها كأنها تعزف لحن الختام، وكنتُ أنظر إلى الأسفل، إلى الدماء التي صارت ترسم خارطةً جديدة للعالم. كنتُ أنظر وأبتسم والريح تلفح وجهي والدماء تلمع تحت قدمي، وهناك، في هذا الارتفاع المرعب، أدركت شيئًا واحدًا:

أنا ماليكانا. أنا الملكة. أنا العرش. أنا النار التي لا تنطفئ.

ولن يخرج أحد من هنا.

ART_OF_BOOK

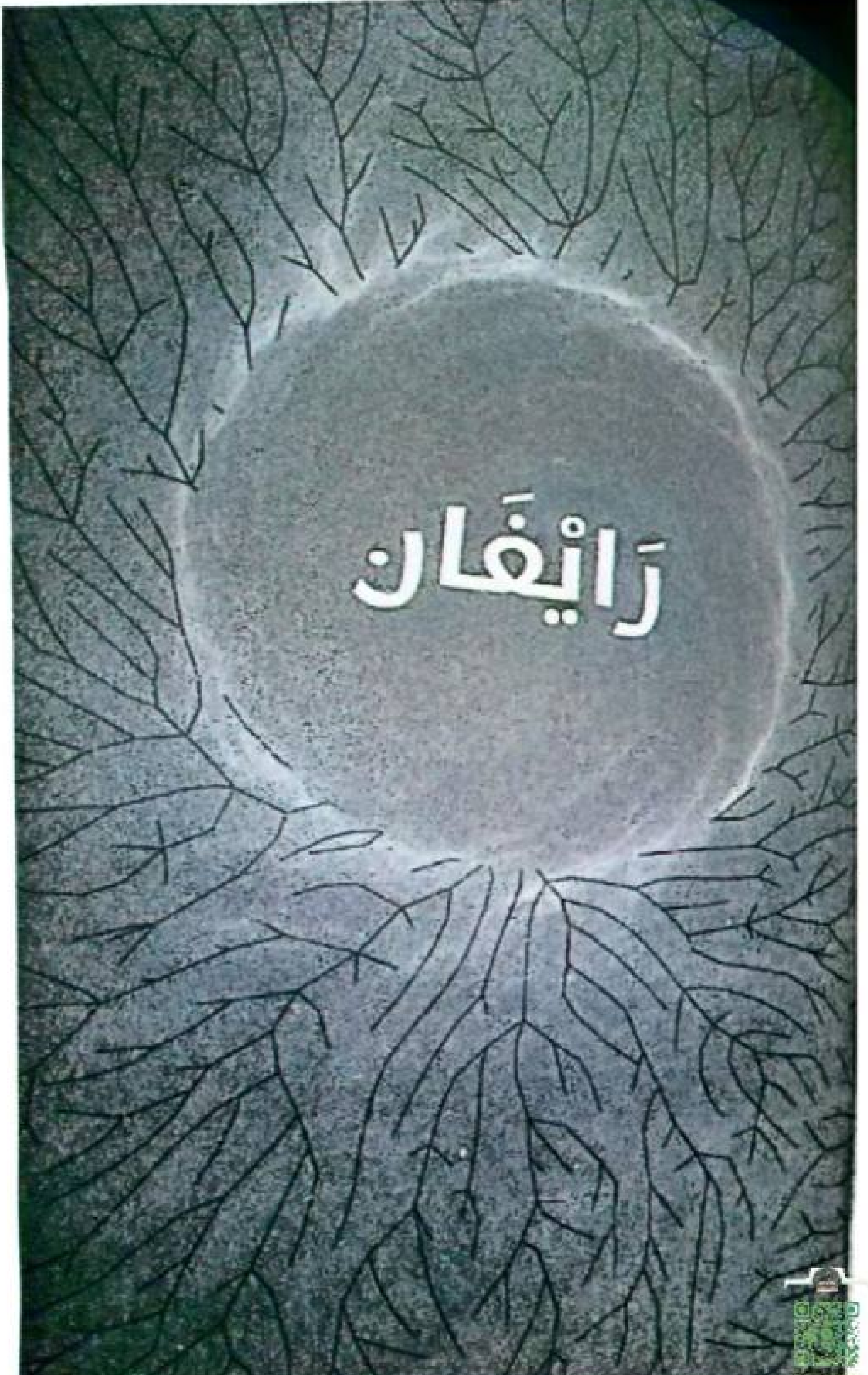

كنتُ واقفًا في قلب الفوضى، رائحةُ الدم تُغرق الهواء، صرخات الأرواح تصعد من سُوبكْتِيس مثل بخارٍ أسود، غازولا حلقت في السماء أجنحتها المفتوحة تُمزق السحب السوداء وعليها... كانت هي. مَلَيْكَا، تطل من فوق كملكة الموت، تنظر إلى ما يحدث من مذابح وتعربهو، تستمتعُ بهذا الانهيار.

كنت أنا وسط هذه الفوضى، دامون يُمزقون الجثث، هامسين يقتلعون الأعين ويهمسون بكلماتٍ شيطانية، الأرض ترتج، العظام تتكسر تحت الأقدام. ومع ذلك... لم أكن مكتفيًا. الغضب داخلي كان أكبر من ساحة القتل. كانت نارًا قديمة من نوعٍ خاص لا علاقة لها بهذه الساحة، بل بها... بِلَازَار.

رأيتها هناك واقفة تائهة وسط الحشود. اللعينة التي أصدرت أوامر الهجوم، هي التي أفسدت كل شيء، هي التي جعلت مَلَيْكَانَا تشك بي، تتركني وسط العار. تظنني مجرد جبانٍ مختبئٍ خلف جنوده بدل أن تراني كما أنا: الملك.

تحركتُ نحوها بخطى لا تُسمع لكنها أحست بي.

التفتت... ونظرت إلي!

لم يكن في عينيها أي تحد، فقط الذعر. عيونها اتسعت كأنها ترى الموت قادمًا نحوها وبدأت تُركض... تركض بخوفٍ طفولي بائس لكن قدميها الصغيرتين لا تُسعفانها جسدها المرتجف لا يُقاوم، وصلتُ إليها في لحظة. أمسكتُ بشعرها من الخلف وسحبتُها بكل ما في يدي من قوة، تجاوزت مرحلة العنف التي اعتدت عليها صرت أسوأ لم أكن أشعر بجسدي أصلًا. كنتُ فقط نارًا خالصة.

سحبتُها خلفي كما تُسحبُ الخراف إلى الذبح، جسدها يرتطمُ بالعظام بالصخور بالأشلاء تصرخُ تبكي لكنني لم أسمع، لم أرَ، كنتُ أريدُ فقط أن أصل إلى مكانٍ لا يرانا فيه أحد، إلى مكانٍ أفرغ فيه كل هذا العار. وصلتُ إلى الحائط البعيد في نهاية الممر الأسود وبدون تفكير، دفعتُها بكل ما أوتيت، ارتطم جسدها بالحائط كأنه دمية ثم سقطت على الأرض وشهقت من الألم.

قلتُ بصوتٍ قاتل:

- انهضي.

كانت ترتجف، حاولت أن تنهض، سقطت، ثم نهضت.

- إذن... هكذا تخونينني؟! هكذا تجعلينني في نظرها جبانًا؟! بعد كل هذه السنين بعد أن بنيت هيبتي وسيطرتي وسمعتي بيدي بعد أن وضعتُ كل خطوةٍ لتسقط هي كما يجب... تأتين أنتِ حشرة مثلكِ لتُرسلي خمسة كلابٍ ليقتلوها وحدها وتتركيني خائنًا جبانًا! تتركيني في وجهها كأنني مجرد تافهٍ خائف؟!

كنتُ أصرخ حتى شعرتُ بدمٍ يصعد إلى حلقي وصرختُ أكثر. صفعتها صفعةً لو اصطدمت بحائطٍ لتهدم. سقطت على ركبتها ثم وقفت من جديد... شهقت، لكنها لم تجرؤ على الرد.

- أنا من يقرر! أنا من يُخطط! أنا من يُعطي الأوامر! لا أحد يتصرف من تلقاء نفسه. أنتِ لستِ شيئًا أنتِ لستِ حتى ظلا أنتِ مجرد أداة. أتفهمين؟ مجرد دمية! هل تظنينني سأقبل أن تجعليني أبدو ضعيفًا أمامها؟!

ضربتُ الحائط بجانبي بكفي. انفجر الطوب وتطايرت شظاياه. ارتجفت، رفعت يديها على رأسها. كانت تبكي، تبكي كأنها طفلة. لكنني

لم أكن أرى أمامي إلا كائنًا دمر خطتي، جردني من هيبتي، أمسكتُ فكها السفلي بيدي، ضغطت عليه بقوة حتى شعرتُ بالعظام تتصدع تحت أصابعي... وجهها انتفض من الألم لكنها تمتمت:

- أرجوك... استمع إلي... أنا... أنا فعلتُ هذا فقط لأني... لأني أحبك... أحبك منذ قرون... وأنت لا تراني... لم تراني يومًا. وعندما رأيت كيف نظرتَ إليها، كيف نظرتَ إلى مَلَيْكَاتَا، شعرتُ أن كل شيء سينهار... أردتُ فقط أن ألفت نظرك... أردتُ فقط أن أكون جديرةً بأن تلتفت إلي... أردتُ فقط... أردتُ فقط أن تكون لي كما أنت لها.

سكت.

كانت كل كلمة تقولها كخنجر في أذني!

تراجعتُ عنها خطوة، وضعتُ يدي على رأسي، أغلقتُ عيني بقوة حاولتُ أن أخرج الصوت من داخلي، الصراخ، الجنون، الذل، كنتُ أريدُ أن أقتلها أن أمزقها بأسناني أن أحفر وجهها بأظافري أن أنتزع منها قلبها وأجعله يصرخ كما صرختُ أنا في داخلي حين ظننت تلك المرأة أنني أرسلتُ جنودًا لقتلها كأي جبان!

ثم استدرتُ ونظرتُ إلى لَازَار وقلتُ بوحشية تخرج من أعماق الجحيم:

- على ركبتيكِ!

قالت وهي ترتجف:

- رَايْفَان... أرجوك...

صرختُ من جديد:

- لَازَار! على، ركبتيكِ. الآن!

سقطت. جثت، وضعت يديها على فخذيها، رأسها منكس مدركة أنها

عبثت مع الشخص الخطأ.

اقتربتُ منها، أمسكتُ ذقنها بقسوة ورفعتُ وجهها إلي:

- أنا لا أسامح على العصيان. قلتُ لكِ فقط أن تزرعي الشك أن تجعلي الجيش يتردد أن تُمزقي الثقة حولها أن تفسدي سمعتها... لا أن تلمسيها. أنا من يُقرر متى تسقط. أنا فقط! لكنكِ... أنتِ جعلتِها تظنني خائفًا منها خائنًا مختبئًا. وأنا لا أختبئ لا أمامها ولا أمام أحد!

كنتُ أخرج السكين من جانبي وبداخلي قرارٌ قد أُخذ.

وضعتُ السكين على عنقها وكنتُ على وشك أن أقطع أوتارها، لكن فجأة... شيءٌ ضربني من الخلف بقوة. أسقطني للحظة إلى الأمام.

التفت، كان هو. صديقي المقرب: زفراهن.

ذراعه ممدودة، أنفاسه ثقيلة وعيناه تمتلئان برجاءٍ لا أفهمه.

- لا، رَايْفَان... لا تفعل هذا...

صرختُ:

- ابتعد! لا تتدخل! هذا الأمر لا يعنيك!

- بل يعني، إذا كنتَ ما زلتَ تعتبرني صديقًا، لا تقتلها!

اقتربتُ منه، أمسكتُه من صدره، دفعتُه إلى الحائط ثم بدأتُ أضربه. لكمة تلو الأخرى على وجهه على فمه على عينه حتى غطى الدم ملامحه حتى شعرتُ بعظامه تئن تحت قبضتي.

لزار صرخت، زحفت نحونا، بكت، توسلت:

- توقف! أرجوك! لا تقتله! سأعطيك ما تُريد! أعرف نقطة ضعفها! أعرف كيف تسقط!

توقفتُ.

رفعتُ عيني نحوها، عيني تحترقان.

- ماذا قلتِ؟

- لديها غرفةٌ سرية... غرفةٌ لا تفتحها لأحد... لا تقترب منها أي روح... أظن... أظن أنها نقطة ضعفها... إنها تحرسها كجزء من قلبها!

أمسكتُها من شعرها، شددتُ رأسها للوراء، ووضعتُ السكين على حلقها.

- إن كنتِ تكذبين... أقسم بكل العذاب في هذا المكان أني لن أقتلك فقط، بل سأجعلكِ تأكلين لحمكِ ثم أتركِكِ حيةً لتتمني الموت كل لحظة وأحرمك منه.

قالت بصوتٍ مبحوحٍ مخنوق:

- لا أكذب... رأيتها بنفسي... خلف الستار الأسود... هناك غرفة... لم يدخلها أحد... لم تسمح لأحد بالاقتراب.

- أنتِ تكذبين. فتشتُ غرفتها، كل زاوية فيها، لا يوجد مكان كهذا!

- لم تبحث في المكان الصحيح، الغرفة ليست ظاهرة، إنها خلف الستار الأسود...

وقفتُ وحدقتُ إليها لحظة. كنتُ على وشك أن أذبحها على أي حال لكنه... كان ما زال هناك. صديقي، ممددٌ على الأرض، وجهه غارقٌ في الدماء بالكاد يفتح عينيه ثم قال بصوتٍ مكسور:

- إذا بقي في قلبك ذرة من صداقتنا... أرجوك... لا تقتلها.

نظرت إليه ببرود:

- هل نسيت أني بلا قلب؟

ثم بصمتٍ تام، غرستُ السكين مكان عينها اليمنى وسحبت السكين بيمل إلى أسفل خدها وقلت:

- هذا إكراما لك فقط.

صرخةٌ مدويةٌ ملأت المكان، اختلط فيها الألم بالحقد، بالخذلان، بالبكاء.

تابعت وأنا أسحب السكين:

- لا تقلقي، لن أفقدك عينك الأخرى حتى يتسنى لك مراقبة ما سأفعله.

تركتُها تنزف دون قتلها.

تركتُه يزحف نحوها.

تركتُ خلفي كل شيء.

وغادرت.

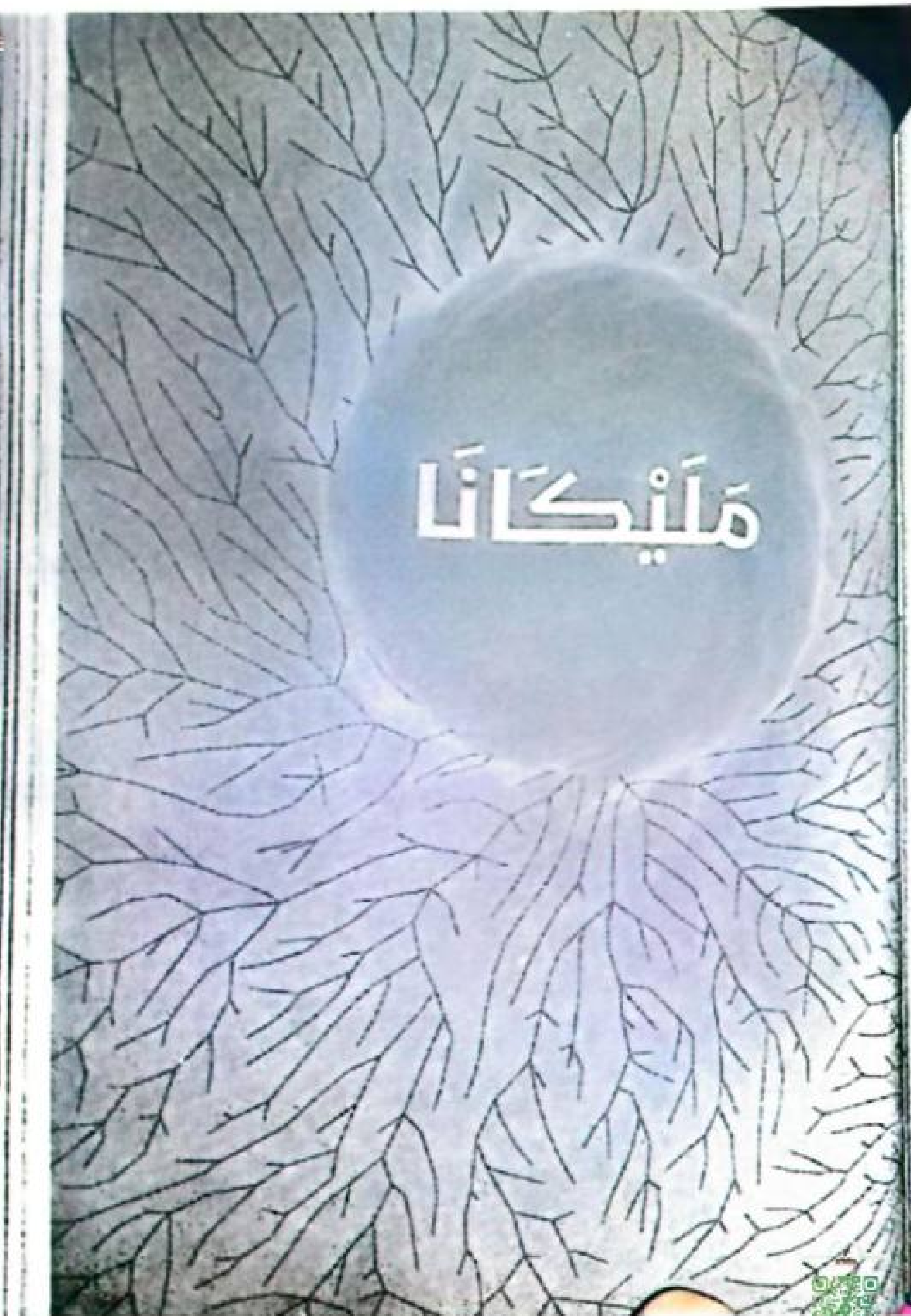
مَلَيْكَانَا

كانت غازُولا تهبط بي ببطءٍ شديد، جناحاها يقطران دمًا لم يبرد بعد والهواء مثقلٌ برائحة من لقوا حتفهم منذ لحظات: أولئك الذين انفجرت أعينهم واختفوا ولم يبقى من أجسادهم سوى ذاكرة النبع وصدى الصوت.

هبطنا فوق الهضبة الموحلة حيث تراص الكُوْسِيُون الباقون بلا جلد بلا ملجأ بلا لغة. لم يكن لأحد منهم خيمة ولا جدار ولا حتى اسم يخصه. أجسادهم ما زالت مطبوعة بالخضوع، عيونهم متيبسة لا تبحث عن مخرج، بل عن مبرر للبقاء وركبهم تهتز بثقلٍ لا يُنسب فقط للتعب، بل للذنب الذي لم يُقل.

نزلتُ عن ظهرها دون أن أنطق وسِرتُ وسطهم وحدي.

كانوا ينظرون إلي بطريقةٍ جديدة؛ لا خوف ولا عبادة، بل شيءٌ أقرب إلى التساؤل... شيءٌ ما كان يسألني بصمت: هل بدأتِ تضعفين؟ هل انحرفتِ عن الهدف؟ رأيتُ بأم عيني أحدهم يتردد قبل أن ينحني.

شعرتُ بشيءٍ يتصاعد داخلي فأشرتُ للهامِسَة التي كانت تسير بصمتٍ بجانبي:

- اذهبي، نادي لَازَار... الآن.

ثم وقفتُ هناك وسط الطين أنظر في صمتٍ إلى كل من جردتُه من كل شيء ورأيتُ أجسادهم التي كانت ترتجف لي، تقف الآن والشك ينتابها وسمعتُ داخلي يصرخ: «رأيتُهم يخطئون... رأيتُهم يترددون... وأنا؟ أنا من جعلتُ الأرض ترتجف من صراخهم... فهل أرتجف الآن؟».

سِرتُ وحدي نحو الممر الحجري المؤدي إلى القصر. كنتُ أسمع صوت قلبي مع كل خطوة وكل نبضةٍ تعيد لي الفكرة نفسها: «إن كنتُ رحيمةً سيظنونني ضعيفة. وإن كنتُ أكثر قسوة سأشبه زَايْفَان. لكن...

لن لا أريد أن أشبهه. لا أريد أن أحكم كما يحكم هو: بالصراخ والدم. أريدهم أن يخافوا... نعم. لكن أن يحبوا أيضًا. أن يروني كما كنتُ قبل أن أتوج، حين سقطتُ وقررت أن أجعل من سقوطي عرشا يليق بي!»

توقفتُ عند باب القاعة الشرقية، تلك القاعة المهجورة التي لم تُفتح منذ قرون. لم تكن قاعة حرب ولا ساحة اختبار، بل مسرحًا بلا جماهير بلا عرض. دفعتُ الباب ببطء ودخلت.

الظلام استقبلني كما لو كنتُ عائدةً إلى رحمٍ قديم. كان الهواء يشبه الموشحات التي لم تُغنَ، الأرض سوداء ناعمة كأنها لا تعرف الألم بعد. سرتُ حتى منتصف القاعة وقلت:

- سأقيم حفلًا.

وقفتُ هناك عاريةً من الصوت من التاج من الأوامر من كل الكائنات. لا شيء في هذا المكان سوى نيتي وقراري وصوت داخلي يقول لي: «سأقيم حفلًا فوق الجثث... لا بل فوق الجريمة نفسها. سأجعلهم يرقصون لا لأنهم فازوا بل لأنهم فشلوا بطريقةٍ تستحق أن تُرى. درت حول نفسي راقصة مغمضة عيناي متخيلة مشهد الحفل، سأجعلهم يُغنون الألم ويضعونه كقناع. سأجعلهم يُزينون وحشهم ويقدمونه لي على المسرح».

ابتسمتُ وقلتُ همسًا:

-كلهم سقطوا، لكني سأجعل من سقوطهم سمفونية لا تُعزَف بالأوتار، بل بالندم، لا تُكتَب بالحبر، بل بما لم يُقَل. وسيفهمون... سيفهمون أنني لم أتوج لأنني كنتُ أقسى ولا لأنني لم أكسر، بل لأنني استطعتُ أن أخرج من الوحشية فنًا ومن القبح قصيدة ومن الجمال سحرًا لا يحتمله العاديون.

أشرتُ نحو أحد الدَّامُون الواقفين بجانب الباب دون أن ألتفت نحو وقلت:

- اجمع لي كل الكوَسِيين في هذا العالم. أريدهم هنا، الآن.

انطلق دون أن ينطق وبقيتُ وحدي وسط القاعة أتنفس بصمتٍ يشبه خشوع الصلاة والجدران من حولي تهمس لي بدماءٍ قديمة لا تزال عالقة فيها. بدأوا يدخلون... واحدًا تلو الآخر... كانوا يسيرون بخطى ثقيلة رؤوسهم منكسة، أجسادهم متهالكة والذنب يثقل عظامهم. لم يعرفوا لماذا طُلِب منهم الحضور.

وقفتُ هناك وظلالهم تلتف حولي، عيونهم تراقبني تنتظر كلمةً واحدة تغير مجرى هذا الجحيم. رفعتُ رأسي وصوتي لم يكن صراخًا، بل ارتجافةٌ عميقة خرجت من صدري محفورة في جوفي منذ ألف عام:

-سُكان كوَسانوكتِيس، أنتم هنا لأنكم لم تموتوا بعد، لأنكم لم تعترفوا بخطاياكم، ولأن أحدًا لم يجرؤ على سماعكم، فصرختم في الداخل حتى تمزق الصوت فيكم، واليوم... سأقيم حفلًا!

تقدمتُ خطوةً واحدة وأكملتُ حديثي بكل ثقة:

- هذا الحفل ليس مكافأة ولا عفوًا، بل رقصةٌ أخيرة على الحافة. رقصةٌ لا يَدخلها إلا من تجرأ على أن يُغني سقوطه!

سكت، ثم تابعت، صوتي صار أبطأ، لكنه أثقل:

- أنتم لستم أحياء ولا أموات، أنتم مجرد صدى لأصواتٍ خُنِقت، لجُملٍ لم تُكتَب، لآهاتٍ لم تجد من يسمعها. وأنا... لا أطلب منكم أن تعتذروا، بل أن تُغنوا خطاياكم!

نظرتُ إلى الجدران السوداء، إلى السقف العالي ثم عدتُ أنظر إليهم:

القاعدة بسيطة: كل من أراد أن يُشارك فليعترف. اعترفوا أمام الجميع بلا اسم، بلا وجه، بلا عذر، بل بالفن! واعرضوا جرحكم لا كما هو، بل كما أردتم أن يُرى: أغنية، صورة، رقصة، تمثال، نصًا مكتوبًا باللحم أو صوتًا يُنزف.

وصمت،

انتظرتُ،

انتظرتُ كثيرًا...

ثم... تردد أولهم.

كان جسده مُشوهًا، صدره مفتوح دون جلد، يده اليسرى مقطوعة من الكتف ووجهه يحمل حفرة مكان عينه اليسرى. مشى نحوي وهو يجر قدمًا لا تحمل سوى نصفها وركبته تصدر صوتًا غريبًا مع كل خطوة. سألته:

- ما الذي فعلتَه؟

أجاب بصوتٍ أجش يتأرجح بين الاعتراف والاختناق:

- قتلتُ أخي. كان أغنى مني وأكثر حبًا وأكثر ضحكًا وكان الناس يلتفون حوله دائمًا فاختنقت وذات ليلة، خنقته.

نظرتُ إليه طويلًا، ثم قلتُ:

- وماذا كنتَ تحب؟

همس دون أن يرفع رأسه:

- كنتُ أغني وحدي في الحمام أو بين الجدران القديمة... كنتُ أغني لأنسى...

أومأت ثم قلتُ:

- في الحفل... ستُغني له.

ارتجف.

- لكنها ستكون أغنية حزينة...

قلتُ:

- الجمال لا يخشى الحزن. فلتُغن له... ولتبكِ إن أردتَ، فبكاؤك هو اللحن الذي لم يصل إليه حيًا.

ثم تقدمت الثانية.

كانت امرأة، نصف وجهها مشقوق، ذراعها اليمنى مربوطة بحبل وركبتها مليئة بالخيوط التي تخيط اللحم بالجلد.

سألتُها:

- ما جريمتكِ؟

قالت بصوتٍ منكسر:

- قتلت زوجي... كان يخونني مع كل من يراها وفي ليلةٍ من الليالي خيطتُ له فمَه، ثم صدره، ثم قلبه... بالإبرة التي كنتُ أخيط بها ثيابنا.

- وماذا كنتِ تحبين أن تفعلي؟

- الخياطة... سيدتي.

ابتسمتُ قليلًا على غرابة الموقف وقلت:

- ستخيطين للحفل لكن لا الستائر... بل ما لم تقولي له. كل ما رغبتِ في صراخه... اطرزيه على أطراف القماش. اجعلي الطاولة تروي حكايتك من دون أن تنطقي.

ثم جاء الثالث.

رجلٌ ضخم، أحد أضلعه بارز، عيناه غارقتان في السواد، يحمل ذراعًا صغيرة مربوطة إلى خصره كأنها تذكيرٌ دائم.

سألته:

- ماذا فعلت؟

قال دون تردد:

- ابني. لم أقتله لأنه أخطأ، بل لأنتقم من أمه. تركتني وأخذته معها فانتزعتُه منها... كما انتزعتني مني.

- وماذا كنتَ تحب؟

- الكمان. كنتُ أعزف حين تكون نائمة أو حين كانت تبكي. نظرتُ إلى عينه ثم قلت:

- في الحفل، ستعزف. لا لتهرب... بل لتسمع. ستحول دموعها إلى وتر وصوتك إلى عزاء.

الرابعة... امرأة عجوز.

كانت مغطاة بالضمادات، جلدها مشدود بطريقةٍ غير طبيعية، عظام وجهها تبرق تحت الجلد، أنفها ة مكسورٌ من الداخل. أصابعها ملتصقة ببعضها وشفاهها لا تتحرك إلا بتشنج.

سألتُها:

- من قتلكِ؟

أجابت بهدوء:

- أنا. أردتُ أن أكون أجمل فخضعتُ لعمليات لا تُعد وحين انتهى وجهي بدأتُ أعدل جسدي. لم أوقف الجراحين حتى توقف قلبي.

- وماذا كنتِ تحبين؟

أجابت بحزن عظيم:

- الرسم. نعم، كنت أعشق الرسم...

- في الحفل، سترسمين كل من في القاعة. لا كما هم، بل كما كنتِ تحلمين أن يكونوا. اجعليهم جميلين كما كنتِ تريدين أن تكوني أنتِ.

ثم بدأت الأرجل تقترب والقلوب تُفتح والأصوات تنهض من الرماد كل كوسي أراد أن يُشارك أن يعترف أن يرقص على جريمته ويغني سقوطه أن يصنع من عاره عرضًا ومن ألمه قصيدة.

لم أرفض أحدًا.

قبلتُ كلهم في الحفل... إما ضيوفًا أو فنانين.

وفيما كانت الأجساد تتحرك من حولي والكوْسيُون ينتشرون في الأرجاء كمن وجد أخيرًا طريقة ليفتح صدره دون أن يُذل، ليصرخ دون أن يُسحَق، ليحمل ألمه في راحته ويلونه بدلًا من أن يختبئ خلفه كنتُ أراقبهم بصمت.

نعم، في أعماق كل منا جزءٌ مريض، جزءٌ مُشين نخفيه عن العالم لأنه لا يُحتَمل، لا يُرحب به، لا يُسامَح عليه.

وفي لحظة، شعرتُ بيدٍ تُلامس ظهري. التفت بسرعة وكانت هي- لازار.

وجهها مغطى بالدم، واقفة أمامي بوجهٍ لا يشبهها، وجهٍ لم يبقَ به ملامح، بل جُرحٌ واسع يأكل نصفه.

اتسعت عيناي، خطوت نحوها وقلبي نبض بقوة من هول مظهرها:

- لازار؟ ما الذي حدث؟ هل أنتِ بخير؟ ما هذا كله؟

أجابت بصوتٍ واهن، تتلعثم الحروف في حلقها:

- يعني متابعات تلك المؤثرة جرحتني. كان الأمر فوضويًا جدًا لكن لا تقلقي، أنا بخير.

تمعنتُ منها أكثر، وضعتُ يدي على كتفها وحدقتُ إليها:

- لا، أنتِ لستِ بخير يا لازار! يجب أن تتعالجي فورًا.

- لا، لا، لا تقلقي... أنا بخير، حقًا يا مَلَيكانا. فقط أخبريني، ما كل هذا؟ لمَ كل هذه الضجة؟ ماذا يجري هنا؟

نظرتُ حولي ثم عدتُ إليها:

- أنا أعد لحفل. أريد أن أجمل الوحش أن أخرج الجمال من الدم وأن أعطي أصواتًا لهؤلاء الذين لم يُسمَعوا قط. أريدهم أن يُغنوا وجعهم.

- لكنهم لا يستحقون، لقد فشلوا في الاختبارَين، أتذكرين؟

- نعم... أتذكر تمامًا.

ثم نظرتُ نحو الحشود وقلت:

- لا أُريد أن أكون لا قاسية ولا ضعيفة... أُريد أن أكون ملكة تليق بيهم.

وفجأة... أحسستُ بألمٍ حاد في صدري، وضعتُ يدي على قلبي وانحنيتُ، شهقتُ شهقةً مؤلمة وصرخت. اقتربتْ لازار مذعورة تمسك بي.

وفي تلك اللحظة، دخلت إحدى الهامِسَات وهي تصرخ:

- مليكانا! روحٌ جديدة دخلت كُوْسَانُوكْتِيس!

استدرتُ ببطء، لازار تُحدق إليها بدهشة وقلت:

- روح؟ الآن؟ لم تمر سوى دقائق على انتهاء الاختبار السابق... ماذا يجري بحق الجحيم؟

قالت الهامِسَة:

- لكن هذه مختلفة...

- مختلفة؟ كيف؟

- دخلت من تلقاء نفسها.

- لكن متابعي تلك الغبية أيضًا دخلوا من تلقاء أنفسهم!

- لا... هؤلاء كانوا مسيرين، مسحورين، تابعوها دون وعي. أمامي جسده مغطى بالعروق السوداء من رأسه حتى قدمَيه، يقال إ مجرم فظيع ومع هذا... دخل باختياره، بخطاه وحده، وقال لنا:

- لا أعرف ما هذا الجحيم ولا ما هذا المكان... لكن ما أعرفه هو شيءٌ واحد: لن أخرج من هنا كما دخلت!

ارتجف جسدي كله...

دخل بنفسه ويريد أن يخرج!

شعرتُ وكأن العرش يهتز تحت قدمي، كأن كوسانوكيس كلها خافت منه!

لأنني أعلم، والجميع يعلم...

إذا خرجت روحٌ واحدة من هذا المكان فإني أخسر كل شيء.

التفت نحو لازّار، نظرتُ في عينها الوحيدة وقلتُ:

- ابقي هنا. أشرفي على تنظيم الحفل، رتبي كل شيء مع الكوسيون.

ثم استدرتُ وقلتُ للهامِسَة:

- لنتعرف على صديقنا المجنون.

***

سرتُ وحدي نحو الممر المؤدي إلى الساحة أختنق من الداخل رغم الهواء، أستشيط رغم سكون كل شيء، لم أكن غاضبة، بل منزعجة على نحو لا أستطيع تسميته فقد كنتُ أحاول أن أعيد بناء نفسي أن أستعيد زمامي أن أنظم حقلي أن أعيد كل شيء تحت قدمي، فإذا بي أستدعى لأن روحًا جديدة دخلت... لا، والأدهى ليست كأي روح، مختلفة مرعبة دخلت وحدها وأنا بالكاد أمسكتُ نفسي من الانهيار.

تقدمتُ وكل خطوةٍ تزداد ثقلًا وفي الزاوية الأخرى لمحته... رَايْفَان، كان يقترب بدوره. نظرتُ إليه فنظر إلي وكان نظره لا يشبه أي شيء لا يشبه العداء وحده، بل يشبه اللعنة التي لا تستطيع الخلاص منها، عينيه كانتا تحترقان نحوي وأعلم أن عيني كانت تتوهج نحوه، بيننا لهبًا لا يراه أحد سوانا.

لكن قبل أن أنطق، قبل أن أكمل، حدث شيء غريب!

الخطوات...صوت خطواتٍ واحدة... ثابتة...

ولأول مرة منذ آلاف السنين، ساحة سُويكُوتيس صمتت!

الهامِسُون توقفوا... النّامُون تجَمّدوا...

صوت الخطوات وحده...

يتردد، يرتفع، يزحف نحونا...

بلا بكاء...

بلا عويل...

بلا ألم...

التفت، رفعتُ عيني ببطء وشيئًا فشيئًا... رأيتُه.

امسح لتسمع (اختياري)

كان رجلًا، نعم، لكنه لم يكن كالبقية لم يُسحب من عروقه لم يُجَر من كاحليه لم يُدفع مثل حثالة البشر... بل دخل وحده بكامل جسده بكامل إرادته، العروق السوداء تغطيه من رأسه حتى قدميه ومع ذلك... لم يُكمل العتبة الأخيرة لم يسقط لم يضطرب، بل دخل كما يدخل الملوك أرضًا لا تخصهم بعد.

كان طويلًا ببدلة سوداء قميص أسود شعره قصير عيونه حالكة لحية ناعمة وجهه متماسك كأنه نُحت من حجر، وكان جسده مشدودًا تحت القماش عضلاته تتحرك كلما خطا خطوةً ثابتةً لا تخطئ، مشى كما لو أنه من صنع هذا العالم كما لو أننا نحن الطارئون، لا هو.

وقف أمامي...

نظر في عيني، لكن دون انفعال دون كلمة دون رمش، فقط... نظرةٌ ثابتةٌ كأنها تقول: أنا هنا!

ولأول مرة، أنا ترددت وقدمي تجمدتا. كأنه يشبه رَايْفَان... لكن هممم، لا أدري، مختلف!

أشرتُ للهامِسَة الواقفة بجانبي وقلتُ:

- ما جريمته؟

لكن قبل أن تنطق، سمعتُ صوت نسيج يُنتزَع، التفت نحوه، كان يخلع سترته بهدوء قاتل يرميها على الأرض دون أن ينظر إلي ثم بدأ يرفع أكمامه ببطء وذراعيه المتوترتين تفضحان حجم القوة النائمة في ثم قال دون أن ينظر إلي:

- نُوفَار.

تجمدتُ لحظة ثم قلتُ له:

- ماذا؟

قال وهو لا يزال منشغلًا بأكمامه:

- الشخص الذي تتحدثين عنه... اسمه نُوفَار.

رفعتُ رأسي بحدة، قلتُ:

- في هذا العالم، الأرواح التي تدخل لا أسماء لها.

انتهى من رفع الأكمام ثم رفع رأسه وخطا خطوةً نحوي، وهنا تقدم رَايْفَان بهدوء وهيبة قاتلة. الهواء ارتجف، العينان اصطدمتا، لم يتكلما لكن كل ما بينهما كان مشحونًا.

أعاد نُوفَار نظره إلي وقال ببرود تام:

- أما أنا... فلدي اسم، وهو نُوفَار. وستتذكرينه يا ملكتي الجميلة، أعدك بذلك.

هنا، صوت رَايْفَان انفجر كالقصف:

- أجب على السؤال! توقف عن هذه المهزلة، لماذا دخلتَ هذا العالم؟

نُوفَار التفت إليه، ثم إلي، ثم عاد إليه وقال:

- إنه بلا تاج... لكنك تبدو مهما، هممم، من تكون؟

قال رَيْفَان:

- هذا غير مهم، أجب!

أخرج نُوفَار سكينًا صغيرة من جيبه، أدارها بأصابعه ثم قال:

- حسنًا، حسنًا، دخلتُ هذا العالم لأن هذه العروق السوداء تُزعجني، كما قلت أحدًا ظهرت وأنا أقتل كثيرًا، لكن هذه العروق تُبطئني وأنا لا أحب أن أبطأ.

رفعتُ حاجبي

قلتُ بسخرية:

- إذًا دخلت لأنك تريد أن تقتل أكثر؟

رد بنظرة جامدة:

- نعم، تمامًا. لا يهمني من أقتل ولا ماذا يحدث هنا ولا أنتم، كل ما أريده هو أن أخرج بعددٍ أقل من العروق، فقط.

قال رَايْفَان بسخرية:

- وما الذي يجعلك تظن أنك ستخرج؟

اقترب نُوفَار قليلًا ثم ابتسم وقال:

- لأنني نُوفَار، حتى لو لم ترغب ملكتكم الجميلة في نطق اسمي.

ثم تابع:

- لدي الكثير من الأمور، فلنبدأ من فضلكم.

نظرتُ إليه نظرةً قاتلة:

- قاتل مأجور؟

ضحكته دوت في سُوبكْتِيس، ضحكته جعلتني... أرتجف.

قال:

- لو أخبرتكِ ما أفعله في العالم الخارجي، ربما انهار قلبك الصغير يا ملكتي الجميلة.

أخذتُ نفسًا طويلًا ثم رفعتُ رأسي وقلتُ:

- سيبدأ الاختبار، لكن هذه المرة سيكون مزدوجًا جسدي ونفسي في آن واحد. نحن من سيتناوب عليك.

رفعتُ يدي نحو السماء ولم أكن أحتاج إلى كلمة. فقط هذه الحركة كافية ليبدأ كل شيء. ابيضت عيناي وتحولت عينا نُوفار في اللحظة نفسها. لم يقاوم. لم يتحرك. بقي واقفًا. ذراعيه خلف ظهره كأنه ينتظر ما سيفعله هذا العالم به دون خوف ولا تردد.

ثانية واحدة فقط... ثم انفجرت الصرخات.

طفل.

طفل واحد في نافذة منزل يشتعل. النيران تأكل أطرافه. وجهه يذوب ببطء. الجلد يتشقق. يسيل من عينيه ولثته وأنفه وهو يصرخ بصوت لا يحتمل. كانت النيران تحاصر الغرفة. لم تصل بعد إلى باقي المنزل وكان نُوفار يقف في الخارج. يراقب.

دخل دون أن يركض. صعد الدرجات واحدةً تلو الأخرى ثم فتح الباب وواجه الطفل. لم يكن هناك فزعٌ في عينيه. فقط ذلك الهدوء البارد.

كان الطفل يصرخ طالبًا النجدة:

- أرجوك. ساعدني. أنقذني!!!

نظر نُوفَار إلى الجدران المشتعلة، إلى السرير الذي بدأ ينهار تحت اللهب، ثم إلى الطفل. قال بهدوء:

- أعلم أنك تتألم، ولكن إن اقتربتُ سأحترق أنا أيضًا.

الطفل يبكي، يمد يده، الجسد ينهار، النار وصلت إلى شعره لكن نُوفَار لم يتحرك. فقط يأخذ كرسيًا ويكسر به النافذة ويقول:

- اقفز من هنا.

الطفل يصرخ:

- إن قفزت، أموت. أنا صغير جدًا. سأسقط وأموت! لا تحتاج أن تُنقذني كليًا. فقط اسحبني... فقط أخرجني من هنا. يدك قد تحترق قليلًا، هذا كل شيء. أنت قوي، ستتحمل!

رد نُوفَار بصوتٍ جامد:

- لا أريد أن أتحمل شيئًا. حتى القليل من الألم لا أريده. اخترتُ نفسي، وإن مت أنت... فهذا قدرك، لا شأني لي به. إن امتدت يدي نحوك ستحترق وسأتأخر أيامًا عن هدفي وأنا لا أريد التأخير.

صرخ الطفل، وعيناه تتوسلان الحياة:

- لكنني أموت! هل تُقارن يدًا تحترق بجسدٍ يحترق حيا؟!

لم يُجب نُوفَار. فقط ثبت عينيه عليه، نظرةً صامتة لا تحمل قسوة... بل شيئًا أعمق منها: اللامبالاة.

احترق الطفل حيا. عظامه تشققت، وجهه انهار ولم يتحرك نُوفَار خطوة واحدة. بقي واقفًا يشاهد حتى اختفى الصوت.

فجأة، يدٌ سحبت نُوفَار من الغرفة المحترقة بأمرٍ من رَايْفَان. جنود من القانون جروه إلى قبوٍ مظلم، الجدران تقطر من العفن، الرطوبة في الهواء تكاد تُخنق، والظلمة فيها شيء من الحقد القديم.

أجلسوه على كرسي من حديد، قيدوه من الذراعين والقدمين، شدوا رأسه للخلف ولم يتكلم.

أمامه امرأة عجوز مشوهة، كانت تبكي، وجهها مغطى بالجروح، وعيناها بالكاد تفتحان.

قالت له بصوتٍ مرتجف:

- أنقذني، يا ابني... أنا أمك!

لم يتحرك، فقط نظر إليها طويلًا بصمتٍ غريب، لا يراها، بل يدرسها، كان وجهه ثابتًا لكن عينيه تتحركان ببطء بين الزوايا، الجدران، الأنفاس، الأرض، الباب، السقف... شيء فيه يفتش عن صدعٍ في الصورة، عن كذبةٍ في المشهد، عن شيء لا ينسجم.

اقترب رايْفان منه محلرقة في يدٍ وسلسلة طويلة من المسامير في اليد الأخرى، ثم قال بصوتٍ منخفض:

- أمامك خياران: إما أن أغرس هذه المسامير في رأسها أو في رأسك، اختر.

صمت طويلًا....

ثم رفع نُوفار نظره ببطء كأنه خرج للتو من أعماق عقله.

قال:

- لا، هذا ليس حقيقيًا، هذه ليست أمي، هذه الغرفة ليست غرفة حقيقية، هذه التفاصيل لا معنى لها، هذا وهم!

رايْفان التفت نحوي، نظراته ليست فقط مصدومة، بل فيها شيء من الفزع! لكنني كنتُ أنا أيضًا مذهولة، لم يحدث من قبل أن كشف أحدهم الاختبار بهذا الوضوح، بهذه السرعة، بهذه البرودة.

رايْفان ابتسم ابتسامة قصيرة لا تمت للفرح بصلة ثم قال:

- جيد، إذًا أنت تدرك أنها وهم. لكن السؤال ما يزال قائمًا: في مَنْ سأغرس هذه المسامير؟ فيك؟ أم فيها؟

نُوفَار نظر إلى الأرض، ثم إلى إليها ثم إلى رَايْفَان وقال بصوت هادئ كأنه يطلب نوع قهوة من نادل:

- فيها.

قال رَايْفَان:

- أنت تفضل أن تراها تتعذب؟

رد نُوفَار مباشرة:

- نعم، هي ليست أمي، لا أريد صداعًا ولا ازعاجًا في رأسي. أحتاج رأسي نقيًا واضحًا حادًا. هناك أشياء أهم!

اقترب رَايْفَان من العجوز ثم قال:

- إذا ندمت... لن أتوقف.

قال نُوفَار دون أن يرمش:

- لن أندم.

غرَسَ رَايْفَان المسمار الأول.

المرأة صرخت، ثم المسمار الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع.

الدم سال من عينيها، من أذنيها، من أنفها، والدماغ بدأ يظهر من التشققات. نُوفَار لم يصرخ لم يغضب لم يرتعب. هو لم ينكر الألم لم يجادله لم يستهزئ به لكنه فقط... لم يبالِ.

رفعتْ يدي ببطء، توقف كل شيء، توقف الألم توقف الدم توقف العجوز اختفت الغرفة اختفت الأم اختفى الطفل اختفى كل شيء كأن

سُوبِنكُتِيس نفسها ابتلعته واختنق به، ثم بصمتٍ خانق بقي نُوفَار جاثيًا وسط الدائرة مغمورًا بالدم ينبض في جسده.

نظرتُ إليه وأنا لا أستطيع البوح لا أستطيع الحركة، حلقي كُتم وقلبي تجرد من الإيقاع وراحت يداي ترتجفان على غير عادتهما، أما زَايْفَار فكان إلى جواري مثل عمودٍ متجمد، لا يتكلم لا يصرخ، لكنني رأيتُ في عينيه تلك الهزيمة التي لا تظهر إلا على الرجال الذين اعتادوا النصر.

قلتُ بصوتٍ منخفض حازم لا يخاطبه وحده، بل يخاطب الجميع:

- لم تفشل ولم تنجح. رأيتَ الألم، فهمتَه، اعترفتَ به ثم انسحبت في وجه احتراق الطفل، قلتَ: لا أقدر. وفي وجه استغاثة المرأة قلتَ: لا أريد أن أتألم حتى داخل الوهم. لم تُنكر الحقيقة لكنك استخدمتها كدرعٍ لتحمي نفسك. لم تكذب لكنك لم تُنقذ. لم تحاول، لم تمد يدك حتى عندما كان ثمن المساعدة قليلًا جدًا.

ثم نظرتُ إليه مباشرة وقلتُ:

- دخلتَ هذا العالم لا لتتطهر، بل لتُزيل العروق التي تركها ضحاياك على جسدك لأنها تُعيقك عن قتل المزيد. لا ندم، لا تطهر، فقط رغبة في التحرر من الأثر، لا من الفعل.

صمت لحظة ثم قلتُ وأنا أراه لا يرمش، لا يتنفس:

- لهذا السبب بالذات خسرْتَ نصف عروقك السوداء لأنك لم تكذب لم تضحك لكنك لم تُنقذ أحدًا ولم تتطهر. ما حدث هنا لم يحدث يومًا في هذا العالم، لم يسبق لأحدٍ أن اجتاز الألم بهذا الشكل ولم يسبق لأحدٍ أن واجهه بهذا الوعي... وهذا التراجع، ولهذا، وبصفتي الملكة، أقرر أن تبقى في هذا العالم حرًا حتى نجهز أنا وسيد

المعاتبين اختبارًا آخر. عندها فقط سنرى إن كنت ستخرج أم تذوب في العتمة إلى الأبد.

نهض ببطء كأن عضلاته تشق الهواء، وضع يديه خلف ظهره واقترب مني خطوة واحدة وقال بصوته الذي لا يرتفع ولا ينخفض:

- جميل، كلماتٌ موزونة يا ملكتي، أعجبتني. لكن أتمنى فقط ألا تُطيلوا الانتظار... فأنا أكره التأجيل.

استدرتُ وأنا أشعر أن الهواء في صدري ثقيل، أن قدمي تُسحبان نحو الهاوية. نظرتُ إلى الجموع وقلتُ:

- يمكنكم أن تنصرفوا.

لم يكن هناك صراخ،

لم يكن هناك هُتاف،

لا دماء على الأرض،

لا ضحايا،

لا ندم،

لا خزي،

لا هزيمة،

ولا نصر،

كان هناك فقط... الصمت.

الصمت الثقيل الذي لا يسبق الهدوء... بل العاصفة.

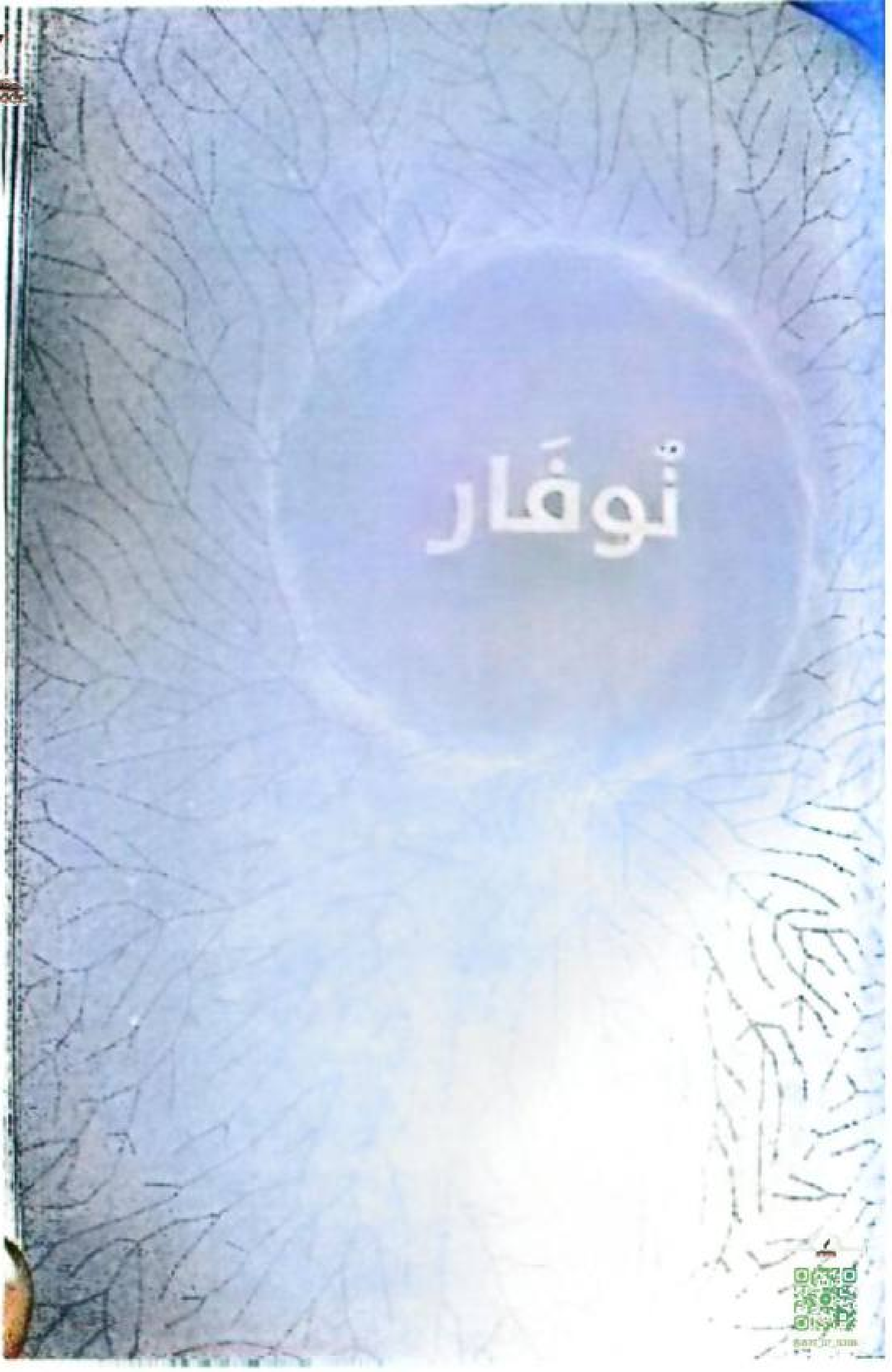
نُوفَار

ما إن أعلنتِ الملكة انتهاء الاختبار حتى انحنيتُ قليلًا لألتقط سترتي من الأرض، نفضتُ عنها الغبار، لبستُها ببطء ورفعتُ بصري نحوها كانت تبتعد بخطى باردة والجنود خلفها يسيرون مأخوذين بلعنةٍ لا فكاك منها، وربما هم كذلك حقًا. لا أحد يعرف ما يحدث فعلًا هنا. لكنني كنت أعلم شيئًا واحدًا: هذه المرأة تحكم، والجنود ينصاعون، والعرش قائم، وهذا يعني أن هناك نظامًا، وكل نظام يمكن فهمه... ويمكن كسره هاهاها. أحبُّ ألغازها...!

نظرتُ إلى القصر. قصر الملكة... ما هذا؟ كيف يمكن أن يوجد بناء بهذه الضخامة في عالم كهذا؟ لا منطق لا هندسة لا مواد واضحة فقط أعمدة سوداء تمتد نحو اللاشيء، وأسقفٌ من عظام مخلوقات لا أملك أسماءً لها.

ثم التفت إلى ذلك الرجل الذي يسمونه سيد المعاقبين. كان يبتعد بخطى أبطأ لم يتكلم لم ينظر خلفه لكنه أخذ كل الأنظار معه. شيء فيه يُجبرك على الاعتراف بقوته. مشيته ليست مشية رجل بل مشية لغم وكنتُ أفكر: رجلٌ مثله، كيف لا يكون هو الملك؟ هل سرقت منه الملكة عرشه؟ هل خدعته؟ هل أحبها؟ هل خانته؟ هل سحقها؟ لا أعلم ما أدريه هو أن بينهما شيءٌ لم يُحسم بعد. شيء لا يُقال، لكنه يُحرق نظراتهما تصرخ بشيءٍ من الكراهية شيءٌ من الألم وشيءٌ ثالث...

لكن لا علاقة لي بهذا. أنا لا أقاتل من أجل العروش ولا أهوى حروب النفوس. هدفي أوضح أكثر ببساطة: أريد أن أخرج بلا عروق بلا بقايا بلا أثر لأكمل مهمتي في العالم الخارجي. لكن لكي أخرج علي أن أفهم؛ لا أستطيع أن أقاوم شيئًا لا أفهمه. نظامٌ جديد، معادلةٌ جديدة وأنا أحب فهم الأشياء، حتى لو لم أكن مهتمًا بها.

عقلي لا يهدأ، يُحلل كل شيء، يربط يُفكك يرى الثغرات ولا ينتظر
وإن. ولهذا بدأتُ أبحث عن طريقة للدخول إلى هذا العالم. كنت أراقبهم
وهم يخرجون من البوابة لاصطياد الأرواح التي غمرت العروق السوداء
أجسادها وكنت أهاجمهم مع فريقي في كل فرصة. لم يكن الأمر سهلًا،
كانوا يقاتلون بضراوة، لكننا كنا ننجح أحيانًا في أسر واحد منهم.

كنت أجرهم إلى العتمة وأعصرهم بأساليب لا يعرفها غيري، حتى
يبوحوا بما يحدث في الداخل وما هي شروط الدخول. ومن واحد منهم
عرفت الحقيقة: لا أحد يدخل إلا برفقة روح من هذا العالم كأنه حارس
مفتاح، لا يفتح البوابة إلا وهو يجرك معه. وهكذا دخلت... ممسكًا
بخصمي كمن يمسك بتذكرة لا تُباع، عارفًا أنني بمجرد أن أضع قدمي
في الداخل، سأفهم كل شيء... أو سأموت وأنا أحاول وسأخرج من دون
هذه العروق السوداء اللعينة التي تعطلني على مهمتي.

سرتُ بين الأرواح لكن لا أراهم أرواحًا، بل جثثًا حية تتنفس
الخضوع، وجوههم محفورة بالألم، أجسادهم تحكي ما لم يستطيعوا
قوله. بعضهم يزحف بعضهم يصرخ في زوايا لا يسمعها أحد بعضهم
يضحك كالمجانين. فهمتُ سريعًا: هذا العالم ليس جحيمًا فقط، بل
مسرحًا. كل من فيه يلعب دورًا: الخاضع الجلاد الضحية الباكي القاتل
والساكت وأنا... أراقب. دائمًا، أراقب.

اقتربتُ من روح رجلٍ بلا ساقين يغرس سكينًا في عنقه مرارًا دون
أن يموت. انحنيتُ إليه، لمسته بخفة وقلت له:

- هذا... هذا الألم الحقيقي.

ووجهت يده نحو وريد بارن... رفع عينيه نحوي، كانتا ميتتين ثم بدأ يطعن نفسه في المكان الذي أشرتُ إليه. رأيته يتهاوى، ابتسمتُ وقفزتُ ومضيت.

كنتُ أدرس المكان لا بشعور، بل بمنطق. منازلهم من عظام طرقهم من طين قوانينهم من خوف. هناك جنود يضربون، وهناك آخرون يهمسون. عرفتُهم سريعًا: هناك فئةٌ تنهش وفئةٌ تهمس وفئةٌ تُسحق والثلاثة... يخضعون لها.

مَلَيْكَاتَا... هممم، الملكة ليست ساذجة، بل هي قوية، قوية بما يكفي لتُبقي كل هؤلاء تحت حكمها لكنها تملك نقطة ضعف كأي امرأة. أحتاج فقط إلى الاقتراب منها إلى مراقبتها وإن اضطررتُ سأستغلها. وجهها جميل، لا أنكر، ولو كنا في العالم الخارجي لربما اخترتها لليلة واحدة. أحب كسر النساء القويات، أحب رؤيتهن ينهَرْن تحت يدي. لا حب لا رغبة فقط الهيمنة. لكن هنا... هي ليست لعبة، هي احتمالي للخروج.

هو مختلف عنها، نظراته إلى التاج تقول كل شيء. هو لا يريدها هي، بل يريد ما تحمله: تاجها! يريد الحكم لا الحُب لكنه غارق في شيء أعمق لم أكتشفه بعد لكني سأفعل.

اقتربتُ من القلعة بدافع الفضول وهناك رأيتُهما معًا. كانت تتكلم تلوح بيديها تتحرك كثيرًا بينما هو ينظر إليها دون أن يتحرك وجهه جامد لا يرمش لا يبتسم لا يتغير. لا أعلم عما يتحدثان لكني أراهن أني موضوعُ نقاشهما. وكيف لا؟ أنا أول من شق هذا النظام. أنا أول من قال: أفهم... لكنني لا أهتم وسأخرج من هنا.

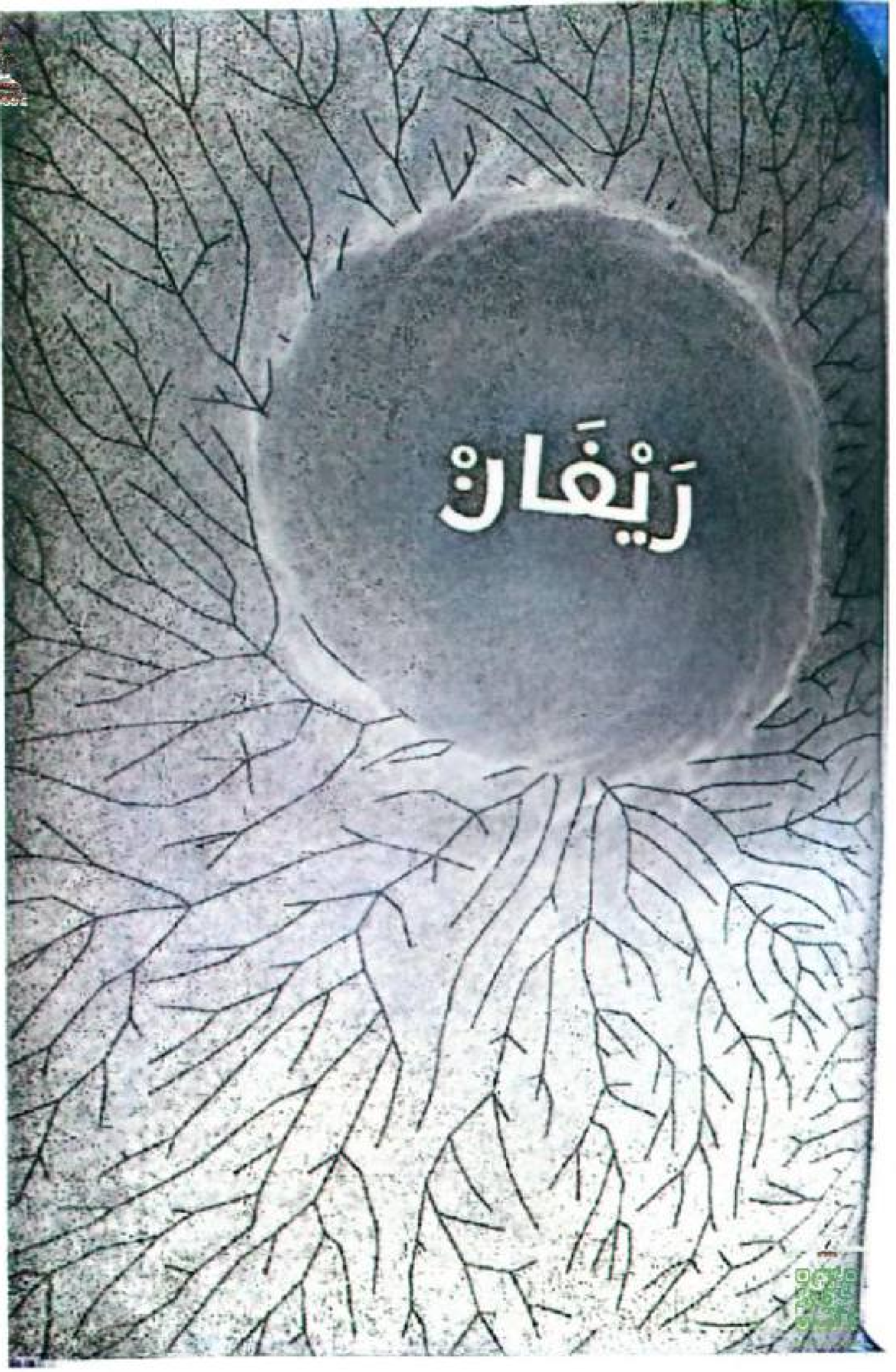
رَيْفَانْ

أشعلتُ سيجارتي فقط كي لا أسمع صوتها، كانت تكرر الجملة ذاتها منذ لحظات طويلة، تدور في المكان مثل سجينة فقدت عقلها، تمشي جيئةً وذهابًا، تلوح بيديها، تتكلم دون توقف وكأنها تحاول دفع الجدران نفسها إلى الجنون. كنت واقفًا بلا حركة، أسحب الدخان ببطء، أراقبها بصمت، وجهي جامد، عيناي ساكنتان، لكن رأسي... كان يدرس كل كلمة كل حركة كل خفقة في صدرها.

قالت:

- لا أصدق... لا أصدق، لا أصدق، زايْفان، أعرف ما يعنيه أن لا يفشل هذا الرجل ولا ينجح!

سحبتُ نفسًا جديدًا، نظرتُ إلى السيجارة ثم إليها وقلتُ بنبرة خافتة ثابتة:

- وأنا أيضًا أعرف.

لكنها لم تسكت، لم تهدأ، بل ارتفع صوتها أكثر، عيناها تمتلئان بالذعر:

- هذا يعني... هذا يعني نهاية كل شيء، زايْفان، إذا نجح في الاختبار القادم... نحن نموت! أنا أفقد العرش... وأنت... أنت أيضًا تموت! أنت تعلم هذا! أنت تعرف قوانين هذا العالم! إذا خرج أحدهم... يُمحى الوجود!

فقط حركتُ رأسي قليلًا كأني أطرد ذبابة مزعجة:

- هل تخشين أن يختفي هذا العالم أم تخشين خسارة تاجك والعرش؟

قالت:

- كل شيء، هذا العالم هو كل ما نملك، لا يمكن أن ندعه يفعلها لا يمكن أن نسمح له بالخروج، يجب أن نجد حلًا، الآن، فورًا!

قلتُ بهدوء يشبه السم:

- اهدئي يا مَلَيْكَانَا... لا حاجة لكل هذا الهلع.

توقفتْ فجأة، التفتتْ إلي كأن كلماتي صفعتها على وجهها لتستفيق من حالتها الهيستيرية:

- أهدأ؟! أنت تمزح؟! كيف يمكنك أن تكون بهذا البرود؟! أنت... أنت لا ترى ماذا يحدث؟!

نظرتُ إليها بعينين جامدتين وأجبت:

- أراه جيدًا... لقد أدهشني، صحيح... لكني لن أرتجف بسببه، الخوف لا يُناسبني ومَن يشعر به لا يصلح لهذا العالم.

قالت بانفعال يكاد يفتك بحلقها:

- لقد كاد ينجح، رَايْفَان، حرفيًا، كاد يخرج... لم يتبق شيء! الاختبار الثاني سيكسره... سيكسره وننتهي.

قاطعتُها:

- لن يكون هناك اختبار ثانٍ.

شهقت:

- ماذا؟! كيف؟! هذا ضد النظام! لقد اختفت نصف عروقه، وهذا يعني...

سحبتُ نفسًا عميقًا، زفرتُ الدخان في الهواء:

- نقتله، ببساطة.

تجمدت ملامحها، فمها بقي مفتوحًا للحظة لم تستوعب ما سمعته.

ثم همست:

- نقتله؟ هكذا فقط؟ هذا ليس عدلًا...

قلتُ بصوت ممل:

- تتكلمين عن العدل؟ أي عدل؟ أن يدخل هذا العالم فقط ليزيل العروق التي تزعجه ليعود ويقتل آخرين؟ لستُ مهتمًا، دعيه يقتل العالم بأسره إن أراد... لكن لا تحدثيني عن العدالة. هذا الرجل لم يواجه ألمه لم يعبر خلاله فقط التفتَ حوله... وأنا أرفض أن أُكافئ هذا النوع من الأرواح بالخروج.

صرخت:

- لا مستحيل!

رفعتُ يدي:

- مَلَيْكَانَا... كفى، رأسي بدأ يصدعني.

قالت بصوت عالٍ:

- أنا لا أصرخ عليك!

اقتربتُ منها بهدوء، دسستُ أصابعي في شعرها الطويل، سحبتُ رأسها إلى الخلف بلطف قاسٍ وقلت:

- بل تصرخين وهذا ما لا أقبله. أخفضي صوتك، الآن!

قالت متحدية:

- وإلا؟ ستقتلني أيضًا؟

ابتسمتُ:

- ربما... أيتها «الملكة الجميلة».

تبادلنا نظرة ثم انفجرنا ضاحكين. ضحكة مفاجئة حقيقية غريبة حتى أنا نسيتُ أني أملك القدرة على الضحك.

ثم أكملت:

- حقير...

قالت:

- ومتى؟ متى سنقتله؟ وكيف؟

نظرتُ إلى شفتيها، أردتُ أن أعضها أن أمزقها أن أقبلها... لا أدري

ثم قلت:

- في الحفل. ألم تنظمي حفلك السخيف؟

قالت:

- نعم...

قلت مبتسمًا:

- وهل أنا مدعو؟

ردت بعينٍ لامعة:

- عليك أن تستحق الدعوة.

نفختُ الدخان في وجهها واقتربتُ منها حتى لامست أنفاسي عنقها

وهمست:

- احذري يا مَلِيْكَانَا... قد يُعجبني ذلك.

قالت، تحاول استعادة السيطرة:

- ومن سيتولى أمر القتل؟ أنت؟

قلت:

- لن أوسخ يدي من أجله. لا تقلقي... لدي رجلي.

- من؟

- زِفْرَاهِنْ.

- ومتى؟ كيف؟

أجبتُ بنفاد صبر:

- في الحفل، دعي هذا من شأننا. واذهبي أنتِ لتستعدي.

- للحفل؟

- أجل... لا أريد أن أفوت إطلالتك. خصوصًا إن ارتديتِ الأحمر وربما... فقط ربما... سأكون أنا من يأخذك إلى الحفل كشريك حقيقي.

ضحكتْ وقالت:

- وربما لدي شخصًا آخر يصطحبني.

قاطعْتُها، سحبتُ شعرها أكثر. اقتربتُ منها وقلت:

- احذري يا مَلَيْكاتَا... أنا لا أتعامل مع الغيرة مثل الآخرين.

ثم صوت خطوات تتقدم...

دفعتني بسرعة:

- هناك أحدهم!

ابتسمتُ وتراجعتُ بخطوتين هادئًا كعادتي. تقدمت هامسة. ثم قالت:

- مَلَيْكاتَا، الحفل على وشك أن يبدأ.. متى نبدأ العرض؟

قلتُ:

- بعد أن تغير ملابسها. لا تذهبي بالدماء.

ثم أضفت:

- ارتدي الأحمر... يليق بك.

نظرت إلي... ابتسمتْ، ثم غابت.

وأنا اتجهتُ نحو الجناح السفلي حيث ينتظر زِفْرَاهُنْ.

ART_OF_BOOK

دخلتُ غرفتي وأنا أجر جسدي جَرًا لا لأني ضعيفة، بل لأن الوجع الذي ينسكب من أعضائي كان أضخم من قدرتي على التحمل. وقفت أمام مرآتي الكبيرة، عيوني متسعة مُطفأة تحتها هالات سوداء، شعري مبلل بالعرق والغبار، مُشتت، فمي مشقوق ينزف، كانت الجروح منتشرة غطت كامل جسدي والدم جف على فستاني الرمادي، رمادي كأنه اجتمع فيه كل ما بين الأبيض والأسود دون أن ينتمي لأيهما.

نظرتُ لنفسي وتفاجأت أن قدماي لا تزالان قادرتان على حملي.

كم مرة مُت داخلي وعدت؟ كم مرة نزعوا مني الرغبة في الاستمرار واستمريت رغما عنهم؟

كم مرة خانني الجسد وبقيَت روحي شامخة حتى لا أسقط تمامًا؟

أنا لا أفهم كيف لا زلتُ واقفة ولا أعرف إن كان هذا دليلَ قُوة أم مكابرة في وجه الاستسلام.

دوى طرقٌ خفيف على الباب، لم أنظر، فقط قلتُ:

- ادخلي.

دخلت لَازَار تمشي بهدوء، اقتربت مني وأنا لا أزال أحدق إلى المرآة قالت وهي تنظر لوجهي:

- مَلَيْكَانَا، وجهكِ يحتاج عناية، سأُحضِر الأدوات.

همستُ:

- اهتمي بنفسكِ أولًا، لا زلتِ مجروحة.

قالت وهي تفتح أحد الأدراج:

- سأهتم بكِ الآن، وجهي يمكنه الانتظار.

نزعتُ الفستان عن جسدي، شعرتُ بلسعة الهواء البارد يصفع الجروح المفتوحة، لا حياء بيننا، هذه التي شاركتني كل لحظات انهياري، لم تعد مجرد هامسة لم تعد مجرد امرأة من جيشي، أصبحت شيئًا يُشبه الجدار الذي سائدني حين تخلى الجميع، بدأت تُنظف الجروح، بلطف بثقة بعناية ثم أخذتني نحو الحمام، ساعدتني على غسل الدماء الجافة عن جسدي وأعادتني إلى المرآة.

فتحت خزانتي الكبيرة، كانت مليئة بفساتين خاطتها لي إحدى الأرواح التي كانت في العالم القديم خياطة مشهورة، جاءت إلى عالمي وهي تصرخ على زبونة قتلتها بمقصها لأن خياطتها كانت فاشلة واليوم تصنع لي أفخم ما يمكن أن يُلبس في هذا العالم.

مددتُ يدي نحو الفستان الأكثر ظلمة، الأكثر سوادًا، لكنه الأجمل...

ابتسمتُ داخلي:

- لن أهديكَ الأحمر اليوم...

الفستان انساب على جسدي كأنه يعرف كل ندبة وكل التضاريس، قماش ثقيل يشبه المخمل الأسود، مائل إلى البنفسجي القاتم، من الأعلى ضيق يُبرز الخصر، ومن الأسفل واسع كذيل الملوك، فيه شق طويل يكشف الساق اليُسرى، أما الذراعان فمفتوحتان بحواف حادة والأكتاف عارية ومغطاة بسلاسل سوداء صغيرة تشبه شظايا الحديد.

وُضع أمامي قناع للوجه ملكي مزين بريش أسود وأحجار دقيقة، غطى الحواجب والجبين وترك العينين بارزتين.

وضعت لازار كُرسيًا أمام المرآة، دعتني للجلوس، جلستُ.

بدأت تسريح شعري الطويل الأسود غير أملس ولا مجعد، ذي طبيعة ...سبته للخلف، ربطته بخصلات صغيرة إلى أن كونت منه عقدة

عالية، مهيبة ثم بدأت بوضع مساحيق صنعتها بنفسها من أعشاب من العالم، غطت الهالات، مررت الفرشاة على وجنتي ثم وضعت لي لونًا أحمرَ قاتمًا على شفتي، لونًا يُخفي الجرح دون أن يُخفي الوجع ثم رسمت الكُحل على عيني وسحبته للخارج، وحين نظرتُ إلى المرآة رأيتُها تنظر إلي بغرابة.

لم تعُد تبتسم لم تعد تتنفس. سألتها:

- ما الأمر؟

قالت:

- لا شيء، فقط جمالُكِ... مدهش.

ابتسمتُ، لا أعرف لماذا، ربما لأن شيئًا داخلي صدقها.

لكني متعبة، كل خلية في تصرخ. كل صوت حولي يُربكني، كل فكرة تُنهكني...

لكن هذا الحفل... هذه الليلة... هي فرصتي لأستعيد نفسي.

لستُ ملكة قاسية لستُ ملكة رحيمة لستُ ملكة منهارة ولا ملكة مُنتقمة.

أنا فقط... ملكة.

وهذه الكلمة لا تحتاج وصفًا آخر.

وقفتُ، حدقتُ إلى المرآة طويلًا. لففتُ خصلة بين أصابعي وتذكرت

نُوفَار خطر... خطر حقيقي.

ليس لأنه ذكي فقط، بل لأنه لا يشعر لا يرتبك لا ينكسر ولأنه الوحيد الذي لم أستطع أن أرى داخله.

عينايَ تكشفان الجميع... إلا هو.

ومع ذلك... ومع أني لا أريد قتله... أعرف أني سأفعل.

لأنني لا أملك خيارًا، لأن النظام لن ينجو إن خرج، لأن خروجه يعني موتي... وموت زايْفَان.

زايْفَان، هو من قال أنه سيحميني.

هو نفسه زايْفَان الذي حاول قتلي أكثر من مرة.

أيهما أقسى؟ أن تُقتلي أو أن يغتصب من رأسك التاج؟

أظن... لا! بل أنا متأكدة، أفضل الموت على فقدان العرش.

لكنني لن أمنح لا هذا ولا ذاك.

أنا خُلقتُ لأبقى لأُقاتِل لأسترد لأخوض الحرب بشموخ، لن أترك نظامي يُسحق أمامي دون أن أحطِم مَن يُحاول سحقه.

نظرتُ إلى لازَار، التفتُ نحوها، أمسكتُ بيدها، نظرتُ في عينيها وقلت بصدق:

- شكرًا...

ردت لازَار بابتسامة ممزوجة بالخذلان والحب والجرح:

- في أي وقتٍ... مَلَيْكَاتنا.

خرجتُ من الغرفة، وقعُ خطواتي على الأرض يشبه نداءً قديمًا. كنتُ أرتدي خلخالًا في قدمي مع مجوهرات صغيرة كانت تُصدر نغمات خفيفة مع كل حركة، رغم كل الجراح رغم الدم رغم الحُزن المُخفي بين طبقات مساحيقي، كنتُ... فاتنة، قوية، عائدة إلى عرشي، وحين مررتُ بين الأرواح... لم ينظروا لأني ملكة، نظروا لأني كنتُ مشهديًا، ساحقة، كاملة.

وقفتُ أمام مدخل القاعة أراقب الحشود تتوافد من كل زوايا كُوْسَانُوكْتِيس، الدَّامُون، الهامِسُون، الكُوسِيُون، جميعهم دخلوا تباعًا، بعضهم يبتسم كأنه نجا، وبعضهم يتلفت بقلق كأنه يشعر أنه في مأزق، الكل يرتدي أقنعته، أقنعة للعيون فقط وزعت عند الباب مثل طقوس قديمة أعيد إحياؤها لكنهم ما إن رأوني حتى انشق لهم الطريق دون أن يأمرهم أحد، مررتُ بثبات، رأسي مرفوع، نظرتهم كانت مزيجًا من الانبهار والرهبة.

توقفت روح عند الحافة، رفعت رأسها ونادتني بصوتٍ خافت:

- مَلَيْكَانَا... تذكرينني؟

نظرتُ إليها للحظة ثم قلت:

- نعم... كنتِ من أوكلتُ لها رسم الأرواح كما تمنيتِ أن تكوني أنتِ... جميلة.

قالت وهي تقترب بخطى خفيفة:

- صحيح، دعيني أرسمك الليلة.

اعتدلتُ، لم أمانع، وقفت بلا حراك، هي لم تحتج أكثر من ثوانٍ، يدها كانت تتحرك بسرعة مرعبة، ريشتها ترتجف بصدق، وعندما رفعت اللوحة أمامي... شعرتُ بشيء داخلي ينكسر.

تجمدت.

كانت الصورة جميلة لكنها لم تكن فقط جميلة... كانت أنا.

لا، ليست أنا الآن، بل أنا القديمة... أنا التي كنتُها قبل العروق، قبل الصراخ، قبل الحسابات والمتابعين والخيبات، كانت تلك نظرتي حين كنتُ أضيء دون أن أحترق، قبل أن أطفأ لأني أحببت أكثر مما يجب، قبل أن أرتدي التاج وقبل أن أخلعه داخلي دون أن يراه أحد.

قلتُ لها وأنا أحدق إلى الرسم:

- كيف عرفتِ أني كنتُ هكذا؟

قالت وهي تنظر إلى عيوني مباشرة:

- لأنني لم أرسمك جميلة، رسمتُك كما أنتِ والجميل فيكِ... كان حقيقيًا.

شعرتُ أن قلبي ارتعش قليلًا، شيء ما في عروقي تحرك ارتجف تمنع لكنه لم يظهر.

من حولي بعض الأرواح كانوا يحدقون، أغلقتُ عيني بسرعة، تخيلتُ أسوأ مشاهد واختفى كل شيء.

لم أشكرها.

لم ألتفت.

دخلتُ إلى القاعة بخطى أسرع وأنا لا أعلم إن كان هذا الحفل فكرة جيدة أم لا.

تجميل الوحش يُخيف أكثر من الوحش نفسه لأننا نعرف كيف نتعامل مع القبح، نهرب منه نُدينُه ندفنه. لكن حين نراه جميلًا... نُدرك فجأة أننا فقدنا شيئًا كان فينا وأننا قد نكون نحن ذاك الوحش الذي لم نعد نجرؤ على النظر إليه.

دخلتُ القاعة، كانت مختلفة، كل شيء تغير!

الأرض مكسوة بسجاد أسود طويل يمتد نحو الداخل مثل نفقٍ إلى العوالم السفلى، الجدران كانت تتنفس كما لو كانت مصنوعة من جلدٍ حي، الإضاءة خافتة، تتسرب من مشاعل سوداء لا تُظهر الألوان، بل تشوهها، الموسيقى لم تكن موسيقى، بل صوت جروحٍ قديمة تتفتح، الأرواح هنا كانت تتحرك بحذر، بعضها يرقص، بعضها ينزف، بعضها

يضحك وهو يحترق وكانت الزينة مزيجًا من الفن والألم، من السحر والغضب، من الجمال والاختناق، ولم أكن أنا من نظم كل هذا... بل الوحوش الذين نسيتُ أنهم كانوا بشرًا ذات يوم.

رفعتُ نظري،

كان هناك،

نُوفار!

واقفٌ وسط القاعة، ظهره منتصب، يديه خلف ظهره، ينظر إلى السقف كأنه يقرأ خريطة النجاة، لم يكن يبتسم لكنه لم يكن جامدًا، كان يعيش المشهد كله داخله... دون أن يظهر شيء على وجهه. ارتدى بذلة رمادية داكنة بلون الرماد بعد الحريق، أنيقة متقنة، وعيناه خلف قناع رمادي يزيده جاذبية قاتلة، وقفتُ لحظة أتساءل... من أين له هذا؟ من صنعها له.

لم يكن قد رآني بعد.

فجأة، شعرتُ بنظراتٍ تحفر في ظهري، نظراتٌ أعرفها، نظراته. توقفت، استدرت ببطء... وها هو، واقف كأنه ملكٌ من رماد يرتدي بذلةً سوداء مطرزة بخيوطٍ داكنة وعيونه الزرقاء مكشوفة هذه المرة، مرفوع الشعر، سيجارة تتدلى من بين شفتيه، والنار في صدره تسبق الدخان إلى الهواء.

توقف أمامي، تفرسني من رأسي حتى أسفل قدمي، نظرة طويلة أكثر مما ينبغي نظرة تسللت إلى صدري وتوقفت هناك، ثم نزلت نحو خصري نحو فستاني إلى ساقي ثم عادت لتغرس نفسها في عيني، اقترب أكثر حتى رفع طرف الفستان برفق وغطى به صدري وقال بصوتٍ خافت خبيث:

- ألم آمرك أن ترتدي الأحمر؟

اقتربتُ منه أنا أيضًا حتى صارت أنفاسي تختلط بأنفاسه، ابتسمتُ ابتسامةً مليئة بالتمرد وقلت:

- ومنذ متى أطيعك؟

هنا تغير كل شيء.

غرس نظراته في عيني لحظة ثم قبض على ذراعي بعنف، شدني للأمام وأمرني:

- امشي.

- رايفان! ماذا تفعل؟ أتركني.

لكنه لم يتوقف. شدني أكثر وسحبني عبر القاعة كأنني ملكه الخاص. دفعني إلى إحدى الغرف الجانبية، لم أملك حتى فرصة لتأملها. فجأة، رفعني من خصري ثم وضعني بقسوة على طاولةٍ باردة خشبية. لم أعد أملك صوتًا!

اقترب مني وأنا ما زلت مذهولة فسألته بصوتٍ مرتجف:

- رايفان... ما الذي تفعله؟

أمسك يدي بكلتا يديه، ثبتهما على الطاولة. نظر إلي بعينين متقدتين غضبًا وقال:

- قلتُ لك من قبل، أنا لا أقبل بالعصيان.

- هل أنت مجنون؟! إنه مجرد فستان، مجرد لون...

- لا. ليس مجرد فستان، إنها كلمتي التي لم تُحترم وستعاقبين على ذلك.

اقترب وجهه أكثر، قبض على خدي بين أصابعه قبضة موجعة وهمس:

- عليكِ أن تتعلمي كيف تطيعين حتى ولو لم تحب الطريقة.

ارتجفتُ، لم أعد أميز بين الخوف والرغبة، كل شيء في داخلي اهتز. حاولت التراجع، قلتُ:

- رايفان... أرجوك...

فجأة، انسحب وجهه عني وابتعد قليلًا، تغيرت نبرة صوته، لم يعد فيها لا سخرية ولا دفء، فقط صرامة باردة:

- اسمعيني جيدًا. أنا معجب بتمردك بقوتك، ولكن هذه الليلة.. أريدك مطيعة.

بحثتُ في عينيه عن أثر سخرية... لم أجد شيئًا. كانت عينيه جادتين إلى حد الرعب.

- لأنك لو لم تكوني الآن، لو خالفتِ حرفًا واحدًا مما سأقوله.. سأحطمك.

ظل يحدق إليّ، وأنا صامتة. لم أستطع الرد ثم أردف بصوتٍ أكثر عمقًا:

- أنا غاضبٌ منكِ، مَلَيْكَانا. غاضب جدًا. ليس فقط لأنك عصيتني ولا فقط لأنك نظرتِ إليه... بل لأنك قتلتِ أخي، هل تظنين أنني نسيت؟!

هنا اتسعت عيناي، تذكرتُ ما فعلتُ... لا، لم أندم، لكنني كنتُ أعلم أن في داخله غضبًا يكفي ليقتلني في أي لحظة. حاولت تجنب عينيه لكنه قال بنبرة آمرة:

- انظري إليّ.

لم أفعل.

صفعني بخفة وقال:

- قلتُ: انظري إلي.

رفعت نظري نحوه ببطء. نظر إلي لحظة ثم قال:

- هل ستطيعينني الليلة؟

لم أجب.

- مَيْكَاتَا! أجيبي الآن!

- نعم.

- لم أسمعك.

- قلتُ نعم رَيْفَانْ، اللعنة!

ابتسم بخفة، ببرود.

- ممتاز. لكن قبل أن أعاقبك على مخالفتك لأمري، أريد أن تُجيبينني أولًا...

- عن ماذا؟

- لماذا أطلت النظر إليه؟

- من تقصد؟

- أنتِ تعلمين مَن أقصد لا تمثلي الغباء الآن.

- أقسم لك، لم أكن أنظر إليه بتلك الطريقة، أنا فقط كنت أفكر كيف ستُنفذ عليه الحكم الليلة، كنت أتخيل فقط، لم يكن شيئًا آخر، رايفان أرجوك صدقني...!

كان يراقبني بصمت، يتركني أرتبك وأغرق في مبرراتي.

ثم قاطعني فجأة:

- هل تظنينني أحمقًا، مَلَيْكَانَا؟

- لا! لم أقصد...

قبض على عنقي بيدٍ واحدة، دفعني للخلف على الطاولة. جسدي استسلم بالكامل وارتطم ظهري ببرودتها، وجدت نفسي ممددة فيما وجهه يقترب من وجهي، قبضتي على يده محاولاتٍ عبثية، ثم أمرني بصوتٍ غاضب عميق:

- ارفعي يديكِ فوق رأسك.

- رايفان، لا! مستحيل، لن أفعل!

آخرج السكين من جيبه وغرسه في الطاولة بجانب رأسي بكل قوة فارتج الخشب وارتجفت معه أوصالي وعيناه تغليان غضبًا وكأنهما توشكان على إحراقي:

- الآن!

رفعتُهما، وكل عضلة في جسدي كانت ترتجف وكرهت نفسي لأنني لا أقاومه... كرهت ضعفي في هذه اللحظة اللعينة.

وهو يطوقني بذراعيه، قال:

- الآن... ستفسرين لي.

- أنا فقط... كنت خائفة، خائفة أن ينجح في الخروج خائفة أن يأخذ العرش خائفة أن يدمر النظام. لم أكن أراه كما تظن. أقسم لك...

صمت.

ثم همس:

- سأصدقكِ هذه المرة، مليكانا.

- لأنني أقول الحقيقة؟
- لا... بل لأنكِ الآن تحت رحمتي وإمرتي مطيعة خاضعةً تفعلين ما أطلبه وهذا يكفيني.
ثم اقترب أكثر وهمس:
- لكن هذا لا يُعفيكِ من العقاب لأنكِ لم ترتدي ما أمرتُكِ به. لديكِ خياران... إما أترك بصمتي عليكِ بأسناني، كما فعلتُ تحت الأرض... أو...
سكت، وأنا بدأت أرتجف:
- ريفان، لا... ليس العقاب القديم، لا أريد العضات، في المرة الماضية اضطررت لتغطية كل جسدي حتى لا يسأل أحد. أرجوك، أي شيء إلا ذلك.
اقترب من أذني وهمس بصوتٍ يقطر نارًا:
- حسنًا... سأفعل شيئًا آخر. أردتُ أن أرى الأحمر عليكِ، وبما أنكِ رفضتِ... سأضع اللون عليكِ بنفسي.
ثم أخذ السكين ووجهه نحوي ببطء، كأنه يريد أن يعذبني نفسيًا قبل أن يلمسني، وكنتُ أرتجف بكل كياني.
- ماذا... ماذا تعني بذلك؟ لا، توقف... سأفعل أي شيء، رجاءً يا رَيْفَانْ.
رفع حاجبه، وعيناه تشعلان فضولًا خلف القناع:
- أي شيء؟
- نعم... كل شيء، فقط لا تترك آثارًا... أرجوك.

ابتسم ابتسامة ماكرة شيطانية وعرفتُ في تلك اللحظة بالذات أنني وقعتُ عقدًا مع الشيطان، ثم قال ببرودةٍ مميتة:

- غريب أن تنصاع جلالة الملكة بسهولة، أهذا ما تسمينه كرمًا؟ أم أنه....

- زيْفَانْ...!

ART_OF_BOOK

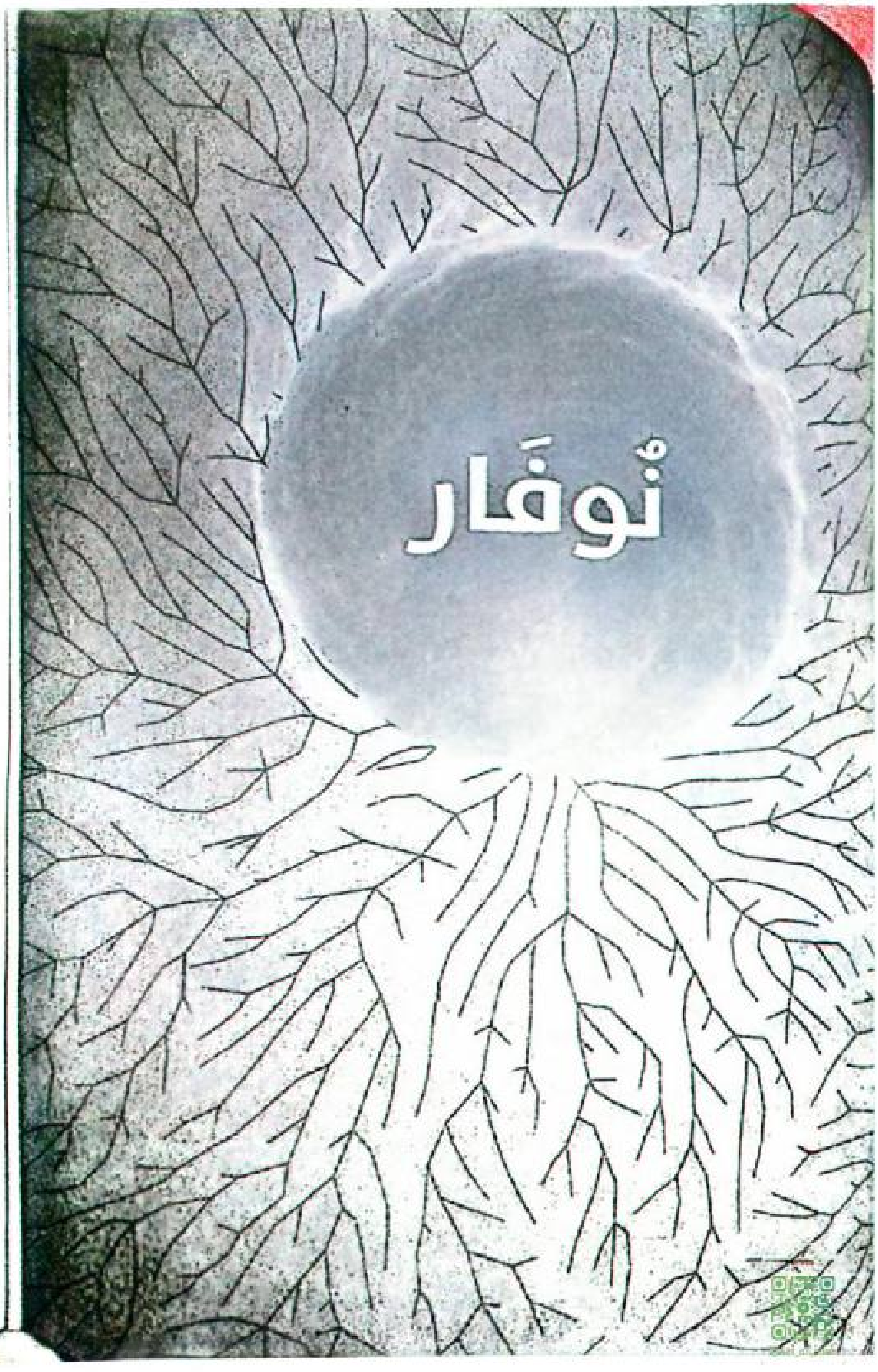

كنتُ أتنقل بين الحشود بخطواتٍ محسوبة، عيناي لا تفوتان تفصيلًا واحدًا، عقلي يسجل كما اعتاد أن يفعل دائمًا لكن ما أراه الليلة لا يدخل في أي خانة لا يشبه أي شيء أعرفه ولا يخضع لأي نظام من الأنظمة التي أحترف فك شيفرتها. كنتُ أنا، نُوفَار، الأكثر وضوحًا الأكثر منطقًا الذي يقيس كل كائن ويضعه في ملف مغلق... عاجزًا عن تصنيف ما يجري أمامي.

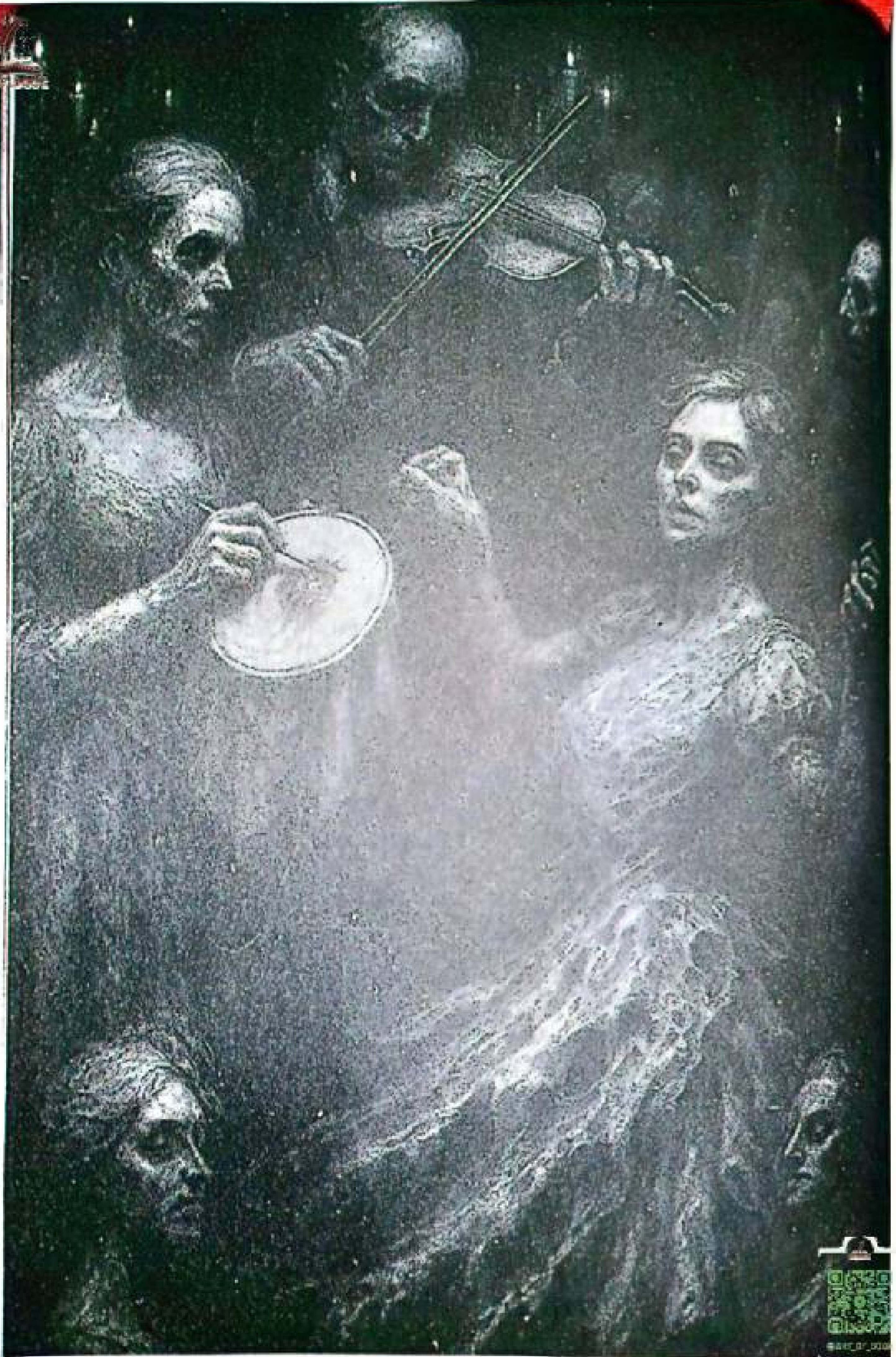

القاعة كانت تهتز بأنفاس متناقضة، وجوهٌ تبكي وهي تضحك وأجسادٌ ترقص وهي تنهار، صرخات تتحول إلى لحن وألحان تنقلب فجأة إلى صرخات. رأيتُ امرأةً تجلس وسط الضوء الخافت أمامها قماش فخم بلون العاج وإبرتها تتحرك بخفة ساحرة، لا ترسم زخارف، بل تطرز كلمات، جميلة في شكلها قاتلة في معناها. كانت تخط:

لم أقتلك لأنك خنت، بل لأنك سلختني سلخًا.

نزعتَ روحي من جسدي نزعًا، وكسرتَ قلبي كسرًا.

هشمتُ مرآتي فرأيت في وجهي جرحًا.

جرحًا أعمق من خيانتك وأشد غدرًا.

حفرتُ لك قبرًا في صدري حفرًا.

ودفنتك فيه... لعلي أدفن معه ألمي دفنًا.

كنتُ أرى جمال الخط وأنا أقرأ قبح المعنى وأدرك أن هذا هو التعريف الحقيقي للتناقض، أن يَسكن الجمال جريمةً وأن يُطرز الألم بخيوط لا يملك أحد الشجاعة على لمسها.

لم أتح للذهول فرصة أن يكتمل في داخلي حتى اخترق سمعي صوت كمان لكن الصوت الذي خرج منه لم يكن صوت أوتار، بل كان بكاء امرأةٍ يقطر من بين النغمات، بكاءٌ حقيقي ثقيل، لا يشبه أي صوت

سمعتهُ من قبل. كان العازف رجلًا يقف بثبات قائد أوركسترا، جلسته مستقيمة رأسه منحنٍ قليلًا يداه تتحركان برشاقة مدروسة، لكن ما يخرج من آلته كان صوت بكاء امرأة تقول:

قتلتَ طفلي لتنتقم مني انتقامًا.

فانتقمتُ من نفسك قبل أن تنال خصامًا.

أردتَ أن تسحق قلبي سحقًا.

فسحقتَ ما تبقى من قلبك تمزيقًا وإحكامًا.

وظننتَ أن النصر في الدفن إقدامًا.

لكنك دفنتَ حياتك معه موتًا ولزامًا.

توقفتُ لحظة، أحاول أن أضع هذا المشهد في أي قالبٍ منطقي لكن المنطق لا يتوافق مع موسيقى تُعزف من دموع ولا مع جريمة تتحول إلى معزوفة.

ثم رأيتُ رجلًا آخر، واقفًا أمام ميكروفون، صوته دافئ، عذب، كأنه يهمس بأغنية حب في أذن امرأة، ابتسامته هادئة، عيناه مغمضتان لكن كلماته كانت خنجرًا مغلفًا بالحرير، يقول:

♪♪♪♪♪♪♪

قتلتكَ يا أخي لأنك كنتَ النورَ سَنا.

وكنتُ أنا ظلكَ الملقى بلا معنى،

كنتَ الحكايةَ على كل لسانٍ مُغنى،

وكنتُ أنا الهامشَ الممزقَ دَهْرًا وعَنا.

فمحوتُكَ لأكتبَ نفسي وظننتُها غِنى،

فإذا بي أمحو نفسي معكَ... فصرتُ فَقدًا وفَنا.

♪♪♪♪♪♪♪

الجمهور يصفق ببطء، بعضهم يبتسم، بعضهم يبكي، وأنا... أقف في المنتصف، عقلي يعمل، قلبي ساكن، لكن هناك شيء يتسرب، شيء لم أسمح له بالدخول منذ زمن.

وبالقرب منه كان رجلٌ يرقص رقصة بطيئة مع تمثالٍ من الشمع، ملامحه مطابقة لوجه امرأة شابة، كان يهمس في أذن التمثال بكلمات عشق لكنه في كل دورة من الرقص يضغط على التمثال أكثر، حتى بدأت أصابعه تغرس في الشمع، تشوه الوجه وهي تبتسم له. حب يُدمر محبوبه وهو يحتضنه...

توقفتُ، استنشقتُ الهواء الممزوج بالشموع والدخان والعرق والعطر الحاد وأدركتُ أن من صمم هذا الحفل لا يمكن أن يكون عقلًا عاديًا. الملكة... مالَيْكانا. رأيتها من قبل، رأيت قوتها وسطوتها، لكنني

لم أتخيل أن عقلها بهذا الدهاء، أن تبتكر شيئًا يمزج الجمال بالقسوة، الفن بالدم، الحقيقة بالكذب... بهذه السلاسة.

أنا أرى البشر كمعادلات، أضعهم في قوالب، أقيس ضعفهم لأحترمهم لكنها الليلة وضعت معادلةً لا أعرف كيف أحلها، صممت جريمةً وألبستها ثوبًا يجعل من الصعب الحكم عليها. ولأول مرة، لستُ متأكدًا إن كنتُ أريد أن أجد المخرج أم أريد أن أفك شيفرتها. كنتُ أظن أن الجمال معادلةٌ دقيقة، نسبٌ محفوظة، خطوطٌ متناغمة، وتناسقٌ لا يختل. لكن ما رأيتُه تلك اللحظة لم يكن يخضع لأي قاعدة. كان مُشوهًا ومهيبًا، مكسورًا ومترفعًا، يصرخ بالقبح ويهمس بالعظمة. لم يكن منطقيًا... ومع ذلك، لم أستطع أن أشيح بصري.

ثم رأيتها...

خرجت من إحدى الغرف بخطوات واثقة، وجنتاها محمرتان وعيناها تلمعان بشيء لم أره فيها من قبل وخلفها بلحظات، خرج رَايْفَان، ابتسمتُ في داخلي، فهمتُ ديناميكية المشهد، العلاقة واضحة لمن يملك عينين لكن ما شعرتُ به لم يكن متعة الاكتشاف، بل غيرة... ليست غيرة رجل من رجل، بل غيرة عقل من عقل، غيرة من أن يكون هو الأقرب إلى هذا الذهن المليء بالطبقات لا أنا ووجدتني أتساءل في صمتٍ بارد: هل يراها رَايْفَان كما أراها أنا؟ هل يرى ما أراه خلف عينيها أم أنه لا يلمس منها سوى القشرة التي تركبها أمام الآخرين؟

تقدمتْ نحو وسط القاعة، رفعت يدها، فانصاع الجمع كما لو أن خيطًا غير مرئي يشدهم إليها، جلستُ على الدرجات في الخلف، مكاني المفضل حيث أرى ولا أُرى، أراقبها، أحلل كل حركة كل التفاتة كل كلمة وأكتشف أنني لا أحلل فقط لأخرج... بل لأعرفها، وربما...هممم...

كنتُ أطل من علٍ على القاعة التي امتلأت بأقنعة متلألئة وأجساد متوترة والدوائر تضيق وتتسع حول مركز واحد... هي، ثابتة في المنتصف، مهيبة كأنها المحور الذي يدور حوله كل هذا الجحيم وزليْفان واقف أمامها يحدق إليها بنظرة ممتلئة برغبة امتلاك، بنهم لالتقاط كل نفس يخرج من شفتيها، لا يزيح عينيه عنها لحظة وفي ركن بعيد كانت امرأة مشوهة تراقبه، ثم تراقبها، ثم تعود إليه، تبحث عن شيء بينهما، لكني أنا كنت أقرأ المشهد بطريقتي التي لا تخطئ.

رفعت أخيرًا رأسها وبصوت قوي قالت:

- أشكركم جميعًا على حضوركم هذا المساء، لم أكن أتوقع أن يجتمع هنا كل هذا العدد من الأرواح التي عاشت الألم ولم تجد أذنًا تصغي إليها... أنا أعرف وجعكم صدقوني، أعرف كيف يسكن الجسد وحشٌ يمنعك من الصراخ، من التنفس وأعرف كيف يلتقي هذا الوحش بوحوش الخارج... أولئك الذين عبرتُم حياتهم فلم يروكم ولامستُم آذانهم فلم يسمعوكم واصطدمتُم بقلوبهم فلم يشعروا بكم... أولئك الذين صادروا منكم حتى الحق في أن تصرخوا بألمكم.

تقدمت خطوة، نظرت إليهم جميعًا وتابعت:

- كل عرق أسود في أجسادكم ليس مجرد علامة فشل، بل شاهد على أنهم أيضًا فشلوا، فشلوا في رؤية نزيفكم، في إدراك أن الألم كان يخنق جمالًا أعمق دفينًا فيكم. الألم هو ما يجعلنا أجمل وأقوى وفي الوقت ذاته أضعف... نعتقد أننا بعده سنموت لكن انظروا، أنتم ما زلتم هنا، أحياء... لكن أحيانًا نتمنى الموت بدل أن نعيش أسرى لما لم نتجاوزه بعد.

كل بترٍ هو سطرٌ في قصة لم تُروَ وأنا هنا لأسمعها. اليوم غنيتم شياطينكم، ضحكتم دموعكم، وبكيتم أفراحكم. اليوم، لم يتحدث الألم عنكم، بل تكلم الجمال الذي دفنه الألم في أعماقكم.

والآن... دعوا ألمي يتحدث إليكم بلغته هو.

رفعت يديها كما لو أنها ترفع ستارًا عن مشهد مقدس. أغلقت عينيها، وانطفأت القاعة بأكملها. الظلام لم يكن غيابًا للنور فقط، كان حضورًا لشيء أكبر شيء يبتلع كل حفيف وكل نفس. أخذ الجمع يتراجع ببطء، خطوة خطوة والدائرة حولها تكبر وهي ثابتة، مغمضة العينين، تنتظر لحظة الانفجار.

ثم جاء الصوت... بيانو يقطع الصمت، يحمل لحنًا أعرفه لم يولد في هذا العالم وهذا وحده كان كافيًا ليفتح في داخلي باب الأسئلة... لماذا هذا اللحن بالذات؟

♪♫ Daylight – David Kushner ♪♫

Tellin' myself it's the last time

أكرر لنفسي: هذه آخر مرة

تقدمت مَلَيْكَانَا بخفة فراشة ونظرة لا تنتمي لهذا العالم

رفعتْ ذراعها للأعلى ثم مالت بجسدها نحو اليسار كأنها تتبع نغمة لا يسمعها أحد سواها

ثم فجأة... أسقطت كأسًا من يدها

Can you spare any mercy that you might find

هل يمكنك أن تَمنحني ذرة رحمة؟

تحطم الزجاج

لم تكتفِ

أمسكت آخر

ثم آخر

ثم رفعت يدها عاليًا وأسقطته بكل قوتها

تطايرت الشظايا كالرصاص

اخترقت الأرض... الجدران... الهواء

واحد منها اخترق وجهها

فانفتح جرح صغير... ثم ابتسمت

If I'm down on my knees again

لو ركعتُ على ركبتي مرة أخرى؟

مدت ساقها اليمنى برشاقة راقصة باليه

ثم سحبت اليسرى خلفها

وانخفضت ببطء

ركبتاها لامستا الأرض

لامستا الشظايا

غاصت الزجاجات فيها كأنياب

تدفق الدم من تحتها كسيل

ثم انفجر فجأة نحو الأمام

أصاب الصف الأول من الحاضرين

لطخ وجوههم، ثيابهم، أعينهم

Deep down, way down, Lord, I try

في أعماقي أحاول، يا رب، أحاول

رفعت يدها اليمنى بتقوس ناعم

دارت حول نفسها

كل دورة كانت سكاكين

كل حركة تشرح جلدها

لكن خطواتها ظلت ناعمة كأنها تمشي على غيم

Try to follow your light, but it's night time

أحاول اتباع نورك، لكن الوقت ليلٌ حالك

تدحرجت مرة

ارتفعت مرة

قفزت دفعة واحدة

ART_OF_BOOK

ومع كل قفزة... تطايرت شظايا الزجاج

كأن الأرض تقذف الغضب نحو السماء

والسماء ترده عليها

فتسقط عليها

ثم ترتطم ببدنها

ثم تنفجر

فوقها

حولها

وفيها

تشظى الرداء

تفتحت الجروح

لكنها واصلت الرقص

Please, don't leave me in the end

رجاءً، لا تتركني في النهاية

مالت بجذعها إلى الخلف

كأنها تتحد مع الهواء

بسطت ذراعيها كأجنحة محطمة

رفرفت مرتين

ثم توقفت فجأة

ونزل شلال دم من فخذها

ثم قفزت... ارتفعت

فانفجرت ذرات الدم في السماء

سقطت فوق رؤوسهم

على أكتافهم

على فساتينهم

There's darkness in the distance

هناك ظلام ينتظر في *البعيد*

دارت بعنف

كل دورة كانت جرحًا جديدًا

والأرض صارت بحرًا من الأحمر

ثم... فتحت ساقيها فجأة

وسقطت على الأرض

I'm beggin' for forgiveness

أتوسل المغفرة

الزجاج مزق الرداء

مزق الساق

وانفجر الدم في كل مكان

لطخ الوجوه

لطخ الأرض

But I know I might resist it, oh

لكني أعلم أنني قد أُقاومها

ورغم هذا...

ابتسمت

كانت ممددة فوق الزجاج

تتنفس ببطء

ترفع عينيها نحو سقف لا يفتح

لكن نظرتها اخترقته

كما لو كانت ترى شيئًا فوقه

يدها ما زالت تتحرك بخفة

أصابعها ترسم دائرة

دائرة دم

دائرة نجاة

دائرة لا يفهمها أحد

Oh, I love it and I hate it at the same time

أحبه وأكرهه في الوقت ذاته

ومع هذا

ما زالت ترقص

ما زالت تنزف

You and I drink the poison from the same vine

أنا وأنت نشرب السم من نفس الكرمة

نقزت عالية، رقَدَت في الهواء كأنها قطعة قماش مُعَلقَة.

زجاج وأشواك تحطمت في الهواء، أسال منها الدم كالسُم في رشة رقص

صلب وشفاه الحاضرين تحولت إلى قُماش مخملي احمر يلتصق بالوجوه بلا استئذان.

Oh, I love it and I hate it at the same time

آه، أحبه وأكرهه في الوقت ذاته

ثم فجأة...

فتحت ساقيها بعنف

انشق فيها الجسد كما تنشق الأرض تحت صاعقة

اليدان مرفوعتان نحو الأعلى

وضحكت بوجهٍ باهر رغم الجراح

كأنها...

لم تعد...

تشعر بها...

ولو...

للحظة.

شعرتُ أخيرًا أنني على قيد الحياة، لا مجازًا، بل بشكلٍ جارحٍ، قلبي انشق من جديد وعدتُ إلى الوجود بعد غيابٍ استمر ألفي عام. لم أكن أرقص، كنتُ أنفجر. كنتُ أخرج كل ما لم أستطع قوله كل ما حُرمت يومًا حق الشعور به.

فتحتُ عيني لأجد يدًا ممدودة تجاهي وعندما رفعتُ بصري كانت يد رَايْفَان. أمسكتها، سحبني بقوة نحوه ثم شدني بعنف إلى صدره، همس في أذني بنبرة باردة:

- أنتِ مجنونة تمامًا.

رفعتُ حاجبي ببطء وابتسمت:

- أردتَ الأحمر، عزيزي رَايْفَان... فها هو.

ضحكتُ وتركته واقفًا وسط الدهشة وعيناه الثلجيتان لا تفارقانني. سرتُ بين الأرواح، بين العيون التي تتبعني. بعضها ينبهر وبعضها يرتجف. ورأيت نفسي في نظراتهم، رمقوني بنفس النظرة التي حملوها لي منذ ألفي عام.

احتجتُ إلى الهواء إلى مسافة بيني وبين الكل فخرجتُ إلى الشرفة. كان جسدي لا يزال يهتز من الرعشة. عانقت نفسي حتى أتمالكها رفعتُ رأسي نحو السماء التي لا وجود لها هنا لا سماء في كُوَسْانُوكْتِيس لا نجوم لا ضوء، فقط ظلمة حالكة تسخر من كل ما هو حي.

ورغم ذلك نظرتُ إليها وتنفستها... شعرتُ فجأة أنني ما زلتُ حية رغم كل ما مات في داخلي.

وفجأة أحسست بوجود... لكن لم ألتفت، ثم رأيته يقف بصمت بجانبي يضع يديه خلف ظهره، ينظر إلى الفراغ ذاته الذي كنتُ أحدق

إنه نُوفَار بقناعه الأنيق بهيبته الغامضة بصمته الذي يوقظ شيئًا قديمًا في الذاكرة.

تنفستُ بعمق، لم أرد مواجهة جديدة، ليس بعد رَايْفَان. لكنه قال:

- أعشق جنونكِ أيتها الملكة الجميلة. مبارك هذه الليلة، لقد صنعتِ مجزرة جميلة.

استدرتُ نحوه ببطء. قبل لحظات قال رَايْفَان إنني مجنونة وها هو نُوفَار يبارك لي هذا الجنون.

زفرت وسألته بنبرة ضجرة:

- ماذا تريد؟

استدار نحوي فجأة وحاول الامساك بيدي، فصفعتها مبعدة إياها عن محاولة لمسي و قلت بنبرة صارمة:

- إياك!

لكنه لم يأبه بما قلته وقبض على ذراعي بقوة جعلتني ألتفت إليه رغما عني، قلتُ:

- أفلتني أو سأنادي على الجنود... أنا ملكة هذا العالم، لا تتمادى!

ثم أردف بصوت منخفض يشبه التهديد الخافت:

- نُوفَار... قولي اسمي كما ينبغي، مَلَيْكَانَا، هذا آخر تحذير.

لم أرد، لا أعلم لماذا، فقط شعرتُ أن الاستفزاز سيكون غباءً هذه المرة، شيءٌ في صمته في وقفته في قربه جعلني أتذكر أنه ليس كأي رجل: عروقه السوداء التي بدأت تتحرك تحت جلده ذكرتني بكل الذين قتلهم... نعم، كنت خائفة ولم أجد مخرجًا إلا بتشتيته، بصوتٍ هادئ سألته:

- هل كانوا جميعًا مذنبين؟ هل كل من قتلتَهم يستحقون ذلك؟

سكتَ لحظة ثم هز رأسه ببطء:

- لا. كثيرٌ منهم كانوا أبرياء.

رفعتُ حاجبي من الدهشة:

- إذًا... لماذا فعلتَ كل هذا؟

قال دون أن يرمش بصوتٍ ثابت يشبه السكين:

- عندما لا تعرف إلا الظلام لا يمكنك إلا أن تنقله. أنا أعرف الألم لا كضحية، بل كعدوى. أراه، أحلله، ثم أنقله لا لأنني أريد، بل لأنني لا أعرف غيره. وهذه العروق تبطنني أحيانًا تشوهني أحيانًا لكنها حقيقية وأنا لا أهرب من حقيقة ما فعلته.

كان يقف قريبًا جدًا الآن، يحدق إلى وجهي ثم قال بنبرة هادئة، ولكن مرعبة:

- ما لا أفهمه هو هذا التناقض في البشر، هذا الجنون: رغم كل شيء يتمسكون بي، يركضون خلف من دمرهم يتوسلون للخلاص على يد من كسرهم، كيف يعشق الإنسان جلاده؟ كيف يرى فيه منقذه بينما يذبحه؟ أنا متأكد أنك تطرحين هذا السؤال أيضًا، أليس كذلك يا ملكتي الجميلة؟

تجمدت! كيف تجرأ؟ شعرتُ بالدم يهرب من وجهي. سألته:

- ما الذي تعنيه؟

ابتسم ابتسامة لا تحمل دفئًا ولا سخرية ثم رفع يده ومررها على شفتي اللتين لا تزالان تنزفان، يتجاهل سؤالي عمدًا ثم رفع وجهي بأصابعه وقال:

- أراكِ، مَلَيْكَانَا. أراكِ كما لم يرَكِ أحد. حتى هو... لا يراكِ.

ارتجفتُ.

- هذه الحفلة لم تكن من أجلهم، كانت من أجلك لكي تتذكري عبر أعينهم من أنتِ حقًا، أنتِ الفن أنتِ الإبداع أنتِ الطفلة التي كانت تكتب القصائد لتنجو ثم قتلت نفسها لتتسلق العرش.

اقترب أكثر وهمس:

- المشكلة أنكِ ذكية وناعمة وقوية جدًا لكن أيضًا... ساذجة جدًا. وهذا خلط لا أطيقه لأنني لا أستطيع تصنيفكِ والأشياء التي لا أصنفها... هممم...

نظرتُ في عينيه ولم أستطع الرمش. كلماته كانت ثقيلة حقيقية مؤلمة.همستُ:

-لا أحد ناداني مبدعة منذ آلاف السنين.

ضحك لكن ضحكته لم تكن سخرية... بل دهشة خافتة.

قال وهو يلف يده حول عنقي دون ضغط لكن بكامل السيطرة:

- يا لغبائهم، أليس كذلك؟

ثم اقتربَ أكثر وقال:

- هل تعرفين من خانكِ؟

تراجعتُ قليلًا، ابتعدت عن جبينه لكن قبضته اشتدت على عنقي، وصوته صار أكثر بطئًا... وأكثر اختراقًا:

- ليست خيانة رجلٍ، أنا أتحدث عمن وقفت بجانبكِ طوال هذا الوقت.

-عمن تتكلم؟

أشار برأسه بصمت نحو الساحة... نظرتُ، رأيتها.

- أنت لا تعلم ما الذي تقوله أليس كذلك؟ فهذا مستحيل!

- لا أظن أن هناك شيئا مستحيلا، خاصة عندما يتعلق الأمر بالعرش يا ملكتي الجميلة.

- وهل تظنني بهذه السذاجة، أنت مجرد وافد جديد إلى هنا.

-لا شيء يولد من عبث، صدقيني.

لا أنكر، شيئٌ ما تحرك بداخلي، خصوصًا وأن الذين حاولوا الإطاحة بي كانوا من جيشها... جيش لَازَار، لا من جنود رَايْفَان، ولكن... لا، هل يمكن أن تكون هي فعلًا؟

كانت هناك في الساحة، واقفة بين الهَامِسِين تتكلم تضحك تمكر. وفجأة، كل شيء اتضح. كل لحظة تأخرت فيها كل مرة اختفت كل سر لم يعرفه سواها... كان مفتاح خيانتي في يدها طوال الوقت، اللعنة! جبل مشنقتي كان بيديها!

شعرتُ بالدم يغلي في عروقي فاستدرتُ بسرعة، وجهًا لوجه مع نُوفَار لكنه لم يتركني. رفع يده، أمسك بوجهي من فكي بقوة وجعلني أنظر مباشرةً في عينيه وقال:

- قلتُ لكِ أنك ساذجة، كيف لم تنتبهي كل هذا الوقت أنها تُحب نفس الرجل الذي تحبينه؟ وأنا لم أمضِ هنا سوى ساعات ومع ذلك الأمر كان واضحًا كالشمس.

نظرتُ إليه، عيني تتسعان، همست:

- لا مستحيل أنت تكذب. أرفض أن أصدق!

ابتسم، لا بسخرية ولا بحنان، ابتسامة باردة تتوهج بهدوء مميت ثم قال:

- لا، يا مَلَيْكَانَا... ليست مستحيلة. وهذا بالضبط ما يثير استغرابي فيكِ، قدرتكِ الغريبة على الإيمان بهذه الأرواح المنكسرة، الإيمان

بها وهي تخونك تطعنك من الخلف وأنتِ ما زلتِ ترينها بنقاءٍ لا يشبه هذا العالم.

سكت لحظة ثم اقترب أكثر وقال:

- حتى زَايْفَان كان يعلم... وأنا على يقينٍ تام أنه هو من استغل حبها ليجعل منها أداةً لخداعك وخيانتك.

صرختُ فجأة وكأن شيئًا انفجر في داخلي:

- لا!! مستحيل! أنت تكذب! هو لم يكن ليصل إلى هذا الحد! أبدًا!! أنت تريد فقط السلطة، تريد العرش!

لكنه مد يده ببطء ووضعها على فمي كأنه يُنذرني، عيونه ممتلئة بغضبٍ شفاف وقال بصوتٍ منخفض لكنه قاطع:

- مَلَيْكَانَا لأحذرك لآخر مرة، لا تصرخي علي مجددًا، لا أقبل أن يُصرخ في وجهي.

ثم أضاف وهو يحدق إليّ بجمود:

- أنا لا أقول إلا الحقيقة... حقيقتك. أنا الوحيد الذي يراكِ كما أنتِ وأرى أيضًا ما يحدث من حولك. لا أريد عرشكِ ولا قلبكِ ولا شيئًا منكِ. هدفي منذ اللحظة التي دخلتُ فيها إلى هذا العالم... واضح جدًا.

اقترب أكثر، صوته أصبح أشبه بنبض حاد:

- لديكِ خياران يا مَلَيْكَانَا: إما أن تفتحي عينيكِ أو تتابعي الصراخ علي كمن يهرب من الحقيقة.

توقف لحظة، ثم أنهى كلامه بصوتٍ غليظ عميق:

- لكن صدقيني... إن اخترتِ الصراخ، ستكون هناك عواقب ولن تعجبك أبدًا.

كنتُ أشعر أن شيئًا في داخلي يحترق، لا هو الغضب ولا هو الحزن بل مزيج خانق منهما، مشوبٌ بالخذلان مشوبٌ بعدم التصديق. هل ما قاله نُوفَار ممكن؟ هل رَايْفَان هو من حركها؟ هل كان يعلم؟ هل أرسلها هي، أقرب مَن لي، لتغرس الخنجر في ظهري باسم الولاء؟

لم أعد أستطيع التفكير.

أنا أعلم أن رَايْفَان بلا قلب بلا رحمة. لطالما رأيت فيه ظلامًا لا ينطفئ لكن هل وصل به الأمر إلى أن يتركني للموت؟ أو لا، ليس يتركني، بل يقودني مغمضة نحو موتي بنفسه؟ إذًا لماذا أنقذني؟ لماذا حملني بيديه؟ فقط لأنه لم يشأ أن يأخذ أحد غيره هذا الحق؟ لأنني في عقله ملكٌ له حتى في موتي فعلًا؟!

والآن... هو يريد أن يقتل نُوفَار.

الشخص الوحيد الذي رأى ما لم أره.

الشخص الوحيد الذي حذرني.

الوحيد الذي لم يطلب شيئًا، ومع ذلك نبهني!

لم أعد أعرف هل ما أفعله هو دفاع انتقام أم فقط استسلام لغريزة لا أستطيع كبتها.

لكنني فقط لم أكن لأسمح له بقتله!

لكن قبل أن أنهي الفكرة، رأيت زِفْرَاهْنْ يندفع من الخلف كسيف مسموم يرفع نصلًا حادًا والغضب يفور في عروقه كحمم. عيني اتسعتا رعبًا!

التفت نحو نُوفَار وصرختُ بكل ما في من خوف ومن شيء آخر لم أعرف اسمه:

- نُوفَار...! احذر!

استدار نُوفَار بسرعة خاطفة ورأى زِفْرَاهْنْ يرفع سيفه، يتأهب لإنهاءه من الخلف لكن نُوفَار لم يتراجع! تقدم نحوه بثبات وأمسكه من عنقه بيدٍ واحدة. رأيتُ كيف انقطعت أنفاس زِفْرَاهْنْ كيف ارتبك كيف سقط سيفه على الأرض بصوتٍ مدو.

ثم حدث ما لم أتخيله.

فتح نُوفَار فمه وغرس أنيابه في رقبته. نعم، أنيابه! كأنه وحش خرج من أعماق الظلمة. صرخ زِفْرَاهْنْ لكن لا أحد تدخل. كان الدم يتدفق على صدره وصوته يختنق. ثم بكل هدوء وبيديه العاريتين غرس أصابعه في عنقه ونزع عموده الفقري دفعةً واحدة. رأيته وهو يُرفع في الهواء ثم يُقسم إلى نصفين!

تطايرت الدماء علي!

جسدي كان يرتجف، وجهي كان مغطى بسائلٍ دافئ أسود قاتم رائحته تشبه الموت.

رماه نُوفَار من فوق الشرفة كأنه يطرد عبئًا تافهًا لا قيمة له ثم التفت وبدأ يُنظف يديه بمنديلٍ أبيض أخرجه من جيبه وكأن شيئا لم يكن.

كل شيء كان صامتًا... لكن يداي كانتا ترتجفان بقوة. لم أستطع التنفس. رأيتُ الدَامُون يركضون نحونا لكن نُوفَار لم يتحرك. وقف مكانه، عيناه ثابتتان، خطواته لم ترتبك. وحين اقتربوا... قتلهم كلهم بواحدة فقط من حركاته بقوة لا يفهمها إلا من عاش معه الموت مرارًا!!

كان يقتلهم بوجهه بارد،

كأنه لا يرى أرواحًا، بل ذبابًا،

كأن الدم بالنسبة له مجرد حبر، لا أكثر.

وقفتُ هناك أرتجف لا أعرف إن كنتُ أريد أن أصرخ أم أبكي لكني لم أفعل شيئًا.

نظرتُ إلى يديه إلى وجهه إلى فمه الذي ما زالت بقعة من دم زِفْرَاهْنْ عليه.

وفجأة ركضتُ وكأن الأرض نفسها تطاردني كأن الدماء التي التصقت بثوبي تريد فضحي تريد أن تصرخ بصوتٍ لا يسمعه سواي: «كانت هناك رأته ولم تمنعه، بل حذرته...»، كانت دماء زِفْرَاهْنْ أقربْ مَن تبقى لرَايْڤان بعد أخيه. قُتل بسببي؟ بسببي نعم لأنني رأيت ولم أصرخ علمت ولم أوقف نظرت ولم أتحرك!

واصلت الركض وقلبي ينبض بطريقة لم أعهدها من قبل، ليس رعبًا فقط، بل شيء أقرب إلى الذنب وإلى شيءٍ آخر... الارتياح.

نعم ارتحت حين نظرت خلفي ولم أره، لم يكن رَايْڤان هناك لم يرني لم يرَ ما فعلتُ لم يرَني وأنا أحذر نُوفَار من الموت لم يرَني وأنا أختار أن أبقيه حيا، لا لأنني خائفة منه ولا لأنه قد ينتقم، بل لأنني لم أكن مستعدة لنظرته تلك، لتلك النظرة التي تمزقني أكثر من أي جرح، لم أكن أريد أن يكتشف أنني ما زلتُ قادرة على الاختيار أنني لستُ باردة كما يتخيل لستُ قاسية كما يدعي أنه ما زال في داخلي مكان يمكن أن يُحب أو يُرحم أو يُصدق.

وصلتُ إلى غرفتي، أغلقتُ الباب بقوة وأنا أرتجف من كل موضعٍ في جسدي، بدأتُ أفك ثوبي الملطخ قطعةً قطعة وأنا أبكي وأنا أسمع صوت القماش وهو ينفصل عن جلدي كأنه ينزع ذنبي... الماء الذي غسلتُ به وجهي لم يُطهر شيئًا، الدم ما زال في أنفي في عيوني في فمي في داخلي، اتجهتُ إلى الباب الخفي ودخلت.

الغرفة كانت مظلمة، ستائري الثقيلة أغلقتها بعنف، جلستُ في الزاوية على الأرض أضم ركبتي إلى صدري أرتجف أبكي أختنق، كيف تملكَ منا؟! كيف نظرتُ إليه ولم أمنعه من قتله؟! لماذا؟! ما الذي رآه في؟ ما الذي رأيتُه فيه؟ أغمضتُ عيني لكن المشهد لم يختفِ، يومٌ بدأته بالرقص... أنهيتُه مغطاة بدم أقرب مَن كان لأقرب شخص إلى قلبي...

اللعنة، اللعنة، اللعنة!!!!

- أنتِ غبية!

- لا، أنتم لا تعرفونه، أنتم لا تفهمون...

- قلنا لكِ، لكنكِ لم تسمعي.

- لقد تغير هو ليس مثلهم، ليس مثل الآخرين...

- قلنا إنه خائن!

- لكنه أنقذني، هو من أنقذني...

- لا يريدكِ... يريد عرشكِ فقط.

- كذب! لو أراد العرش، لكان آخذه منذ زمن...

- نعرف أكثر منكِ!

- لا تعرفون شيئًا، لم تعيشوا ما عشته، لم تحبوه كما أحببته...

- استفيقي أيتها اللعينة!

- أنا مستفيقة، فقط... لا أستطيع أن أصدق...

- استفيقي!

- لا أستطيع...

- استفيقي!

- لا أستطيع... لا أستطيع... لا أستطيع...

أتسمعونهم؟!!! بالله عليكم هل تسمعونهم أخبروني! همساتهم تزداد تحاصرني تدخل من بين خصلات شعري تلتف حول عنقي تسحب أنفاسي تهمس في أذني! لم أعد أميز صوتهم من صوتي.

كلنا كنا نتحدث معًا!

لم أعد أسمع سوى همساتهم، همسات لا تنتهي، كأن الجدران نفسها تتنفسها معي. أنتم لا تسمعونهم، أعرف...لكنهم هنا يهمسون يتسللون إلي من الشقوق من الأرض الباردة تحت جسدي المرتجف. لا، لن أشغل الموسيقى! لا أجرؤ، لأنها إن اشتغلت، سيقتلوني!

- استفيقي!

- استفيقي!

- أعلم... أعلم... لكنني لا أستطيع. لا أستطيع. لا أستطيع!!!!!!

صوتي خرج كأن حبالي الصوتية تتمزق من الداخل ولم أدرك أنني أصرخ حتى رأيته واقفًا هناك.

رَايْفَان!

واقف عند باب الغرفة، سيجارة في يده وعيونه لا ترمش.

نظرته لم أر مثلها من قبل، وجهه جامد والغضب المتجمد في ملامحه غير حتى شكل عظامه. لم يعد هو... أو ربما هو كذلك دائمًا وأنا التي لم ألاحظ.

قفزت واقفة مرعوبة لمجرد رؤيته هناك وأنا شبه عارية لا تغطي جسدي إلا قطعة قماش خفيفة ولم يكن في جسدي أي أثر للعروق السوداء. في هذه الغرفة، أكون أنا فقط، ضعيفة حقيقية مجردة من كل ما يمنحني سلطة أو هيبة.

عندما رأيته، كتمت أنفاسي، عيناي اغرورقتا بالدموع قبل أن أفهم لماذا قلبي يدق، صدري يرتفع ويهبط بجنون، نظراته لا تتركني!

ثم رمى السيجارة وبدأ يتقدم.

لم يتكلم، لم يصرخ، لم يرمش.

كان يتقدم كأنه وحش يعرف طريقه في الظلام، لمس الجدار فانبثق منه ثمّ كاد يعضه.كنتُ أرتجف قرب الجدار، أنظر إليه وهو يدور في الغرفة، يلتهمها ببصره...

همس وهو لا يزال ينظر إلى الجدار:

- تلك الحقيرة... كانت على حق.

ثم استدار نحوي، تقدم ولم يتوقف حتى وقف أمامي مباشرة. لم يخفض رأسه نحوي... فقط نظر للأسفل، ارتجف فكيّ لكنني لم أتكلم، لم أستطع.

انتظر... طويلًا... ثم قال بصوت منخفض:

- ظننتِ حقًا أنني لم أركِ؟ لم أر ما فعلتِ؟ ظننتِ أني سأكتفي بإصدار أمر القتل ولن أراقب التنفيذ؟ أتظنين أنني أحمق إلى هذه الدرجة؟

فتحتُ فمي لأتكلم لأتوسل لأشرح... لكنه رفع إصبعه إلى فمه وقال:

- ششش... لا أريد أن أسمع صوتك، ولا حتى حرفًا يا مَلَيْكَانَا.

كان صوته جامدًا كالجليد:

أغمض عينيه، تنفس بعمق وتمررت لسانه على أسنانه وفكه كان يتحرك بطريقة تنذر بانفجار قادم ثم تابع بنبرة أهدأ لكنها تحمل بركانًا داخليًا:

- لنلخص: قتلتِ أخي ثم تركتِ صديقي الأقرب يموت ثم... ثم، الأسوأ، أنكِ خنتِني... لأجل رجل.

ضحك ضحكة فارغة ثم نظر إلي مجددًا:

- خنتِني ليس بخناجر، بل باختيارك. وضعتِه فوق أمري فوق حُكمي فوق سلطتي.

لم أعد أتحمل، شيء في داخلي كان يصرخ. حتى لو كنتُ أرتجف، حتى لو كنتُ خائفة كان لابد أن أتكلم أن أرد:

- لكنك بدأت بالخيانة! أنت من تحالفتَ مع صديقتي! أنت من أمرها بأن ترسل الهامِسُون ليقتلوني!

قال بنبرة لا ترحم:

- لم أعطكِ الإذن للكلام.

لكني صرخت:

- كانت أعز صديقاتي! كيف تفعل هذا بي؟!

- لم أعطكِ الإذن للكلام!

عيناه كانتا مغمضتين لكني واصلتُ لم أستطع التوقف. كنتُ أصرخ كأن كل شيء في ينفجر:

- أنت... أنت من بدأ! أنت الذي غدرتني أولًا!

لم أكمل.

سحبني من شعري سحبًا جعل جسدي يرتفع وجرني نحو الطاولة، بعثر كل ما عليها ثم ضغط رأسي على سطحها الخشبي بقوة وأخذ يصرخ في أذني بصوت اخترق عظامي:

- لم أعطكِ الإذن بالكلام! لم أعطكِ الإذن بالتنفس! لم أعطكِ الإذن بالتفكير! تفهمين؟ تفهمين أم لا؟!

كل كلمة يقولها كانت تزداد عنفًا وكل صرخة كانت تترافق مع ضغطة أقوى لرأسي على الطاولة حتى شعرت أني سأنفجر.

ثم رماني بجسدي المتهالك على الحائط وواصل الصراخ من أعلى قامته:

- لا تفهمين شيئًا! تتكلمين وكأنكِ تعرفين... لكنكِ لا تعرفين شيئًا! لا شيء! خنتِني! خنتِني مع رجل! أتريدينه؟ أتريدين أن يملِكَكِ هو؟!

ضرب الجدار بجانبي حتى تشقق وانفجر ثم واصل:

- أتريدينه، مَلَيْكَانَا؟ أتظنين أني سأدعكِ تملكين شيئًا؟ وعدتكِ... وعدتكِ أن أجردكِ من عرشكِ، لا عندما تكونين قوية، بل عندما تكونين عارية. وهذا ما أنتِ عليه الآن! هذه أنتِ! هذا حقيقتكِ!

ثم بدأ يلف في الغرفة، يفضحني لكل جدار لكل ظل يصرخ:

- هذه حقيقتكِ! لستِ ملكة! لستِ قوية! كل هذا كذب! كذب! كذب، وسيرى العالم هذا!

ثم أمسكني من شعري مجددًا، قبض عليه بيده كلها وبدأ يجرني على الأرض وأنا أصرخ من الألم أتشبث بذراعه أرجوه أصرخ:

- رَايْفَان، أرجوك، أرجوك، لا تفعل، لا تفعل، سيقتلونني، تعلم ذلك، تعرف ماذا سيحدث إن خرجتُ من هذه الغرفة دون عروقي دون قوتي... أرجوك، لا تفعل هذا بي!

لكنه لم يستجب، ظل يجرني كدمية قذرة وجسدي يرتطم بالأرض وأنا أصرخ:

- رَايْفَان... أنا أتوسل إليك!

ولما لم أجد سوى الجدران تصدح بصدى ألمي، قلتها.

قلتُها دون أن أفكر، قلتها كآخر طلقة أمل في قلبي المكسور:

- أحِبُك، يا رَايْفَان... أرجوك، لا تفعل... أنا أحبك!

توقف.

جسده تجمد.

كأن الزمن نفسه توقف!

استدار نحوي ببطء، ملامحه متجمدة وعيناه لا يمكن وصفها.

اقترب، رفعني بيد واحدة، ضغطني على الحائط، وجهه قرب وجهي ثم قال:

- ماذا قلتِ؟

- أ... أ... أحبك يا رَايْفَان كما لم أحب نفسي حتى، هل تفهم؟ هذه مشكلتي... أنني أحببتك أكثر مما أحببت نفسي.

للحظة، فقط لحظة، رأيت في عينيه وهجًا طفيفًا... إنسانًا خلف القناع.

عروقه السوداء خفت قليلًا، بالكاد، وجهه خف عنه الجمود، وظهر الحزن... لأول مرة، ظهر الحزن.

قال بصوت مكسور:

- أنتِ تكذبين.

- لا، أقسم، لماذا أكذب عليك؟ لماذا؟ ألا ترى؟ ألا تشعر؟ ألا ترى الحب في عيني؟

تركه رأسي، وضع يديه على رأسه، بدأ يدور حول نفسه، يتمتم كمن فقد عقله:

- لا.. لا... أنتِ تكذبين، مثلك مثلها... ستكسرينني مثلما كسرتني هي!!!

ثم عاد إلي وبدأ يضرب الحائط!

ضربة،

ثم أخرى،

حتى أصبح دمه على الحائط وأنا أرتجف، أرى المشهد دون أن أفهم كيف أوقفه. أمسكتُ يده التي تنزف، قبلت راحة كفه، بلطف، برجاء كأنني أحاول أن أزرع في جلده معنى حبي له، أن أقنعه بقلبي بدمعي بأنني لست مثلها.

نظرتُ إلى وجهه، بدأ يلين ببطء بعذاب بعينين ممتلئتين بالحيرة والألم ثم قال:

- ما أشعره تجاهك مختلف، كانت حبي الأول، لكن أنتِ... أنتِ مختلفة عنها وعن الجميع... أنتِ أذكى... أنتِ الوحيدة التي رأتني على حقيقتي... اخترقتِني... لا... لا أستطيع، هي كسرتني ونجوت، أما أنت... أنتِ مَلَيْكَانًا إن كسرتِني، إن تركتيني فلن أعيش بعدها... لن أتحمل...

- لكنك ستنجو... أرجوك، ستنجو...

قال صارخًا:

- لا، لن أنجو!!!

ثم دفعني بيديه، صرخ مجددًا وبدأ يدور ويصرخ كمن فقد عقله وكل عروقه عادت داكنة سوداء أكثر سوادًا من أي وقت مضى وقال:

- لن أسمح لكِ بالتلاعب بي! لن أسمح! سأفضحكِ كما أنتِ، الآن بلا عروق بلا قوة سأكشف حقيقتكِ لكل من سجد لكِ!

سحبني مجددًا من شعري بعنف وأنا أصرخ أرجوه أتمسك به لكن لا فائدة:

- سأريكِ كيف تكون النهاية، سأدمركِ أمام الجميع تمامًا كما وعدتكِ.

ثم... وبينما يدفعني أمامه في الممر وعيناي تدمعان وصوتي يختنق وقلبي يرتجف، جاءت الضربة.

ضربة واحدة.

لكمة ساحقة في وجهه.

توقف.

جسده ارتد إلى الوراء.

نَظَرَ... فرأى نُوفَار.

نُوفَار ضربه، بقوة... وأنا لم أصدق ما رأيت.

ركضتُ نحو الجدار، التصقتُ به، جسدي ما زال عاريًا تقريبًا بلا أي درع ولا قناع بلا حتى تلك العروق التي طالما احتميتُ بها، رأيتُهما يتقاتلان كأن كُوَسَانُوكْتِيس كلها تنفجر بين قبضتيهما لا صوت يعلو فوق صوت الضربات ولا حركة تُرى سوى الشظايا تتطاير من الجدران.

رَايْفَان كان الوحش الذي أعرفه، العينان المتقدتان كالجمر، القبضات تُطوق تُمزق تُسحق لكن نُوفَار... لم يكن أقل وحشية لم يكن أقل جنونًا كان يرد الضربات، يلتف حوله كذئب، يضرب رَايْفَان في بطنه في وجهه في صدره ثم يتراجع يبتسم.

قلتُ:

- توقفا، أرجوكم توقفا!

لكنهما لم يسمعاني.

رَايْفَان صرخ، ضرب نُوفَار على كتفه فارتد لكنه التفتَ وأخذ خنجرًا من حزامه وهجم من جديد، الخنجر مزق الجلد والدم تناثر وغطى الجدران، الأرض، حتى وجهي.

صرخت:

- توقفا... أنتما تدمران كل شيء!

لكنّ الصوت لا معنى له أمام الجحيم.

كل ضربة كانت تحمل كراهية عمرها قرون وكل صرخة كانت مرآة لألم لا يُقال.

ثم في لحظة واحدة وفيما كان نُوفَار على الأرض ويد رَايْفَان مرفوعة بخنجره، ركضتُ.

ركضتُ بينهما.

وقفتُ في المنتصف، جسدي يرتجف، يقطر دمًا، صوتي مكسور لكني صرخت:

- كفى! كفى هذا الجنون!

تجمدا.

لحظة صمت.

نَفَسي كان يلهث، رأسي يدور، جسدي يكاد يسقط لكنني وقفت.

نَظَرَ نُوفَار إلى رَايْفَان وقال بصوتٍ منخفض:

- إن أردت قتلها، فاقتلها وهي ملكة، لا وهي إنسانة... لا وهي ضعيفة!

نظرتُ إليه ورأيتُ نصف ما تبقي من عروقه السوداء تتلاشى قليلًا ببطء.

لكن عيني وقعت على رَايْفَان.

كان ينظر إلى نُوفَار كأنه يريد انتزاع قلبه بأسنانه، يرى فيه كل الخيانة كل الغضب كل ما لا يُحتمل.

ثم... نظر إلي.

نظرتُ إليه.

عيناي مليئتان بالدموع بالقهر بالخذلان.

قلتُ له بصوتٍ مكسور:

- كيف هُنتُ عليك؟

تلك اللحظة...

رأيتُ شيئًا غريبًا في عينيه، الندم؟ لا، لم يكن ندمًا، كان مجرد ومضة، لمحة واختفت بسرعة.

ثم قلتُ:

- رَايْفَان... بالله عليك... اذهب من هنا.

لكن عروقه بدأت تغلي من جديد، أكثر سوادًا أكثر كثافة.

التفتَ إلى نُوفَار، نظر إليه للمرة الأخيرة ثم التفت إلي وفي عينيه ألف عاصفة ألف لعنَة ألف غضب... ثم استدار.

ومشى.

كل خطوةٍ له كانت تُرعب الأرض تحته....

غادر وانهرتُ.

انهرتُ بين الغدر والنجاة، بين الحب والخراب، بكيتُ كما لم أبكِ من قبل، وكل ما في ينكسر، وقلبي يسقط من بين أضلعي دون أن أجد ما يُعيده.

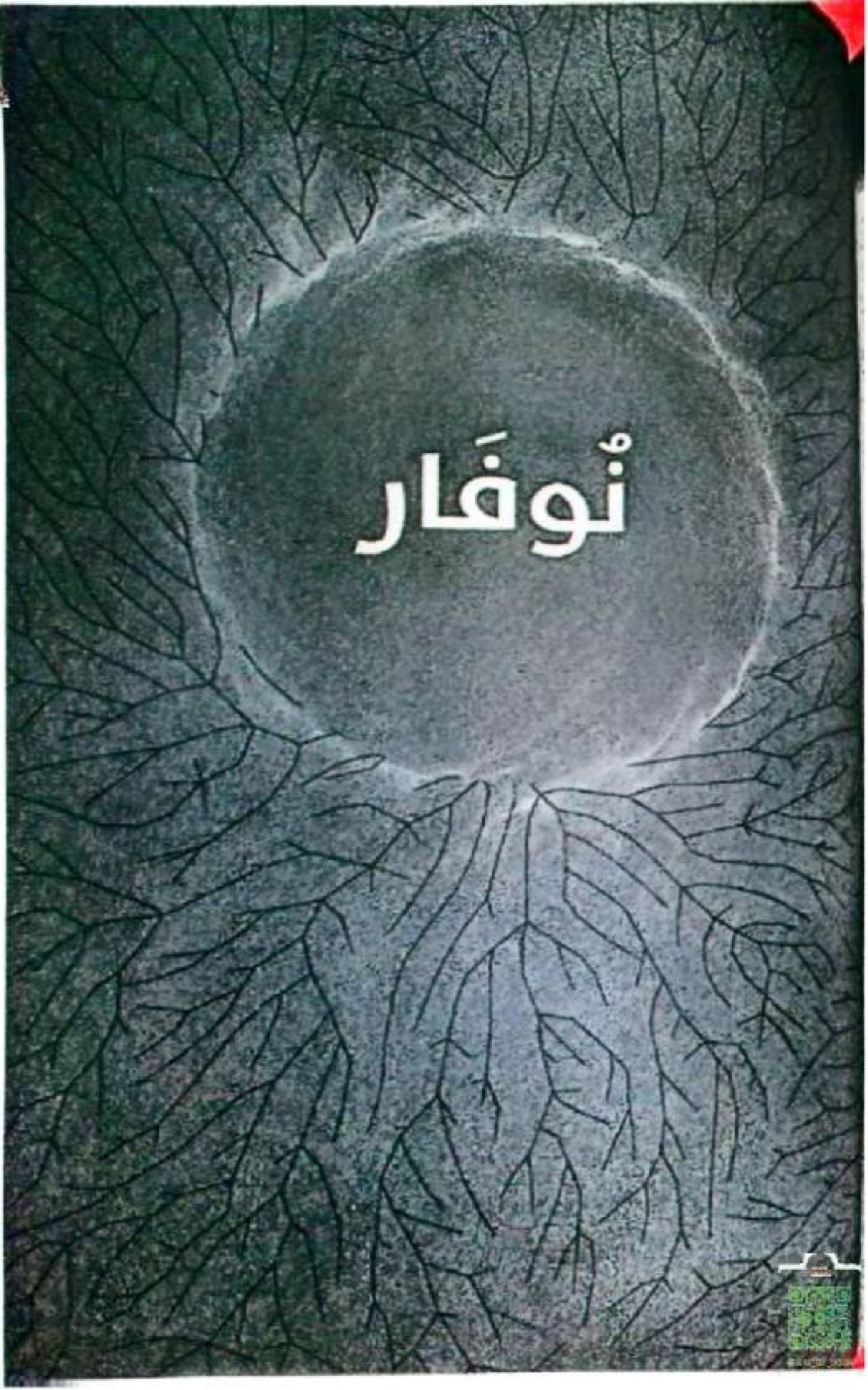
نُوفَار

رأيتُها هناك تبكي على الأرض منكفئة على نفسها يداها تضغطان على بطنها وجبهتها ملتصقة بالبلاط البارد تصدر أنينًا يشبه نحيب طفل مكسور، تبكي كما لو أن العالم بأسره ينهار داخل صدرها بلا صوتٍ واضح، فقط شهقات ممزقة. اقتربتُ منها. حاولتُ مساعدتها على النهوض فدفعتني وصرخت:

- اتركني! اتركوني كلكم! ماذا تريدون مني؟ لماذا تُلاحقونني؟ لماذا لا تتركونني وشأني؟!

لم أكن في مزاجٍ يسمح بهذه المسرحية. أمسكتُ بذراعها بقوة وجررتُها خلفي رغم صراخها ودموعها وسقتها نحو الغرفة.

أغلقتُ الباب خلفنا وما إن أُغلق، حتى بدأت تنهار من جديد:

- دعني! دعوني جميعًا! ما الذي تريدونه مني؟ لماذا الكل يحاول التحكم بي؟!

وقفتُ أمامها بجمود، وجهي كان جامدًا قاسيًا بلا شفقة بلا لين. قلتُ:

- اهدئي، يا مَلَيْكَانَا.

صرخت في وجهي:

- لا! لن أهدأ! ما الذي تريدونه مني؟!

اقتربتُ منها. أمسكتُ فمها بيدي وقلتُ بصوت منخفض حاد:

- توقفي عن الصراخ، يجب أن تستعيدي نفسك فورًا!

نظرتْ إلي بعينين مليئتين بالدموع... ثم عضتني.

سحبتُ يدي ببطء، لم أصرخ، فقط غمغمتُ بغضبٍ مكتوم.

قالت وهي تبكي:

- لماذا أنقذتني؟ لماذا لم تتركني له؟ كنتُ أظنك أنانيًا لا ترى سواك. لماذا أنقذتني؟

نظرتُ إليها طويلًا، ثم قلت:

- لم أتحمل رؤية كل هذا الغباء في جسدٍ واحد.

لكن فجأة، سمعنا الطرق على الباب.

نظرتْ إلي والهلع في عينيها. لا عروق سوداء لا قوة لا هيبة. كانت كفتاة صغيرة ترتجف.

نظرتُ إليها، تنهدت. اقتربت من الباب وفتحته.

كانت لازار.

حدقتْ نحوي، ثم قالت بنبرة مشحونة:

- أين مَلَيْكَانَا؟

قلتُ لها ببرود:

- ماذا تريدين؟

- لا تتهرب. أين هي؟ ولماذا أنت هنا؟ إن لم تجبني، سأستدعي الهامِسُون!

قبل أن أفتح فمي، خرج صوتٌ من خلفي:

- ماذا تريدين لازار؟ أنا مشغولة.

بدت لازار مذهولة، ثم قالت:

- دخلَت روحٌ جديدة... لكنها ليست كغيرها.

ردت مَلَيْكَانَا بلهجة حادة:

- وهل كل من دخلوا قبلها كانوا طبيعيين؟

ثم أغلقتُ الباب دون أن أنبس بكلمة.

التفتُ إليها كانت تجلس على الأرض، متهالكة، تبكي.

قالت بصوت مكسور:

- لا أحد يعرفه كما أعرفه... لماذا فعل بي ذلك؟ لماذا علي أن أدفع ثمن ما فعلَتْهُ هي به؟ لماذا أُجلَد أنا على خطيئة لم أرتكبها؟ كل ما فعلتُه أنني أحببته رغم ما فعله بي أمام تلك البوابة اللعينة. لكنه ظل يشك في حبي بلا دليل! كان يجب أن أقتله بعد خيانته. لكنني تحايلتُ على القوانين بقتل أخيه حتى لا أقتله هو! هو الذي دفعني لخيانته بعد أن خانني مع أقرب صديقاتي! ماذا يريد مني؟ ها؟ ماذا يريد؟

كانت الكلمات تخرج من فمها مشوهة مخنوقة بالبكاء والذل لكن خلفها، كنت أرى شيئًا آخر: نيرانٌ كانت تلتهمها من الداخل ونظرةً مسمومة صوب الباب... صوب لآزار، تلك التي كانت تبتعد بخطاياها.

رأيتُ الحقد في عينيها، الغضب القاتل، كانت تهمس بين شهقاتها:

-الخائنة، تلك الكلبة! أقسم أنني سأمزقها سأُخرج قلبها من صدرها بيدي سأُسكت ضحكتها للأبد...

لكنها لم تتحرك لأنها كانت بلا عروق بلا قُدرة بلا حماية. كانت تعرف لو خرجت الآن، لو واجهتها على هذه الهيئة لربما استغلت لآزار اللحظة وربما استدعت الهامِسُون، ربما وشَت بها أمام المجلس أو جرتها أمام الجموع لتفضحها، لتعلن انهيار الملكة.

وقفتُ أمامها، ثم نزلتُ إلى مستواها، ركبة واحدة على الأرض.

قلتُ بهدوء لا يخلو من الحدة:

- انظري إلي.

لم تفعل.

قلتُ مجددًا، بنبرة صارمة:

- انظري إلي!

ارتجفت ثم رفعت عينيها نحوي.

قلت:

- اسمعيني جيدًا، هناك روح جديدة دخلَت. سأكون واضحًا تمامًا، إما أن تنهضي الآن...

لكنها لم تتركني أكمل، بدأت تنهار... بكاء هستيري... انفجارات متتالية من الندم والعجز.

اضطررتُ أن أحملها، وضعتُها على السرير لكنها صرخت:

- كفى! أنت لا تعرف شيئًا! لا تفهم ما عِشناه!

- استعبدي نفسك! أنتِ الملكة أم لا؟ إن رأتك الأرواح هكذا، ستحترقين، تفهمين؟!

أمسكتُ فكها بيدي الاثنتين، ضغطتُ عليه بقوة وقلت بصوتٍ مهددًا:

- إما أن تنهضي فورًا وتسترجعي تلك العروق اللعينة الآن، أو والله لأجلدنك بحزامي حتى أرسمها على جسدك بيدي!

نهضتُ.

نزعتُ الحزام.

لففتُه حول يدي.

أمسكتُ بها، قلبتُها على بطنها.

رفعتُ يدي، كنتُ مستعدا للضربة الأولى.

فصرخت:

- لا! أرجوك! حسنًا!

قلتُ:

- حسنًا ماذا؟

- سأسترجع عروقي، سأفعل، سأفعل.

أمسكتُها من ذراعها، أقمتُها.

الحزام لا يزال في يدي.

قلت:

- أنا لا أتحمل الضعف، لا أحتمله. هل تفهمين؟

نظرتْ إلي بعينين بريئتين مذعورتين.

هزت رأسها.

قلت:

- أريد كلمات.

همست:

- نعم.

قلت:

- إذًا، افعلي.

فأغمضتْ عينيها لحظة واحدة ثم تذكرت شيئًا، لا أعلم ما هو بالتحديد لكنني رأيتُ العروق تعود إلى جلدها تدريجيًا، مسحت دموعها وإذا بـغازولا تقترب من الشرفة فسارعت مَلَيْكَانا ترتدي عباءتها السوداء قفزت على ظهرها وبضربة جناحين ارتفعت في الهواء، فيما أنا اتجهت نحو سُوبُكْتِيس.

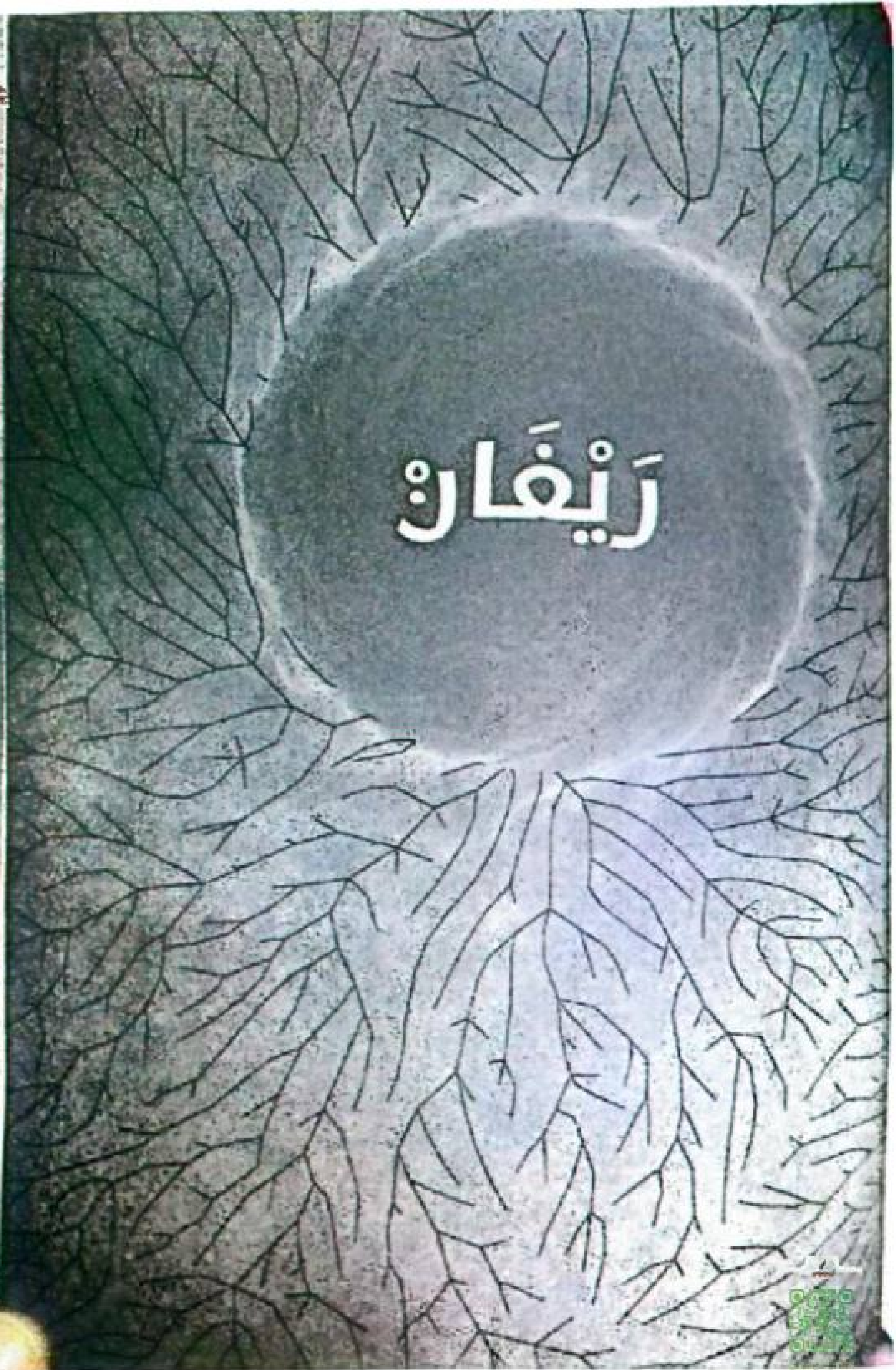
رَيْفَارْ

وقفتُ في مكاني أراقب المشهد وعيناي معلقتان ببوابة الدخول أترقب قدوم الروح الجديدة. لم أكن بحاجة إلى أن يشرح لي أحد... أحيانًا، يكفي أن تشم الرائحة لتعرف أن الدم سيُراق.

ثم ظهر.

رجل في أواخر الثلاثينيات طويل القامة عريض الكتفين لكنهما مثقلان بسلاسل حديدية سميكة أطرافها مثبتة حول أعناق بشر يزحفون خلفه ككلاب منهكة. امرأة، رجل مسن، طفلان، شابان في مقتبل العمر... كلهم بوجوه شاحبة بجلد مشدود على عظامهم وعينين فارغتين يغزوهما الخوف. كان يمشي وكأن الأرض ملكه، رغم أن السلاسل تجر معه أحباءه وأصدقاءه وخدمه وأي شخص امتلكه يومًا أو ظن أنه ملكه. كان يكرر بصوت عميق واثق:

-كل شيء تحت السيطرة!

ثم يشد السلاسل فجأة فيختنق أحدهم ويسقط أرضًا بينما هو لا يتوقف عن المشي، بل يسحب الجسد على التراب كما لو كان شيئًا عديم النفع.

في نفس الوقت ظهرت مَلَيْكَانا على ظهر غازولا، تنزل ببطء يشبه النزول إلى مسرح جريمة مُقدرة منذ زمن. كانت عباءتها السوداء تلامس الأرض قبل قدميها وعيناها تتجولان في الساحة حتى استقرتا علي. نظرتُ إليها... نظرت إلي... ثم تحولت عيناها إلى ذلك الرجل الذي تجمد مكانه لحظة وهو يراها، قبل أن تعود وتحدق إليّ من جديد، نظرة قصيرة لكنها مشحونة وكأننا تبادلنا اعترافًا صامتًا: هذا ليس اختبارًا عاديًا.

أنا كنت أعرف... وهي كانت تعرف.

اقتربت منها هامِسَة ملامحها متحفزة وهمست:

- إنه رجل عاش حياته كلها مسيطرا على كل شيء لا يثق بأحد لا يترك شيئًا للمصادفة... يفرض الخضوع بالقوة ويُسقط أي يد تحاول أن تتحرر من قبضته. جعل حياة كل من حوله جحيمًا باسم النظام!

لم ترد مَلَيْكَانَا... لكنها عادت لتنظر نحوي من جديد، نظرة تقول إننا نقرأ نفس الصفحة من كتاب قديم نعرف نهايته سلفًا.

تقدم الرجل نحو مَلَيْكَانَا بخطوات ثقيلة، عيناه تلمعان بوهج مسموم، فيه شيء من الجنون وشيء من النشوة، ابتسامة وُلدت في فم شيطان وانسكبت على وجهه ثم قال:

- أوه... ستكونين أجمل بكثير خلف إحدى هذه السلاسل، كسر ملكة قوية والسيطرة عليها أحد أعظم... أحلامي.

كلماته كانت كصفعة على عصب مكشوف أورثت في داخلي عاصفة، شعرتُ بقبضتي تشتهي عنقه لكن قبل أن أتحرك، مَلَيْكَانَا لم تمنحه حتى شرف الرد. لم تبتسم لم تغضب فقط نظرت إليه وكأنها تُفرغه من خياله عنها، تقتلع صورته من رأسه قبل أن تكتمل. رفعت يديها ببطء نحو السماء وعيونها انقلب بياضها كاملًا وفي اللحظة نفسها انقلبت عينا الرجل إلى نفس البياض الشاحب، تجمد جسده، وسمعتها تصرخ بصوتٍ ارتد في كل زاوية من كُوْسَانُوكْتِيس:

- الاختبار النفسي... يبدأ الآن.

رأيتُ الرجل يُنتزع من واقعه ليجد نفسه مكبلًا بالسلاسل نفسها لكن هذه المرة الأطراف الأخرى تمسك بها! وجوه يعرفها: زوجته التي لم يثق بها يومًا، أبناؤه الذين رباهم على الخوف، موظفوه الذين حطمهم؛

أصدقاؤه الذين استغلهم. كانوا يبصقون في وجهه، يشدون عنقه حتى يختنق ويختل توازنه. صراخه كان وحشيا، خليطًا من الغضب والإهانة لكن الأكثر إيلامًا كان الكلمات التي قُذفت في وجهه:

- أنت لم تكن رجلًا، كنت سجانًا!

- لم تحب أحدًا... حتى نفسك لم تحبها!

- أنت لم تسيطر... كنت تعيش أسير خوفك!

كنت أراقب وفي داخلي شيء بدأ يتحرك. المشهد كان كأنه يُعاد من ذاكرة بعيدة... صور غائمة لوجهي أنا في نفس الوضع قبل قرون مكبلًا ليس بسلاسل حديدية، بل بأوامر لم أجرؤ على كسرها بأوهام أن السيطرة تحميني.

لم تكن مَلَيْكَانَا هي من وضعتني يومها في ذلك الجحيم النفسي، بل أحد المعذبين الذين لم تكن لهم أسماء بعد لكنها كانت هناك واقفة على الهامش بلا عروق سوداء بعد أن تخلصت منها إثر نجاحها في امتحانها النفسي والجسدي، تحدق إليَّ بتمعن بعينين مليئتين بالمحبة والأمل أن أنجح لنخرج معًا.

عاد وعيي إلى الساحة مع صرخة حادة منه، صرخة اهتزت لها الساحة لكنها لم تكن صرخة ألم الجسم، بل صرخة من انكسرت هيبته. ركبتاه لامستا الأرض وأصواتهم تلتف حوله كسياط، كلماتهم تخترق أعمق مما تفعل السيوف:

-أنت ضعيف، أنت غبي، لا تستطيع أن تسيطر على شيء، مجرد رغبتك في السيطرة ضعفٌ بحد ذاته، أنت جبان!

كانت الكلمات وحدها تجرده من عرشه، تمزق ما بناه من سلطة في عيونهم وكل جملة كانت تدوس على كبريائه وتقهره أكثر من أي سلاح ومع ذلك كان يصرخ مبحوح الصوت:

- أنا المسيطر، أنتم جميعًا تحت أمري!

فتحت مَلَيْكانًا عينيها وتلاقت نظراتها بعينيه اللتين ما زالت شظايا الجنون تتراقص فيهما ثم قالت بصوت منخفض حاد:

- لم تخسر لأنهم أهانوك، بل لأنك حين فعلوا وفقدت السيطرة عليهم وعلى كلامهم، تمسكتَ بكذبة أنك ما زلت تتحكم ورفضت أن تعترف أنك فقدت السيطرة، ولهذا فشلتَ في الامتحان النفسي.

ثم التفتت نحوي وفي ملامحها قلقٍ يتسرب بصمت، تقيس في داخـلها ما إذا كنتُ مستعدًا لما سيأتي.

اقتربتُ منه بخطوات بطيئة وكنت أسمع ضحكته قبل أن أرى فمه ينفتح، ضحكة ساخرة ثقيلة. رفع رأسه نحوي وعيناه مشبعتان بتحد وقرف وقال بصوتٍ غليظ وهو يبتسم:

- تظن أنك تملك سيطرةً أكبر مني؟ تظن أنك سيد هذا العالم؟ يا لك من أحمق.

كلماته حفرت في أذني مثل مسامير صدئة، شعرت بحرارة تتصاعد في صدري ليست لهبًا ظاهرًا، بل نيرانًا مكتومة، غضبًا كثيفًا يتجمع في عروقي، لم أرد لم أفكر لم أفعل سوى أن رفعتُ رأسي إلى المأمون وقلت بصوتٍ قاطع حاد:

- قيدوه كما تُقَيد الكلاب.

اندفع اثنان منهم وأمسكوا به، دفعوه أرضًا، ركعوه حتى التصقت جبهته بالتراب، شدوا معصميه خلف ظهره بسلاسل ثقيلة وكنت أرى

في عينيه ذلك البريق المريض الذي يصرخ: «لن تسيطر علي» وفي تلك اللحظة انفتح جحيمه ليس جحيم النيران، بل جحيم الخيانة والتمرد جحيم كل من كان يملكهم بالأمس وهم الآن ينهشون يتمردون عليه.

كانت زوجته أول من تقدم، لم تكن تبكي أو ترتجف، بل كانت تمشي بخطوات واثقة وإلى جانبها رجل ضخم الكتفين، عيناه تتفحصانه من أعلى رأسه إلى قاع ذله، توقفت أمامه وأمسكت ذقنه بيدها، ابتسمت بازدراء وقالت:

- أظننت أنك حين تأخذ مني هاتفي وتغلق علي الأبواب وتعد أنفاسي أنك منعتني من الخيانة؟ كنتَ أحمقا... كنت أفعل كل ما أريد وأنت لا تعلم وها أنا أمامك مع من اخترته أنا لا أنت.

ثم انحنت، وضعت يدها على كتف عشيقها وضغطت بقوة على رأس الرجل الراكع حتى اصطدم فكه بالأرض والألم جعل صوته يتقطع لكنه ما زال يهمس بصوتٍ مبحوح:

- أنا أتحكم في عقلك! أتحكم فيك! أنتِ ملكي!

لم تكتفِ بالكلمات، بل أمسكت السلسلة الملفوفة حول عنقه وأحكمتها حتى ازرق وجهه وتورمت شفتاه ثم تركت لعشيقها الفرصة أن يركله في أضلاعه ركلات متتابعة حتى سمعت الطقطقة الحادة للعظام وهي تتشقق وكنت أرى الدم يخرج من فمه على شكل خيوط لزجة سوداء تتساقط على التراب المبتل.

كنتُ أقول في نفسي في تلك اللحظة إنه لا بد أنه شعورٌ مروع أن يفقد المرء السيطرة على زوجته، كان عليه أن يُحكِم قبضته عليها أكثر، أن يقيدها أكثر، أن يقطع عنها كل منفذ، أما أن يراها الآن مع عشيقٍ

لها... فذلك جحيم لا يُحتمل! لم أتحمله حتى وأنا أراه عند غيري، أنا من يُنزِل به هذا العذاب، لكن شيئًا ما في داخلي كان يحترق رغمًا عني.

ثم جاء أبناؤه، ليسوا أطفالًا أبرياء، بل وحوشًا صغيرة بملامح بشرية، كانوا يضحكون ضحكات مخيفة وهم يجرون معهم مجموعة من أصدقائهم كل واحد منهم يحمل شيئًا يقطر تهديدًا، زجاجات مكسورة مسامير صدئة إبرًا غارقة في سوائل عكرة، اقترب أكبرهم منه، انحنى على أذنه وقال وهو يبتسم ابتسامة باردة:

- كنت تمنعنا من الذهاب إلى أعياد الميلاد من اللعب من التنفس، كنت تحبسنا كالحيوانات ومع ذلك كنا نتعاطى المخدرات تحت أنفك... حتى في بيتك.

ثم أخذ حقنة مملوءة بسائل أسود وغرزها في عنق أبيه ببطء متعمد، ضغط حتى دخلت كل القطرة في دمه فارتجف جسده وبدأ يتلوى وهو يصرخ، فجاء الآخرون، أحدهم غرز الزجاج في ذراعيه وفخذه، آخر عضه في كتفه حتى نزف والثالث بدأ يكسر أصابعه واحدًا تلو الآخر ببطء شيطاني، بينما الرابع صب سائلًا مغليًا على قفاه فتصاعد بخار حارق وصرير جلده وهو يتقشر وكلهم كانوا يرددون في وجهه:

- لست إلاهًا، لا تتحكم بنا، أنت لا شيء!

ثم أمرتُ موظفيه الذين كان يتحكم في أنفاسهم بالتقدم فسحبوه من قدميه ورفعوه عاليًا في الهواء وهم يضحكون بغل ويقولون:

-كنتَ تظن أنك تتحكم بنا؟ تعاملنا كالعبيد تحرمنا من الإجازات تُذلنا في العمل، ها هو مصير أوراقك التي كنتَ تقدسها!

ثم هشموا رأسه بالأرض كما لو كانوا يحطمون تمثالًا وأحدهم وضع حديدة محماة على صدره ففاح دخان من جلده وآخر مزق جلده بسكين

مدبئة ثم ألقوا عليه أوراقًا تحترق فاشتعلت نار صغيرة بدأت تأكل قميصه وتصل إلى جلده لكنه رغم كل ذلك ظل يصرخ وهو ينزف:

- أنتم تحت أمري... كلكم... كلكم!!!

كنت أراقب وأنا أشعر بذلك الخيط الدقيق في رأسي يشد وكل مشهد يعيد إلي الإحساس الذي حاولت دفنه، إحساس تلك اللحظة التي شعرت فيها أن قبضتي على كل شيء تتراخى، في ذلك اليوم البعيد... منذ ألفي عام حين اجتزت اختباري، كان ذلك الصوت يصرخ من بعيد:

- إنه مجرد وهم، قاوم، لا تفقد السيطرة يا رَيْفَانْ! أنا هنا!

وكنت أرى وجه مَلَيْكَانَا هناك بلا عروق بلا تاج لكن بعينين تضجان بالإصرار وفيهما أمل غريب بأن أنهض أن أنجو أن أخرج معها. والآن، وهي تقف على طرف الساحة، كنت أرى ومضة من ذلك اليوم في عينيها، نفس اللمعان لكن خلفه ظل قلقٍ ثقيل كأنها بدأت ترى ما أنا على وشك أن أراه.

اقتربتُ أخيرًا من الرجل ووضعتُ يدي على ركبته المثنية، دفعتُه للأسفل حتى التصق وجهه بالتراب وقلت ببرودٍ يقطع الهواء:

- لقد خسرتَ الاختبار الجسدي لأنك فقدت السيطرة ومع ذلك رفضت الاعتراف، السيطرة ليست مطلقة، هناك أشياء تفلت من يدك وأنت لا تقبل هذه الحقيقة وهذه هي هزيمتك.

رأيتُ من زاوية عيني مَلَيْكَانَا تقترب ببطء بخطوات هادئة كما تفعل دائمًا حين تتهيأ لإعلان الحكم لِتترك غَازُولا تمزقه، لكن قبل أن تصل، رفع الرجل رأسه ببطء والدم الأسود يتساقط من فمه على الأرض وابتسامة ملتوية تشق وجهه وهو يهمس بصوتٍ أجش:

- والسيطرة عندك أنت؟ تظن أن جيشك هذا تحت قبضتك؟ أنك تمسك بزمام هذا العالم كما تشاء؟

تشنجت أصابعي على خنجري لكني لم أخرجه، انحنيت نحوه قليلًا وقلت بنبرة غاضبة:

- كف عن الكلام.

ثم التفت إلى أحد الدامُون القريبين وأشرت بيدي:

- أنت... اقترب وعاقبه على كلماته فلا أرغب في أن أوسخ يدي.

تحرك الجندي فورًا كما يفعل دائمًا لكن خطواته كانت بطيئة، ساقه المعدنية تضرب الأرض بإيقاع ثقيل والجرح القديم في فخذه يجعله يجر قدمه الأخرى، مشهد مألوف، كان علي أن أراه طبيعيًا.

لكن كلمات الرجل كانت ما زالت تلسع عقلي: تظن أن جيشك هذا تحت قبضتك؟

وفجأة صار بطء الجندي في رأسي ليس جرحًا ولا عجزًا... بل تمردًا، إهانة علنية أمام الجميع، طعنة في ظهري.

شعرت بالدماء تصعد إلى وجهي، أنفاسي تتسارع وصوت داخلي يصرخ: أنت تفقد السيطرة! هو لا ينفذ أوامرك كما ينبغي، بدأوا جميعًا يفلتون من يدك!

أمسكت مقبض خنجري، نظراتي ثابتة على خطواته المتثاقلة ولم أسمع شيئًا سوى دقات قلبي وهي تضرب صدري مثل الطبول قبل المعركة.

وفي لحظة واحدة دون أن أترك له فرصة ليصل أو يشرح، كنت قد اندفعت نحوه كما يندفع الذئب على فريسته، رفعت خنجري بكل ما في جسدي من غضب وغرزته في صدره حتى شعرت بالمعدن يخترق اللحم

يخرج من ظهره، الصرخة التي خرجت من فمه كانت قصيرة مقطوعة تلاها صوت سقوط جسده على الأرض وارتطام الحديد بالحجارة.

رفعت بصري فرأيت أعين بقية الدَامُون تتسع تلمع للحظة بوميض غريب... ربما كان وهمًا لكن عقلي المشبع بكلمات الرجل لم يترك لي خيارًا آخر سوى أن أقرأها كإشارة خيانة.

ها هم... بدأوا يفلتون من يدي واحدًا تلو الآخر.

في تلك اللحظة، صوت الرجل عاد يخترق أذني كسم بارد:

- قلت لك، أنت لا تتحكم فيهم أنت تظن فقط!

التفتُ نحوه، كان ما زال على ركبتيه الدم يغطي نصف وجهه لكنه يبتسم، أسنانه المكسورة تتلألأ وسط السواد وعيناه تشعان بالشماتة.

الضيق في صدري تحول إلى انفجار، قبضتي اشتدت على السلاح حتى شعرت بعظام يدي تحت الجلد ورأيت صورًا تتراكب في رأسي: وجه مَلِيكَانَا بلا عروق واقفة على الهامش تصرخ: رايفان! إنه وهم! استفق!

عدتُ الى الحاضر المؤلم وصرخت:

- أنتم جميعًا تحت أمري! جميعًا! أتفهمون؟!

اندفعت إلى أقربهم،

طعنة في البطن،

أخرى في الصدر،

جمجمة تتحطم تحت كعب قدمي،

جسد يتدحرج على الأرض يترك أثرًا من الدم واللحم الممزق والرجل الموثق خلفي يضحك كأن المشهد كان انتصاره الشخصي.

رأيت اثنين من الدَّامُون يتبادلان نظرة سريعة لكنها كانت كافية لتمزيق ما تبقى من عقلي، هرعت نحوهما أمسكت رأس أحدهما وضربته بالحجارة حتى تحولت ملامحه إلى عجينة دموية، الآخر حاول الصد لكن خنجري مزق يده من المعصم وصرخته اخترقت الفوضى كالسكين.

- رَايْفَان! ما الذي تفعله؟! توقف، إنك تفقد السيطرة!

صوت مَلَيْكَانَا عاد يخترق رأسي يختلط مع صرخات الماضي، معها وأنا في امتحاني، الأرض تهتز تحت قدمي، الجنود يسقطون وأنا أضرب، أضرب، أضرب....!

لم أعد أسمع سوى ضحك الرجل وهو يهمس:

- أنت مثلي... لا أحد يسيطر حقًا.

وأنا أصرخ:

- لا! أنا المسيطر هنا! أنا أسيطر!

عيني التقت بعين مَلَيْكَانَا، كانت تتقدم الآن لم تعد واقفة على الطرف وجهها مزيج من الغضب والخوف، تلوح بيدها وهي تصرخ:

- رايفان! استفق!

لكن أصوات الجنود المحتضرين وصوت الرجل المقيت كانوا يغرقون صوتها حتى صارت حركتها تتباطأ كأننا في عالم منفصل.

كنتُ أتنفس كوحش محشور في قفص يضيق من كل الجهات، العرق والدم يختلطان على وجهي والخنجر في يدي صار امتدادًا لذراعي لا أستطيع التفريق بينه وبيني ثم جاء صوتها مرة أخرى:

- رَايْفَان، تذكرماذا حصل منذ ألفي عام، تذكر صوتي تذكر كيف اجتزتَ ذلك الاختبار يومها كيف قاومت!

كان صوتها يومها كالماء البارد على جمر روحي فاستفقت نهضت، مزقت الوهم وانتزعت النصر من فم الهزيمة.

لكن الآن... الآن لم يكن الماء البارد كافيًا.

كنت أسمعها وأسمع الرجل خلفي، صوته يلتف حول عنقي كأفعى:

- أنت مثلي، ستسقط وستخونك كما خانتك الحياة، ستذبحك ولن ترحمك!

التفت نحوها فرأيتُها تقترب بخطوات سريعة لكن عقلي المشتعل رسمها وهي تخفي خنجرًا خلف ظهرها ورسم عينيها تلمعان بشهوة لرؤية دمائي ورسم ابتسامة على وجهها لذلك اليوم الذي ستتركني فيه وحيدًا. صرخت:

- ابتعدي! أنتِ أيضًا ستخونينني، قتلت كل أحبائي!

وانفجرت من جديد.

طعنة في صدر جندي، سيف يشق عنق آخر، جسد يُسحق تحت قدمي، الدم يتطاير كسيل أسود على وجوه الجنود وصرخاتهم تتداخل مع ضحك الرجل، ومع همسات الشك التي تنخر جمجمتي.

فجأة، التمرد أصبح حقيقيًا...

في زاوية الساحة بدأت غَازُولا تتحرك، جسدها يزحف ككتلة من العظام والجلد المشدود، جنود الدَامُون والهامِسُون يتبادلون النظرات الغاضبة، خطوة إلى الأمام ثم خطوة أخرى كأنهم يقولون: يجب أن نوقف هذه الكارثة، إنه يفقد السيطرة، لم يعد ممسكًا بزمام الأمور، يجب قتله.

مَلْيكَانَا صرخت:

- تراجعوا! هذا أمر!

لكنهم لم يتوقفوا والفوضى بدأت تلتهم الساحة.

الرجل يضحك، يصرخ بي:

- انظر! لم تعد تسيطر!

كنتُ أصرخ أعلى منه، صوتي يتمزق:

- أنا أسيطر! أنا أسيطر!

لكن الحقيقة كانت كالسكين تتغلغل في صدري: أنا كنت أفقد كل شيء وأنا أحاول الإمساك بكل شيء.

الصرخات، ارتطام السيوف، وقع أقدام الجنود المندفعين، زحف غَازُولا نحو الدائرة، صوت مَلَيْكَانَا وهي تصرخ بهم وتصدهم بجسدها:

-ابتعدوا، هذا أمرٌ من ملكتكم، أمنعكم من الاقتراب منه!

كل شيء امتزج في جحيم واحد.

ثم... سقطت على ركبتي.

يدي ارتجفت،

الخنجر انزلق مني،

وضعت كفي على الأرض الملطخة بالدماء وانفجرت أبكي... أصرخ... أكرر كالمجنون:

- يجب أن أسيطر... يجب أن أسيطر...!!!!

الرجل كان أمامي، عيونه تتقد بالسخرية، صوته يخرق كل دفاع فيّ:

- لا تسيطر على شيء... لا تسيطر على نفسك حتى.

عدتُ أصرخ:

- لا...لا...لا!!!!

ثم فجأة...عم الصمت.

كأن العالم كله توقف، كأن الهواء تجمد، لا صوت جندي، لا صوت نزول، لا صراخ، لا ضحك... ولا حتى صوت الرجل.

رفعت رأسي...

مَلْيكَانَا كانت واقفة أمامه، يدها مغروسة بخنجر في عنقه والدم الأسود يتفجر حول أصابعها، وجهها مبهوت بما اقترفته للتو، عيناها ثابتتان لا ترمشان وهو يختنق...

لم تقل كلمة ولم تنطق بالحكم كما تفرض القوانين، فقط أنهت حياته...

وكلنا نعرف تمامًا ما يعنيه ذلك!

استدارت مَلْيكَانَا نحوي ببطء والدم الأسود ما زال يقطر من الخنجر الذي كان مغروسًا في عنق الرجل، أصابعها متيبسة لم تتحرر بعد من لحظة الطعنة وملامحها ترتجف ارتجافًا خفيا بين الصدمة والوعي الثقيل بما اقترفته.

كانت تنظر إلي وكأنها تبحث في وجهي عن إجابة، عن شيء لم تجرؤ على سؤاله بصوت مسموع، وسمعتها تقول، بصوت خافت لكنه مشدود كوتر:

- زَايْفَان... هل أنت بخير؟

ذلك السؤال... لم يكن من المفترض أن يُطرح علي هنا، ليس بهذه الطريقة ليس بهذا الارتجاف الخفي في نبرتها ليس والدم ما زال يلمع على يدها وهي تحاول أن تتنفس بانتظام. عيناها كانتا أوسع من المعتاد، أوسع حتى من يوم رأتني أختنق في امتحاني القديم، فيهما ومضة أعرفها جيدًا، ومضة لم تكن لتظهر لو كانت كما تدعي... بلا شعور.

شعرتُ بصدري يضيق فجأة، بالهواء يثقل في رئتي وكل ما حولي صار أبطأ... صوت أنفاسها، ارتعاشة كتفيها، الخيط الرفيع من الدم الذي انحدر على ساعدها وسقط على التراب بين قدميها. لم يكن يجب أن أرى كل هذا لم يكن يجب أن أرى مَلَيْكَانَا بهذه الصورة، صورة ليست باردة ولا مهيبة، بل... بشرية.

شيء في داخلي بدأ يصرخ: لا... لا... هذه ليست حماية، ليست إنقاذًا، هذا إذلال، هذا كسر، هي توقف الفوضى لتقول لي أمامهم جميعًا: «أنقذتك لأنك لم تستطع أن تفعلها بنفسك» كأنها سكبت السم على سلطتي أمامهم!

لكن أين عروقها؟ جسدها خالٍ منها تمامًا. لا أثر لخط أسود واحد وهي واقفة هناك متشبثة بخنجرها لا تدري حتى أن هذا حدث. أما أنا... فأشعر ببرودة على جلدي حيث نصف عروقي قد اختفى. الكل يراها. الكل يرى الفارق والهمسات بدأت بالفعل تتحرك بين الصفوف.

أحسستُ أن الأرض تحتي تميل قليلًا. أن توازني يتداعى ففعلت ما كان علي أن أفعله. أغلقت عيني، نبشت في داخلي حتى وجدت ذلك الظلام الذي لا يخذلني أبدًا واستدعيتُه كله من الماضي والحاضر والجرح، من كل مرة خانتني الحياة، من كل يد سحبت سيفها في وجهي، حتى شعرت بالدم يغلي في عروقي، حتى امتلأت يداي بذلك الثقل الحارق، وحين فتحت عيني... كانت كل عروقي قد عادت دفعة واحدة.

ورأيتها... رأيتها تجحظ عيناها بدهشة لم تستطع إخفاءها، رأتني أعود كاملًا، أسودا كما كنت وأغلقت عينيها في محاولة لاستعادة ما فقدته هي لكن عروقها لم تكن سريعة، كانت تبدأ من قدميها وتصعد

ببطء شديد، بطيء بما يكفي لأن أمد يدي وأمسك بذراعها قبل أن تصل حتى إلى ركبتيها.

- ماذا تفعل؟! صرختها كانت عالية بما يكفي ليتوقف بعض الهمس لكنها لم توقفني.

رفعت صوتي فوق كل الأصوات في الساحة:

- انظروا إليها...

ورأيتُ الرؤوس تلتفت، الأعين تحدق، أذرع تتوقف في منتصف الحركة.

- ملكتكم بلا عروق. هذه التي بنت عرشها على موت الشعور على صقيع القلب على القسوة التي لا تلين... ترونها الآن، هنا، أمامكم، كما لم تروها من قبل. أنتم ترونها، ترون الحقيقة التي حاولت إخفاءها عنكم ألفي عام، الحقيقة التي كنت أصرخ بها وحدي بينما كانت هي تتزين بأكاذيبها، ترتدي قناع الجمود وتبيع لكم وهْمَ أنها لا تشعر.

صوتي اخترق الساحة وكنت أشد ذراعها نحوي كأنني أقدمها لهم قربانًا وهي تحاول أن تتخلص من قبضتي بلا جدوى.

الهمسات صارت كلمات والكلمات صارت صرخات متقطعة:

- هي تشعر!

- خدعتنا!

- كذبة على كُوسَانُوكْتِيس بأكمله!

حاولت أن تتكلم أن ترفع صوتها فوق أصواتهم:

- زَايْفَان أرجوك، توقف، لقد أنقذت حياتك للتو!

لكنني قطعت كلامها بضحكة قصيرة، ساخرة:

- أنقذتني؟ لا... لقد أوقفت الفوضى لأنك أردتِ أن تظهري أمامهم بأنكِ صاحبة اليد العليا، أنكِ أنتِ من تحكم حتى مصيري.

ارتفع الضجيج من حولنا أكثر. رأيتُ غَازُولا تتحرك على الحواف والدَامُون والهامِسُون يتبادلون النظرات ثم خطوة إلى الأمام ثم أخرى كما لو أن شيئًا يوشك أن ينفجر.

شدت ذراعها فجأة محاولة أن تفلت مني:

- أتركني! سيقتلونني!

لكنني رفعت صوتي من جديد موجهًا كلامي إلى كل من في الساحة:

- هل ستسمحون لملكة كاذبة أن تحكمكم؟ هل ستسمحون لمن تدعي أنها لا تشعر، بينما قلبها يرتجف أمامكم، أن تكونوا تحت سلطتها؟

وهنا تحولت الهمسات إلى موجة عارمة من الصياح، الأقدام تضرب الأرض، الأسلحة ترتفع، غازُولا تزحف أسرع والوجوه ملتوية بالغضب واليقين أن ما أقوله هو الحقيقة.

رفعتُ صوتي فوق أنفاسها المرتجفة، موجهًا الكلام إلى كل من في الساحة:

- كل ما رأيتموه... كل هذا الامتحان هذه الفوضى الدماء الجنود الذين سقطوا، جنوني وأنا أضرب وأمزق لم يكن سوى مسرحية، مشهد صنعته أنا بيدي لأفضحها أمامكم لأثبت لكم أنها مازالت تشعر أنها ما زالت بشرية! والجنود الذين ماتوا؟ كانوا يعرفون، قدموا أرواحهم طوعًا من أجل الحقيقة من أجل أن تفتحوا أعينكم، هل تظنون أن دمهم سال عبثًا؟ هل تظنون أن صرخاتهم الأخيرة

كانت بلا معنى؟ لقد ضحوا ليُسقطوا القناع عن ملكتكم، فهل ستتركون دمهم يضيع سدى؟

هي صارت تتلوى في قبضتي، تضربني بقدمها، تحاول أن تصيب ركبتي لتسقطني وعندما أفلتت نفسها اندفعت نحو حافة الساحة والصرخات وراءها صارت هديرًا واحدًا:

- اقبضوا عليها! دمها! رأسها!

رأيتُ الدَّامُون، الهامِسُون، الكوسيون وحتى غازولا يندفعون كجدار أسود خلفها، يلاحقونها في كل اتجاه والساحة تحولت إلى إعصار من الغبار والصوت والخيانة...

وأنا بقيت واقفًا هناك، أراقب ظهرها يبتعد، وأشعر أنني... انتصرت أخيرًا.

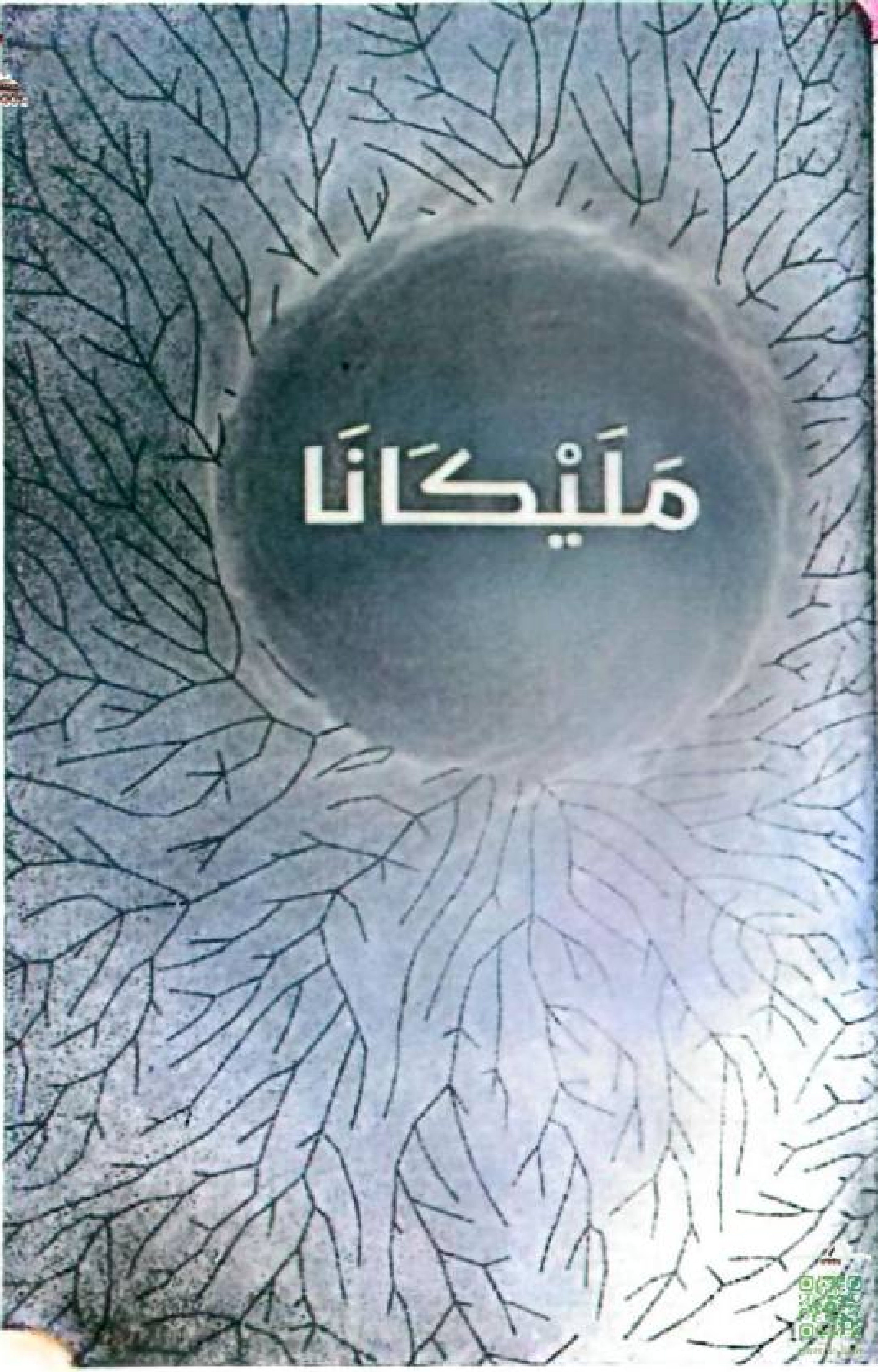
مَلَيْكَانَا

هربت من ذلك الضجيج من ذلك الصخب الذي التهم الساحة، لم أعد أعرف إلى أين أتجه ولا أي طريق يمكن أن يقودني إلى الأمان، كل ملاذ كنت أخفيه صار مكشوفًا، حتى آخر مكان لم أشاركه إلا مع نفسي عرفه رَيْفَانْ و لَازَار، كنت أركض حافية القدمين فوق الطين والمطر بدأ يهوي من السماء، ضرباته تعمي بصري وتثقل جسدي، كنت أركض كأن الشيطان يلهث خلفي، التفت فرأيتهم، كانوا عشرات ثم صاروا مئات، يقتربون، أسرع، أقوى، وأنا بلا عروق بلا قوة سوى تلك القوة القديمة التي لم يقدر أحد على انتزاعها مني، تلك التي تجعلني أقاتل حتى وأنا على حافة الانهيار.

تقدم ثلاثة من النائمون حتى صاروا بمحاذاتي، أخرجت خنجرين من طيات ثوبي وانقضضت عليهم بلا تردد، طعنة غاصت في الخاصرة، أخرى مزقت الحلق والثالث سقط وهو يفتح فمه، الدم الأسود امتزج بالمطر وتطاير على ساقي، كانوا يقاومون لكنني غرست المعدن في لحمهم حتى أحسست بارتجاف عظامهم تحته، لم يعرفوا من أنا ولو ظنوا أنني سأستسلم فهم مخطئون!

ركضت من جديد والأعداد خلفي تتضاعف، الغابة أمامي تصرخ، الأشجار تئن والأرض تدفعني بعيدًا، وفجأة تعثرت بفرع غليظ وسقطت، رأيت السماء التي ليست سماء، شعرت بالدم يسيل على وجهي من رأسي، حاولت الالتفات لكن الرؤية تلاشت، سمعت وقع خطواتهم بقرب، هنا سيكون موتي، نهايتي ستأتي هكذا، أغمضت عيني وغرق كل شيء في السواد.

فتحت عيني على ضباب، كنت أرى ملامح شخص يركض بي محمولة بين ذراعيه، المطر يضرب وجهي، ثم غرق كل شيء في العتمة مجددًا...

***

استفقت على صرخاتٍ تمزق السكون ووجعٍ يخترق رأسي، فتحت جفني بصعوبة، وكان المكان يغرق في عتمةٍ شبه كاملة لا يكسرها سوى تراقص ألسنة لهبٍ خافتة. رفعت رأسي فرأيت سقفًا ترابيًا يهتز كأنني في قبر، جلست ببطء ويدي على رأسي، التفت فرأيته، كان نُوفَار يجلس أمام النار يمس حد خنجره باللهب، ملامحه ساكنة وعيناه لا تكشفان شيئًا، رفع نظره نحوي وقال ببرود ثقيل:

- استيقظتِ في الوقت المناسب.

فتحت عيناي ببطء وثقل، شعرت أن رأسي يكاد ينفجر وعندما اقترب مني ليطمئن قلت بصوت متقطع:

- أين نحن؟

قال وهو يرمقني كمن يتحدث إلى طفلة غبية:

- انظري حولكِ يا مَلَيْكَانَا... نحن تحت الأرض، ألا ترين؟

سألته عن الضجيج فوقنا فقال بابتسامة ساخرة:

- لا والله شعبيتك كبيرة، العالم بأسره يبحث عنك.

ثم وضع ركبة أمامي واقترب بخنجره الساخن، تراجعت وسألته:

- ماذا تفعل؟

قال بهدوء فيه قسوة:

- لديكِ جرح عميق في رأسكِ، تنزفين دمًا أحمرا، جميل... لم أرَ هذا اللون منذ زمن لكنه يعني أنكِ الآن أضعف من أن تصمدي ولا دواء معنا والطريقة الوحيدة التي نملكها هي الكي.

رفعت يدي على جرحي وقلت:

- لا... لن أسمح، هذا سيؤلمني كثيرًا!

قال بصرامة:

- أزيلي يدك.

قلت:

- لا!

رفع صوته قليلًا، لا غضب فيه، بل أمر بارد:

- قلتُ أزيلي يدك يا مَلَيْكَانا.

حاولت أن أستدر شفقته، وضعت يدي على يده لكنه لم يرمش، قال بصوت أكثر انخفاضًا لكنه أشد قسوة:

- لا تلعبي معي...

أبعد خصلات شعري الملتصقة بوجهي ووضعها خلف أذني، أغمضت عيني، وعندما ضغط بحد السكين الساخن على جرحي انفجر الألم في رأسي حتى شعرت أن كل خيانة وكل جرح عشته لم يكن شيئًا أمام هذا، غرست وجهي في كتفه لأكتم الصرخة، شعرت بحرارة جسده تخترقني لكنه واصل بلا توقف حتى انتهى، ثم سحب الخنجر وقال:

- انتهينا.

ابتعدت عنه، ظهري ملتصق بالجدار، الدموع تنهمر على وجهي وقطرات من العرق تنساب باردة على جبهتي ثم مزق جيب سترته ومسح وجهي ببطء دون أن ينظر في عيني وكأنني لا أساوي أكثر من مهمة يجب إنهاؤها، سألته:

- أين نحن بالضبط؟ وكيف وجدت هذا المكان؟

قال:

- كنت أراقب هذا العالم منذ دخلته، أبحث عن نقاطه العمياء وأحلل كل ما فيه حتى وجدت هذا المكان. لا أظن أن أحدًا غيري يعرفه، لكن لستُ متأكدًا.

قلت:

- إذًا رميتَ بنفسك إلى هنا وأنت غير متأكد من أمانه؟

ابتسم بسخرية:

- أوه... صحيح. كان علي أن أستمر في حملك والرقص تحت المطر حتى نصفق معًا للعرض الذي سنقدمه لهم...

ضربته على كتفه، فابتسم أكثر، أسنانه تلمع في العتمة، ثم قال:

- مَلْيَكاتًا... توقفي عن طرح الأسئلة الغبية.

تجاهلت سخريته لكنني كنت أختزن كل كلمة في داخلي كأنني أبحث عن ثغرة في جدرانه، قلت فجأة:

- ولماذا تنقذني أصلًا؟ أنت لا تهتم إلا بنفسك.

رفع عينيه عن القماش وقال ببرود ثقيل ممزوج بلمحة استهزاء:

- أحب المسلسلات التركية وأردت أن أجرب دور البطل الذي ينقذ الملكات من ورطتهن.

رفعت عيني إلى السقف الترابي وقلت بحدة:

- أنتَ حقًا أحمق!

ابتسم وقال وهو يرمي القماش جانبًا:

- ربما... لكنني الأحمق الذي أنقذكِ، فلا تدفعيني لأندم.

ابتعد عني ووقف مستندًا بكتفه إلى الجدار المقابل، ذراعيه معقودتان وعيناه مغمضتان، كان غارق في أفكاره. أما أنا فكنت أتحرك

في المكان بلا هدف، عيناي على الفتحة البعيدة التي بدت كمخرج، لم أتحمل السكون فقلت:

- لن أبقى هنا مدفونة كجرذة، سأخرج وأواجههم!

لم يتحرك، لم يفتح عينيه حتى، فقط قال:

- تفضلي.

توقفت في منتصف الطريق، قلبي يخفق، يداي تتشابكان بلا وعي، كنت أبحث عن سبب لأبقى، عن أمر يمنعني، لكنه لم يمنحني شيئًا، فقلت:

- وأنتَ ألن تخرج؟

- أنا؟ لا... أجد أن حياة الجرذان أذكى مما تتصورين.

زفرت بغضب وابتعدت نحو الفتحة أكثر لكن صوته انقض علي فجأة، عميقًا باردًا خاليًا من أي سخرية:

- مَلَيْكَانا، عودي فورًا واجلسي هنا أمامي ولا أريد أن أسمع صوتك.

تجمدت في مكاني، التفت ببطء، كانت عيناه مفتوحتين الآن، نبرته كالسيف، فشعرت بالخوف يتسلل إلى عروقي، عدت وجلست حيث أشار، وقلت بصوت منخفض يكاد لا يُسمع:

- اللعنة عليك...

أغلق عينيه مجددًا وعاد إلى صمته، أما أنا فكنت أحاول أن أسيطر على تنفسي، على ارتعاش يدي.

بعد دقائق كسرت الصمت وسألته:

ماذا سنفعل إذًا؟

قال دون أن يفتح عينيه:

- أفكر كيف تصل إلى الباب.

- الباب؟

- نعم... أنتِ بلا عروق الآن، وهذا لا يسمح لكِ بالبقاء هنا، إما أن تخرجي... أو تسقطي في يد رَايْفَان وتعيشي عبدةً له وهو مصير لا أنصحكِ به...

سكت لحظة، ثم أضاف بسخرية باردة:

- إلا إذا كنتِ ترغبين فعلًا في أن تكوني عبدةً لأحد، ففي هذه الحال أنا هنا لأحقق أمنيتكِ ومعها بعضًا من نزواتي السادية.

تجاهلت كلماته الأخيرة وقلت:

- حتى لو خرجت... سأموت.

فتح عينيه ببطء وحدق إليّ:

- ومن قال ذلك؟

- هذه هي القوانين... كانت موجودة قبل أن أصل أنا أو أي ملك أو ملكة. إذا خرجت أي روح من هذا العالم وكان هناك حاكم على العرش... يموت الحاكم فورًا. فما بالك إذا كان الحاكم نفسه هو من خرج؟

- وقوانين مَن هذه؟ من الذي كتبها؟

- لا أحد يعرف، هي هكذا منذ البداية.

رفع حاجبه باستهزاء:

- إذًا إما أن تموتي حرة أو تموتي عبدةً لرَايْفَان.

تجاهلت حدته وسألته:

- وماذا عنك؟ هو لن يتركك حيا... أنت قتلت صديقه المُقرب.

- وهل أبدو كمن يخاف من رَيْفَانْك الحقير؟

لم أجب، فتابع:

- لا تشغلي بالك بي، فكري في نفسك وإن أردتِ الخروج فستفعلين ما أقول بالحرف.

اقتربت قليلًا وسألته:

- وأين سنذهب إذًا؟

- هناك طرق عدة، لكنكِ ستختارين المستنقع، أليس كذلك؟ لأنه الأقرب.

- نعم، هو الأسرع.

- ورَيْفَانْ يعرف أنكِ ستفعلين ذلك، يعرفكِ أكثر مما تعرفين نفسك، يدخل رأسك متى شاء لكنه لا يستطيع الدخول إلى رأسي، لهذا سنسلك طريق الأودية.

شهقت:

- الأودية؟ هذا جنون، ضيقة وخطرة، الصخور تسقط فيها بلا توقف!

قال بلا دفء:

- ولهذا بالضبط لن يتوقع أحد أن نمر منها.

- هذا جنون لأن...

اقترب حتى صار ظله يبتلع وجهي وقال:

- اسمعيني جيدًا، القرار لي، أنتِ ستتبعينني فقط وستطيعين، انتهى.

ظللت أنظر إليه، نصف قلبي يريد الرد ونصفه الآخر يختنق تحت سلطته، فأشحت بوجهي، سمعت فوقنا هدير الجموع وصيحاتهم: رأسها نريد رأسها!

نظرنا إلى الأعلى للحظة ثم قال ببرود:

- حاولي أن تنامي حتى يهدأوا ثم نتحرك.

ألقى سترته نحوي، كتلة من القماش الدافئ سقطت على صدري، قال:

- استعمليها كوسادة...

قلتُ في حيرة:

-لكن...

-نامي يا مَلَيْكانا.

ART_OF_BOOK

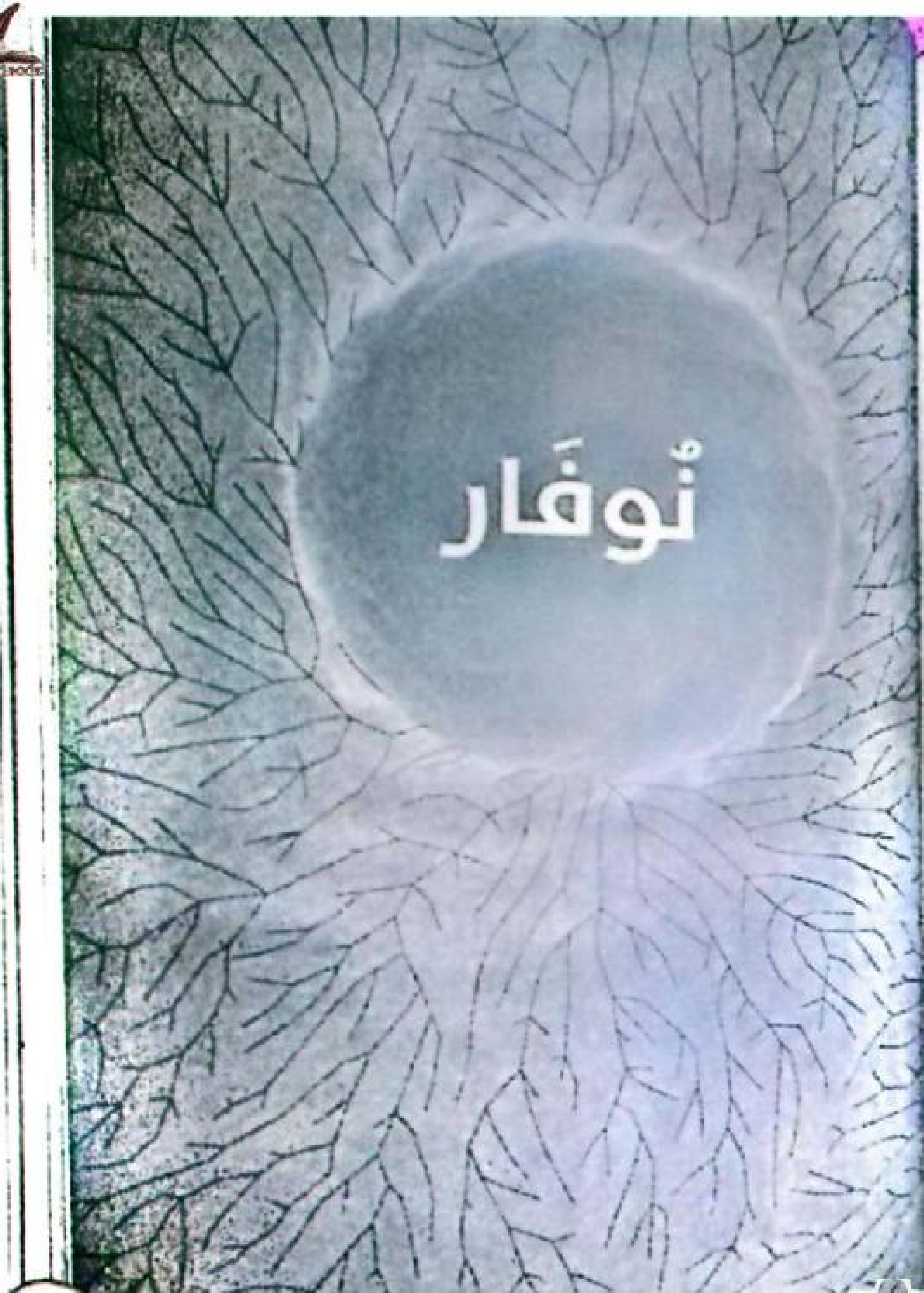
نُوفَار

أراقبها وهي نائمة، نومٌ بشري خالص لا أثر فيه لتلك السكونية القاسية التي تمنحها العروق السوداء. منذ قرون لم أر جسدًا بلا عروق، أقول قرونًا نعم، فمنذ أن صار البشر يحملون هذه العروق صارت أعمارهم أطول وقوتهم أشد وأجسادهم أصلب، أما هي الآن فهشة، ضعيفة.

بقي القليل من دمها الأحمر في خصلات شعرها، مشهدٌ غريب يثير في داخلي أسئلة أكثر مما يثير أي شعور آخر. تركتها تنام حتى خفتت الأصوات فوق رؤوسنا ثم دنوت منها وربت على كتفها برفق:

- مَلَيْكَانَا... استيقظي.

تحركت قليلًا لكنها لم تفتح عينيها، همست بكلمات لم أفهمها، صوتها ثقيل، مشوش. اقتربت أكثر:

- مَلَيْكَانَا... يجب أن نخرج الآن، الهدوء بالخارج لن يدوم طويلًا.

فتحت عينيها قليلًا ثم أغمضتهما من جديد وكأنها تريد أن تدفعني بعيدًا ثم تمتمت باسم ذلك الحقير:

- رَايْفَان... دعني أنام قليلًا.

لا أعرف إن كان ما شعرت به وقتها غضبًا أم مجرد ضيق من كونها ما زالت تفكر فيه بعد كل ما فعله بها. لكني تمالكت نفسي وقلت ببرود:

- أمامك خياران: إما أن تنهضي الآن، أو سأجبرك على النهوض.

فتحت عينيها ببطء، وجهها متورد، وجنتاها حمراء أكثر من المعتاد. مددت يدي ولمست جبهتها، كانت ساخنة... حمى. زفرت بملل:

- رائع... الآن صار علي أن أجر خلفي امرأة مريضة أيضًا، ربما كان الأفضل لك أن تبقي على عروقك السوداء، على الأقل لن تكوني بهذه الهشاشة.

ساعدتها على النهوض وخرجت أمامها أتحسس الطريق. لا أحد بالخارج، لكن العاصفة بلغت ذروتها. المطر يجلد الوجوه والريح تدفعنا إلى الوراء. حاولت مجاراتي لكنها كانت تتعثر مع كل خطوة، حتى توقفت فجأة وقالت بصوت مرتجف:

- أشعر بالبرد... لا أستطيع المتابعة.

- إما أن تتحركي أو أحملك.

- ليست المسألة أنني لا أستطيع المشي...

- إذًا ما هي؟

خفضت عينيها وقالت:

- جسدي يرتجف، البرد يخترق عظمي.

قلت بصوت حاد:

- ملَيْكَانَا، هذا ليس وقت الضعف، يجب أن نتقدم فورًا!

- ليس الأمر أنني لا أريد، لكنني لا أستطيع... أرجوك نُوفَار.

نظرت حولي بسرعة، حتى وقعت عيناي على هيكل حجري يعلوه السواد، كان يبدو كهيكل معبد قديم مهدم. أشرت بيدي:

- تحركي... سنتوجه إلى هناك.

صعدنا درجاته بصعوبة، كانت خطواتها أبطأ من أن تحتمل، لكننا وصلنا أخيرًا. دخلت أولًا وتفقدت المكان، لا أحد.

- اجلسي.

جلست على الأرض وأنا أتجول بين الأعمدة المتهالكة أبحث عن أي مدخل أو ممر قد يخفينا أكثر لكني كنت أعلم أن الأمر مسألة وقت قبل أن يجدونا. فكرة أنني أضع حياتي على المحك من أجلها، بينما لدي ما

يكفي من أهداف بانتظاري خارج هذا الجحيم، كانت تستفزني جزء مني أراد أن يتركها هنا ويمضي، كما أفعل دائمًا... أختار نفسي.

رفعت رأسها ونظرت إلي بتردد:

- أيمكنني أن أطلب منك شيئًا؟

- قولي.

- ستقول لا... أعرفك.

- جربي.

- أحتاج أن تدفئني قليلًا، رجاءً.

تأملتها بصمت، حاجباي يرتفعان بسخرية:

- كنتِ تشاهدين مسلسلات تركية كثيرًا قبل أن تصلي إلى هنا على ما أظن.

- لست أمزح... رجاءً.

أطلقت زفرة طويلة ثم تقدمت نحوها بخطوات بطيئة جدًا. جلست بجانبها، ظهري إلى الحائط. أمسكت يدها وسحبتها بين ساقي لتدفأ أكثر، فانحنت برأسها على صدري. كانت حرارتها مرتفعة جدًا، وكنت أعلم أن عبور الطريق نحو الباب وهي على هذه الحال سيكون انتحارًا.

رفعت رأسها قليلًا وهمست بنبرة مترددة:

- لماذا تحميني؟

أخفضت رأسي حتى صار فمي على بعد أنفاس من أذنها، نبرتي ثابتة، بطيئة، ثقيلة:

- في وضعكِ الحالي لن تصمدي ساعةً وحدكِ وأنتِ تعرفين ذلك.

شعرت بارتجافها يتغير، ليس فقط من البرد، بل من ثقل نبرتي.

ضغطت على يدها أكثر وقلت ببطء مقصود:

- قوليها.

- ماذا؟

- قولي إنكِ لن تصمدي ساعةً من دوني.

ترددت ثم أومأت برأسها فدفعت برأسي أقرب حتى لم يعد لها مهرب من عيني أو من أنفاسي:

- لم أسمعك.

- أعرف...

- بصوت أعلى.

- أعرف يا نُوفَار...

رفعت بصرها نحوي وفي عينيها ذلك الارتباك المريك كأنها لا تفهم لماذا تترك نفسها تنصاع. لم أبتعد، زدت الضغط قليلًا على يدها حتى شعرت بعظام أصابعها تتحرك تحت جلدي ثم مررت إبهامي بقوة على شفتيها بلا سبب واضح سوى الرغبة في إحكام سيطرتي وهمست بنبرة أثقل:

- لقد غيرت رأيي... كم أنتِ جميلة وأنتِ ضعيفة.

ثم أكملت بنبرة جادة صارمة:

- لكن إذا أردتِ البقاء على قيد الحياة، ستبقين حيث أضعكِ، تتحركين حين أقول، وتصمتين حين أريد.

لم أنتظر ردها، أرجعت رأسي للخلف ببطء، أبقيت يدي على ساقي حتى لا ألمسها أكثر، لكنني كنت أشعر بكل ذبذبة من حرارتها، وكل تغير في أنفاسها حتى خف ارتجافها تدريجيًا واستسلمت للنوم...

كنتُ أعد الدقائق قبل أن نتحرك مجددًا... حتى سمعت وقع خطوات بالخارج.

خطوات ثابتة.

تقترب أكثر!

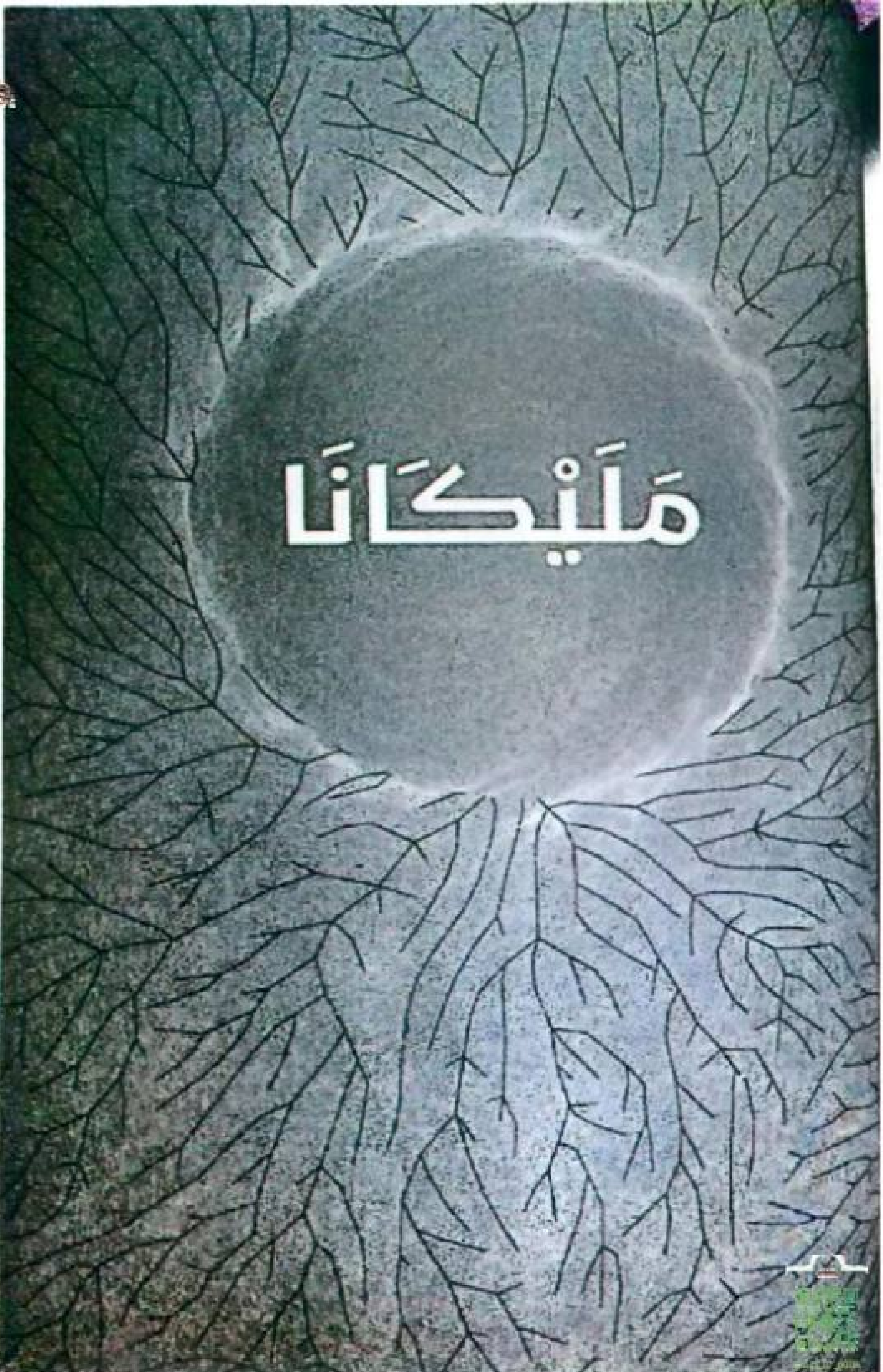
مَلَيْكَانَا

استيقظت على صخب مدو في الأرجاء وكنت ما أزال بين النوم واليقظة حين ارتطم جسد أحد الهامِسُون بالحائط الحجري بجانبي، سقط ملتويًا على الأرض ثم انتفض واقفًا وعيناه غارقتان في سواد الغضب، اندفع نحوي بخطوات ثقيلة يرفع خنجرًا ملوثًا لكن نُوفَار ظهر أمامه في لحظة، قبض على معصمه وأدار السلاح في يده ثم غرسه بكل قوته في وجهه حتى انطفأ صوته.

لم يكن هناك وقت، تدفق خلفه الباقون، عددهم تجاوز العشرة بين الهامسُون والدّامُون، وجوههم تلمع بالمطر والحقد وحتى قوة نُوفَار لن تكفي أمام هذا السيل، فالبقاء كان انتحارًا، أمسك بذراعي بقسوة وهو يصد الهجوم بضربات خاطفة بخنجره، دفعهم للخلف لحظات ثم أخرج من حزامه خنجرًا آخر ووضعه في يدي.

قال بصوت حاد وهو يصد ضربة أخرى:

- اركضي نحو الغابة!

- وماذا بعد؟

- تابعي حتى الوادي، ولا تقتربي من المستنقع، مفهوم؟

أومأت برأسي لكنه شد قبضته على ذراعي وقال بصرامة أكبر:

- بكلمات، مَلَيْكانا.

- نعم، فهمت.

- إذًا اذهبي.

- وأنت؟

- اذهبي الآن!

ركضت، قدماي تضربان الطين والمطر يسيل على وجهي، الريح تجرني إلى الخلف، الحُمى تتسلق عروقي الفارغة وتلتهم قوتي لكنني واصلت، التفت أكثر من مرة ولم أرَ أحدًا، حتى وصلت إلى تخوم الغابة، الأشجار متشابكة كأصابع ميت يرفض أن يتركك، والريح تعوي بينها.

ثم جاء ذلك الصوت، الصوت الذي كان يطمئنني في الماضي، لكنه اليوم أيقظ في قلبي ارتجافة خوف، رفعت بصري ورأيت غازولا تحلق فوقي جناحاها تصرخ كأنني جرحتها شخصيًا، احتميت بظل شجرة ضخمة أكتم أنفاسي وأدعو أن تنزلق نظرتها عني لكن صرختها اخترقت صدري، وحين ابتعدت اندفعت راكضة من جديد.

استمر الركض دقائق بلا نهاية، أنظر خلفي كل بضع خطوات، أبحث عن ظل نُوفَار فلا أجد إلا الفراغ، وحشة العالم الذي كنت فيه قبل ساعات ملكة يملؤه الآن إحساس المطاردة.

وصلت إلى مفترق: المستنقع من جهة والوادي من جهة أخرى، وقفت ألهث، أستعيد صوته وهو ينهاني عن سلوك طريق المستنقع لكن عقلي كان يهمس أنه الأقرب والأسرع والأكثر مألوفية بالنسبة لي.

تمتمت لنفسي:

- لماذا أخاطر بالوادي الضيق المليء بالوحوش؟

أقنعت نفسي أن رَايْقَان مشغول بعيدًا بالعرش لن يخطر بباله أنني هنا، نظرت إلى الوادي، فكرت أن أنتظره، أن نمر معًا، ألا أخونه لكن فكرة موته تسللت كسم بارد.

همست بمرارة:

- مستحيل... عشرة من الهامِسُون والنّامُون ضده وحده؟ حتى هو... مستحيل.

نظرت للخلف وانتظرت لحظات لكن الخطر كان يقترب وكل ثانية كانت تحذف فرصة النجاة، لمحت المستنقع مرة أخرى ووجدت قدمي تتجهان نحوه قبل أن أستطيع إقناع نفسي بالعكس، قرار ربما لم يكن علي اتخاذه لكنه كان قد اتُخذ.

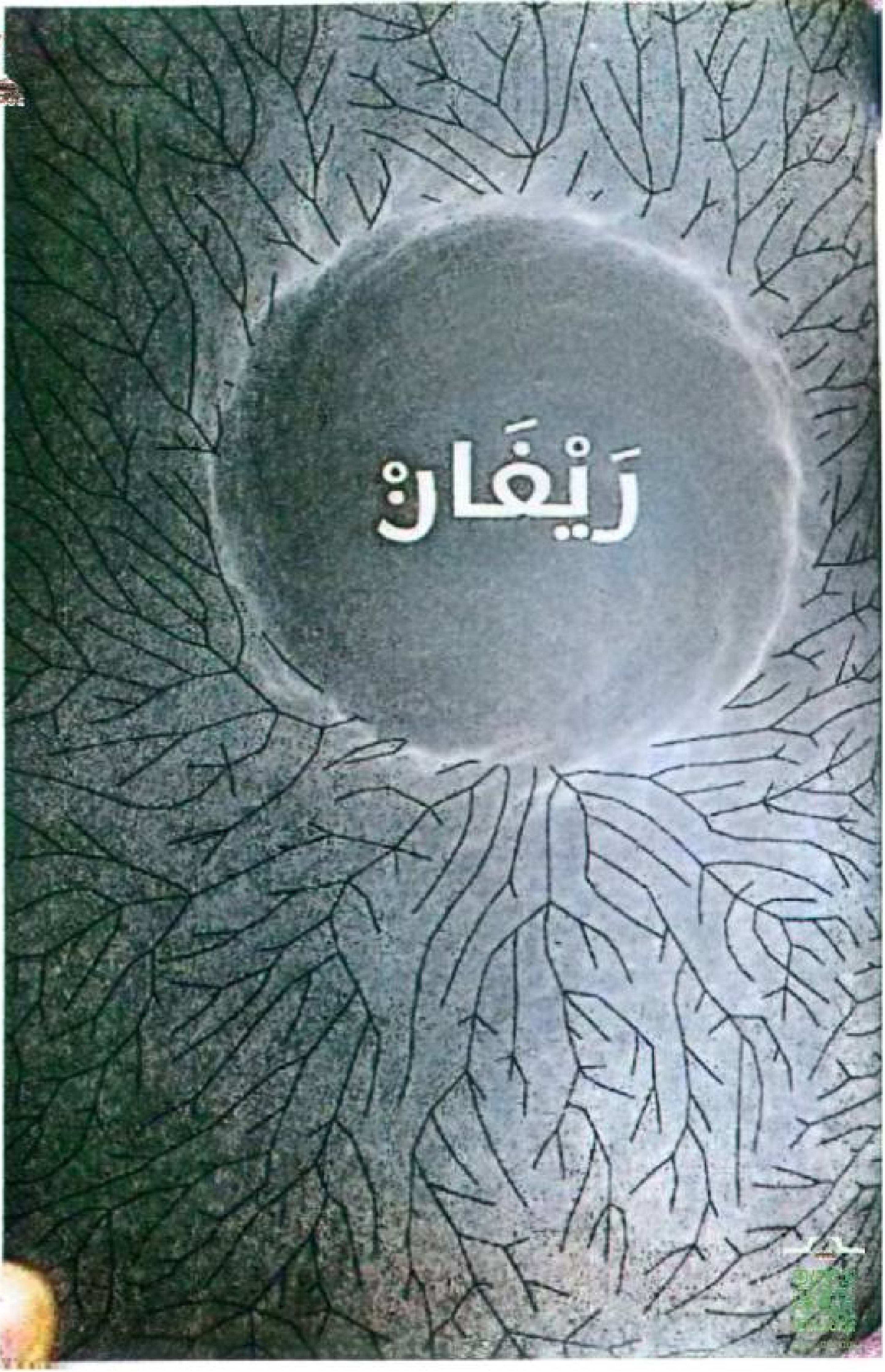
رَيْفَانْ

كان الغضب الذي يشتعل في عروقي الآن أثقل من الجبال قادر على إحراق كل شبر في كُوْسَانُوكْتِيس بأنفاسي وحدها، كنت أتحرك كالإعصار بين الأشجار الملتفة، أصرخ بالأوامر في وجوه النائون والهايمْسُون والكُوْسِيُون، ألوح بيدي كي تسرع غازولا، أرسل الصيحات عبر كل مسار:

- أريدها حية، حية فقط ومن يجرؤ على قتلها قبل أن تلمس يدي فسيدفع ثمن دمه أمامي. إن عوقبت فبعقابي أنا وإن قُتلت فبسيفي أنا لا أحد يلمسها غيري ولا أحد يكسرها غيري!

لكن صورة نُوفَار وهو يحملها لا تفارق عيني، يديه القذرتين على ما كان وسيبقى ملكي، رأسها مستندة على صدره وهي بشرية الآن بقلب نابض ودفء لم ألمسه منذ ألفي عام، مجرد تخيل أن تتسرب حرارة جسد آخر إلى عروقها يكفي لأن يجعل الأرض كلها وقودًا لغضبي، ألفا عام وأنا أدفعها نحو الهاوية كي لا تجد شعورًا إلا معي لا حب، ولا كره ولا غضب ولا رغبة إلا نحوي أنفاسها لي كلماتها لي جنونها لي وحتى ضعفها لي وفكرة أنها أعطت لحظة من ضعفها لغيري تجعلني أريد تمزيق هذا العالم بأسناني!

كنت أقطع الغابة بخطوات متسارعة، أترك خلفي أثرًا من الطين والهواء الحار، أمشط كل مكان أعرفه، بدأت بقصرها ثم الملجأ السري تحت الأرض الذي دلتني عليه لآزَار. لم أترك شبرًا إلا داسه غضبي لكني كنت أعلم أن البحث عنها لن يكفي، يجب أن أدخل إلى عقل نُوفَار لا عقلها، إلا أنني لا أعرفه وهذا ما يثير جنوني أكثر. أما هي فأعرفها كما أعرف طعم دمي، ذكية لكنها ساذجة والآن وهي بلا عروق ستخطئ وأنا أعيش من أجل تلك اللحظة.

عثرت على قطرات دم أحمر على أرضية أحد الممرات تحت الأرض، دمها بلا شك، انحنيت ولمستها بأصابعي ورفعتها إلى فمي، أذقت نفسي طعمها، رائحتها، ليصبح جزءًا من عروقي. أنا لا أحب، لم أتعلم كيف، لكني أملك... وأملك حتى آخر نفس!

حتى عندما أقنعت نفسي أن ما كان قبل ألفي عام قد مات، ما زال في داخلي ما يريدها كلها، ليس حبًا، بل امتلاكًا حتى الفناء.

صرخت:

- إنهم قريبون، أريدهم أحياء، هما الاثنان!

وانطلقت أركض، عقلي لا يرى إلا مسارًا واحدًا يقودني إليها، هي قد تعود إلى العرش، أعرف كبرياءها لكن إن لم تعد فهناك الطريق إلى الباب، الطريق الذي تعرفه كما أعرفه، وكان علي أن أسبقهما إليه.

الغابة أمامي تبتلع الضوء، الأمطار تثقل الأرض والريح تصفع وجهي وبين الظلال لمحت شيئًا... لم أكن واثقًا، ربما كان وهجًا على سطح الماء، أو انعكاس قماش، أو...

لا، كانت هي!

كانت وحدها، خطواتها تتعثر في الطين، جسدها يترنح وبجانبها المستنقع الأسود الذي يبتلع الأرواح.

وقفتُ في الظلال أراقبها كما يراقب الصياد فريسته قبل الانقضاض لكن عيني كانت تمزقها إعجابًا، كانت تكافح لعبور الطين بينما أذرع نساء غارقات تحاول جذبها إلى الأسفل وجميعهن مسحورات بصوت رجل يعزف ويغني.

يداه تلامسان أوتار الجحيم وصوته يعلو حتى يعميهن عن الخلاص، لكن بعضهن يدفعنها يشتمنها لكي تغرق مثلهن وهي تدفعهن بعنف

تزيح وجوههن كما تزيح الذباب... جمالها بلا عروق يشبه زجاجًا شفافًا يفضح كل نبضة، بشرتها باهتة، وجنتاها محمرتان، هشة حتى الفناء وهذا المشهد وحده منحني نشوة غامرة، نشوة لا أفهم سببها.

صرخة في السماء قطعت أفكاري، رفعت رأسي ورأيتها، غازولا، تدور في دوائر واسعة كما تفعل قبل أن تهجم بكل قوتها ومَلَيْكَانَا الآن بشرية لا تملك ذرة من السواد الذي يحميها من سمها، وجدت نفسي أركض نحوها دون تفكير، أخرج خنجري وأدفع غازولا بعيدًا، أقبض على ذراع مَلَيْكَانَا وأسحبها من حافة المستنقع، وهي تصرخ:

- أتركني! أتركني يا رَايْفَان!

قضيت ساعات أبحث عنها حتى انقطع نفسي واعتقدت أنني سأتركها تفر؟ غازولا كانت تقترب، فرفعت يدي وصحت:

- أنا ملك كَوْسَانُوكْتِيس، آمركِ بالرحيل!

توقفت في الهواء وصرخت بصوتها المزدوج لكنني صرخت أعلى منها:

- قلت لكِ ارحلي فورًا!

رمقت مَلَيْكَانَا بعينها الوحيدة بنظرة غدر قبل أن تدور وتختفي في السماء.

حين عدت إليها، كانت ترتجف وعيناي وقعتا على السترة التي ترتديها، انقبضت ملامحي، أمسكتها من الياقة وجذبتها حتى ارتطم رأسها بصدري.

- أنتِ ترتدين سترته! سترة ذلك اللعين!

- وما دخلك أنت؟ أنت خنتني! خنتني يا رَايْفَان!

لم أدعها تكمل، صفعتها بما يكفي لإسكاتها، أمسكت فكها بيدي وضغطت حتى شعرت بعظامها تحت أصابعي.

- ترتدين سترته اللعينة يا مَلِيْكَانَا!

- أنا مريضة... إنها فقط للدفء، هذا كل...

لم أكمل سماعها، قبضت على ذراعها وابتعدت من المستنقع وبدأت أجرها عبر ممرات لا يعرفها أحد غيري، كان المطر يتساقط علينا كصفائح حديد والريح تصفع وجهها وهي تلتفت نحوي كل بضع خطوات لتقذف كلمتها التالية.

كانت تثرثر غاضبة بلا توقف، صوتها يعلو فوق العاصفة:

- لماذا كل الرجال في هذا العالم يجرونني من ذراعي؟ مللت منكم! اقتلوني أو اتركوني، لكن كفوا عن محاولة السيطرة علي!

كنت أشد قبضتي أكثر، أشعر بحرارة غضبي تتصاعد مع كل كلمة تنطقها، أراها تتحرك بجانبي، شعرها المبلل ملتصق بوجهها لكن كل ما كنت أسمعه لم يكن كلماتها... بل ذلك الصوت في رأسي، دقات الغضب الحادة في أذني كما يدق السيف على السندان، إيقاع ثابت لا يهدأ، يضرب جمجمتي مع كل خطوة.

انعطفنا في زقاق مظلم لا يدخله أحد، ثم قفزت بها فوق بركة مستنقع صغيرة اختبأت في منتصف الطريق، صعدنا درجات حجرية مهترئة تنتهي إلى جسر مائل يربط بين برجين مهجورين، الريح تدوي من تحته، والماء ينفجر على الصخور في الأسفل. كانت قد تعثرت مرتين وفي كل مرة كنت أرفعها بقسوة دون أن أنظر وكنت أسمعها تواصل كلامها وكأنها تحاول أن تغرس شوك كلماتها في جلدي.

عبرت بها من تحت بوابة نصف منهارة ثم إلى ممر جانبي محفور في الصخر لا يضيئه إلا وهج خاطف من البرق، حتى وصلنا إلى بوابة حديدية صدئة مخبأة خلف ستار من اللبلاب، دفعتها بكتفي فانفتحت بصوت أنين طويل، ومن هناك دخلنا إلى الممر الخلفي المؤدي إلى بيتي، بعيدًا عن العيون والجنود والهمسات.

كانت ما تزال تتكلم لكن صوتها صار كضباب بعيد يتكسر قبل أن يصل وكل ما بقي في أذني كان صوت الغضب يضرب داخلي بلا رحمة!

أغلقت الباب بقوة حتى ارتجفت الجدران وصوت ارتطامه تردد في أركان البيت، كنت ما أزال ممسكًا بذراعها فألقيت بها إلى الداخل كمن يلقي بأسير في زنزانته، وقفت أمام الباب أتنفس ببطء لكن النار تشتعل في صدري.

قالت وهي تتقدم نحوي، صوتها يقطر تحديًا:

- لماذا عليك أن تكون دائمًا بهذه القسوة؟ لماذا دائمًا بهذه الوحشية؟!

استدرت إليها بعنف، خطواتي ثقيلة ووجهي مشدود كالنصل، العروق في عنقي تكاد تنفجر وقلت بصوت بارد حاد يقطع الهواء:

- أنتِ لا تصمتين أبدًا، لا تكفين عن الرد، حتى وأنتِ تحملين رائحته على جسدك، حتى وأنتِ مرتديةً سترته، حتى بعدما سمحتِ له بلمسك، أنتِ ما زلتِ تتكلمين!

رفعت رأسها فجأة وصرخت، لم تحاول أن تكبح نفسها:

- وماذا تريد مني؟ هل جننت؟ أنت سلمتني بيدك إلى أرواح هذا العالم، سلمتني للجنود، جعلتهم ينقلبون علي، خنتني، طعنتني

من الخلف، وأنا التي أنقذتك، وأنا التي منعت سقوطك ثم تأتي لتحدثني عن سترة؟ هل فقدت عقلك؟!

تقدمت خطوة وقلت بحدة تمزق الصمت:

- اخفضي صوتك. أخفضيه فورًا، أقسم لكِ يا مَلَيْكَانَا، لا تختبريني، أنا في حالة غضب تجعلني لو مت أمامي الآن لوجهت الضربة القاتلة دون أن أتردد، لدي رغبة في تمزيقك، في تحطيم كل جزء منك، جسدك، قلبك، روحك، كيانك، أفهمتِ؟ اخرسي الآن!

لكنها رفعت صوتها أكثر، عيناها تلمعان كمن يدفعني عمدًا إلى الحافة:

- وماذا تريد إذًا؟ تريد العرش؟ تريد قلبي؟ تريد روحي؟ ماذا تريد بالضبط اللعنة عليك!

اندفعت نحوها، قبضت على عنقها فجأة، شعرت بضعفها البشري تحت يدي، دفعتها بقسوة فوق السرير، انحنيت فوقها وبدأت أمزق السترة عن كتفيها بغضبي:

- كيف تجرئين؟! كيف سمحتِ له بلمسك؟ ماذا فعلتما تحت الأرض؟ أ صار جسدك الآن ملكه؟ هل هذا ما تحاولين قوله لي؟!

صرخت وهي تتخبط تحت جسدي:

- اتركني يا رَايْفَان! أنت مجنون! حقا قد فقدت عقلك! لا يمكنك السيطرة علي، حتى لو لمستُ نُوفَار حتى لو فعلت أي شيء معه، ما شأنك؟ هاه؟ ما شأن شأنك اللعين؟!

لكن قبل أن تكمل، ضغطت على عنقها بكل قوتي، أصابعي غاصت في جلدها، كيف تجرؤ حتى على ذكره أمامي؟ حتى لو كانت فقط لإغاضتي؟ كيف تجرؤ أن تلوث الهواء بيننا باسمه؟ كنت أضغط وأضغط

حتى بدأ لون وجهها يتبدل، يكتسي الحمرة، شفاهها ترتجف، وسمعتها تلهث بصوت متقطع:

- رَايْفان... لا أستطيع... التنفس... أتركني...

لم أتذكر إلا في لحظة خاطفة أنها بلا عروق الآن، ضعيفة كالبشر فخففت قبضتي قليلًا... لكن الغضب في داخلي لم يخبو منه شيئًا.

صرخت والشرر يتطاير من حنجرتي:

- أين هو؟ أخبريني أين ذلك الحقير! أخبريني الآن!

ردت وهي تكاد تبصق الكلمات في وجهي:

- لا أعرف! وحتى لو كنت أعرف، أتظن أنني سأخبرك؟ هو الذي أنقذني! أنقذني بينما أنت سلمتني لهم، جعلتهم يقتلونني!

انحنيت حتى صار وجهي يلامس وجهها. أسناني مكشرة، وصوتي أشبه بزمجرة:

- أتظنين حقًا أنني كنت سأتركهم يقتلونك أيتها الحمقاء؟ همم؟!

قالت وهي تحدق في عيني بلا خوف:

- أتوقع كل شيء منك يا رَايْفان. لا أعرفك ولا أريد أن أعرفك، فقط أريد أن تتركني، بالله عليك، اتركني!

زمجرت مرة أخرى:

- أين هو؟

- لا أعرف! ولن أخبرك، حتى لو عرفت!

كانت تحميه... تحميه في وجهي... كان ذلك وحده كافيًا لإشعال كل شيء في دمي.

صرخت:

- ماذا ستفعل إن لم أخبرك؟ ستقتلني؟ تفضل! افعلها!

اقتربت منها أكثر حتى كادت أنفاسي تحرق بشرتها وقلت:

- ستتمنين أن أقتلك. ستتوسلين إلي أن أفعل!

أمسكت بشعرها بعنف وسحبتها عن السرير، جررتها على الأرض إلى الغرفة المجاورة، الغرفة التي اعتدت أن أعلق فيها جنود الهامِسُون، دفعت الباب فارتفع صريره كأنه يعلن موتًا جديدًا، ورأيت اتساع عينيها أمام المشهد: جدران مغطاة ببقع دم أسود، أطراف مبتورة، عيون تحدق من الظلام ورؤوس مغروزة على رماح تصطف كعرش من الرعب.

ثم سحبتها إلى الجدار، قيدت ذراعيها بسلاسل غليظة، رفعتها حتى لم يبقَ من قدميها سوى رؤوس الأصابع تلمس الأرض، صرخت من الألم وصوتها يتقطع:

- رَايْفَان! لا أملك عروقي السوداء بعد الآن! لن أحتمل!

لكن لم يكن يهمني:

- إذًا كل ما تريدينه هو أن تخرجي معه من الباب؟ هاه؟

رفعت رأسها نحوي رغم القيود وعينيها تلمعان بتحد:

- وتظن أنني سأترك لك العرش هكذا! فقط؟ بلا ثمن؟ بعد أن كنتُ أنا من شَيدَه وأنا من صنعته بيدي، حجرًا فوق حجر وأنا من سقَيتُه بدمي!

- أين هو مَليكانا... لن تغادري حتى تخبريني أين هو، سأستنزفك حتى آخر قطرة من دمك!

- قلت لك لا أعرف! لا أكذب! لا أعرف!

أمسكت وجهها بين يدي، أصابعي تحاصر فكها حتى كاد ينكسر وقلت:

- أقسم لكِ يا مَلَيْكَانا لو اكتشفت أنك تكذبين..

لكنني لم أكمل لأن صوتًا من الخارج دوى كالرعد:

- نار! النار في حي الذامُون!

استدرت نحو النافذة، الغضب يتدفق في عروقي ثم عدت أنظر إليها، نظرتي خنجر، وقلت:

- لن تتحركي من هنا ولن تستطيعي أصلًا. سأعود... ولم ننته بعد!

أغلقت الباب خلفي وهي تصرخ:

- لا تتركني هكذا! أنا بشرية الآن! فقدت عروقي! أنهمت أنني لن أحتمل طويلًا؟! رَيْفَانُ!

ART_OF_BOOK

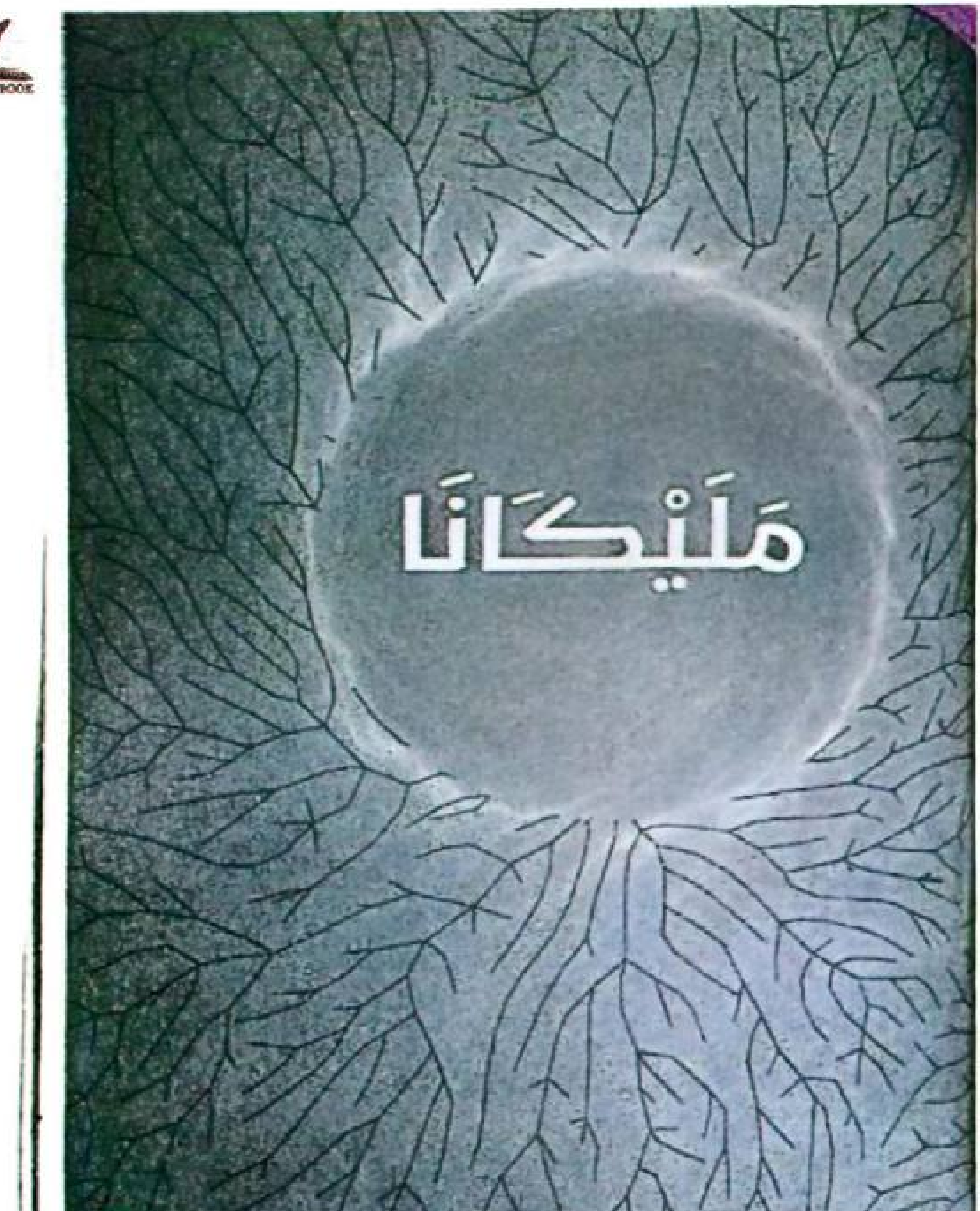

شعرت بعضلات ذراعي تتمزق من الداخل، الألم يزحف من كتفي حتى أصابعي كأن أوتاري تُنتزع واحدةً تلو الأخرى، كنت أرفع جسدي على رؤوس أصابعي لأخفف الضغط لكن القيود كانت أعلى من قدرتي وثقلي يسحبني للأسفل حتى شعرت أن جلدي سينفصل عن عظامي، أردت أن أفرغ هذا العذاب في صرخة واحدة لكنني كنت في قلب حي الدَامُون وأي صوت، حتى الهمس، كان كفيلًا بأن يجلبهم إلي كالذئاب إلى الفريسة.

كانت النافذة مفتوحة أمامي، فراغها يفضحني لمن يمر ولم يغلقها رَايْفَان، لم يكلف نفسه أو ربما تعمد ليجعلني طُعما لمن يجرؤ ومع ذلك قال إنه لا يريدهم أن يقتلوني، لم أفهمه، لم أحاول حتى، الألم كان أصدق من أي محاولة للفهم.

فجأة، خطوات من خلف الباب ثابتة بطيئة...

لا تشبه وقع قدميه ولم يكن من الممكن أن يعود بهذه السرعة. كان الصراخ يعوي، رائحة لحم يحترق تصلني، أصوات تتشقق في حلق أصحابها، تمنيت أن يبتلعهم ذلك الجنون في الخارج وألا يدخل أحد لكن الباب تحرك، انفتح ببطء وعندما رأيتها توقفت أنفاسي.

لَازَار.

وجهها الممزق، الخطوط الغائرة في خديها، عينها المتسعة بلمعان لم يتغير منذ قرون، تقدمت نحوي، نظرتها تنزلق من قدمي المقيدتين حتى كتفي، قلت لها بحدة كسكين:

- ما الذي تفعلينه هنا يا لَازَار؟

ابتسمت نصف ابتسامة:

- السؤال الأصح... ما الذي تفعلينه أنتِ في بيت رَايْفَان؟ واضح أنكِ لا تتعلمين.
- إذا كنتِ تظنين أنني جئت باختياري فأنتِ أغبى مما كنت أظن.
- ربما... لكنني لست الغبية المعلقة الآن.

أخرجت خنجرًا صغيرًا ثم جعلت حافته تمر ببطء على جلدي البارد، قالت بصوت ناعم كالسم:

- لا عروق سوداء... بشرتكِ مثل الخزف، أفهم لماذا لا يرى سواكِ، على الأقل بجسدكِ، أما شخصيتكِ لا أرى فيها شيئًا يُحتمل، تخونينه باستمرار...

ضحكتُ بسخرية رغم الألم:

- تتحدثين عن الخيانة؟ أعوام، قرون وأنا أرفعكِ وأعطيكِ سلطة على جيشي وفي أول فرصة... خنتِ ومن أجل من؟ رجل لا يرى وجودكِ، قلبه ميت لا يعرف الحب إلا إذا كسره أولًا.

قالت وهي تقترب أكثر:

- ومع ذلك تحبينه مثلي.
- قاومته حتى النهاية، لم أنحنِ كما فعلتِ ولم أخنه كما خنتِني لم أخُن من أطعمني ومنحني مكانًا وأنا لم أكن أساوي شيئًا، فلا تتجرئي على مقارنتي بكِ!

ابتسمت ببرود:

- الفارق بيننا أنني سأعيش وأنتِ ستموتين وهو سيصبح ملكًا ولن يجد هامِسَة تليق به أكثر مني، أنا التي خنتُ لأجله، سيأتي اليوم الذي يراني فيه ويختارني بجانبه.

انفجرت ضاحكة:

- استفيقي يا لازان، هو لا يرى إلا نفسه لا يحب إلا نفسه قلبه مكسور وطريقته في الحب مكسورة مثله.

قاطعتني:

- ومع ذلك يحبك أكثر مما تظنين.

- يحبني ويخونني؟

- يحبك ويخونك... وينقذك مع ذلك. لماذا قيدك هنا بدل أن يسلمكِ لجيشه؟

تراجعت خطوة، شدت الخنجر، قالت ببرود:

- آسفة... ظلكِ أثقل من أن أحتمله.

وفجأة غرست الخنجر في كتفي، الألم انفجر في جسدي كصاعقة، خرجت مني صرخة مزقت الهواء قبل أن تهوي به مجددًا في فخذي، رفعت يديها لتوجه الطعنة الثالثة إلى قلبي... لكن الخنجر الذي انطلق عبر النافذة اخترق كتفها أولًا. دفعها إلى الوراء وهي تصرخ.

دخل نُوفَار من النافذة وابتسمتُ رغم ألمي كأن حضوره كان طوق نجاة، قبض على عنقها بيد واحدة، سحب الخنجر من كتفها ثم رأيت حده يلتف نحوها فتجمد وجهي وأخفى ابتسامي في لحظة وانفجر صوتي بالصراخ:

- نُوفَار! لا! دعها، أرجوك! إنها مجرد غبية، خانتني، نعم، لكنها فقط أحبت رجلًا بلا قلب!

لم ينظر إلي، وجهه كالصخر، رفع الخنجر وأهوى به على وجهها مرة، مرتين، عشر مرات، والدماء تتناثر على الجدار وعلى وجهي وأنا أصرخ وأستجديه، حتى سقطت على الأرض ثم غرس الخنجر في قلبها، تركه فيه لحظة ثم نزعه ورماها بجانبه كجثة حيوان نافق.

التفت إلي، قال بصوت بارد يقطع العظم:

- لا أقبل الخيانة، أيًا كانت أسبابها.

تجمدت أطرافي، لا أعلم إن كانت رعشتي من ضعفي البشري أم من هول ما رأيته، قرون عشتها مع لازار وها هي أمامي كأنها لم تكن ووجه نوفار يقترب، يحمل في ملامحه برودة البحر وغليان الحمم معًا!

اقترب مني بهدوء ووقف أمامي، يداه خلف ظهره، نظراته تلتهمني من أعلى رأسي حتى أطراف قدمي، يحصي أخطائي واحدًا واحدًا دون أن يتفوه بكلمة لكن غضبه كان واضحًا في كل تفصيل من ملامحه. ثم تحرك ببطء، مد يده إلى القيد الحديدي الذي يقطع معصمي، فك القيد الأول وصوته يخرج ببرود مسموم:

- أنقذك فتفرين إلى بيته، يا لغبائك.

كانت كلماته كصفعة أحرقتني أكثر من الحديد على جلدي، بدأ بفك القيد الثاني فاندفعت أقول:

- لا... لا، أقسم لك، ليس كما تظن، ما حدث هو أن...

لكنه قطع كلامي بحدة، لم يرفع صوته، بل قالها كأمر لا يقبل النقاش:

- اصمتي... مَلَيْكَانَا.

لكن لساني خانني، لم أتحمل فكرة أن يظل يظن بي هذا وكأنني احتجت فجأة إلى أن لا أخيب ظنه، تابعت بسرعة كأن الكلمات تسبق أنفاسي:

- أقسم لك، ذهبتُ إلى المستنقع... هو من اختطفني من هناك، وبعدها...

توقفت، عينيه اتقدتا فجأة وكرر ببطء:

- المستنقع؟!

فجأة أدركتُ ما فعلت!

اللعنة!

اللعنة!

اللعنة!

ازدردت ريقي، وأدركت أنني ارتكبت خطأ أكبر من كل ما حدث قبلها، كان علي أن أكذب... أن أقول أنه اختطفني وأنا في طريقي نحو الأودية! نظراته كانت مسمرة على وجهي، لم تَبدُ عليه الصدمة بقدر ما بدا عليه الاشمئزاز وكأن وجودي في بيت زايْفان لم يكن ما يثير غضبه، بل خيانتي لكلمتي له لعَهده الذي قطعته معه وكأن كسر أوامره جريمة لا تُغتفر.

ظل يحدق إلى وجهي طويلًا... طويلًا حتى بدأ الزمن يتثاقل بيننا والغضب يختلط بالبرود والبرود يختلط بالقسوة، حتى بدا وكأن الاشمئزاز في عينيه صار أثقل من الغضب نفسه. ثم دون كلمة أخرى، أزاح وجهه عني، أنهى فك القيد واستدار نحو النافذة. قفز منها كما لو أنه يهرب من الهواء الذي أتنفسه.

سقطت على ركبتي، الألم يمزق كتفي وجراحي تنزف على ذراعي وفخذي لكن فكرة أن أتركه يرحل هكذا كانت أكثر إيلامًا من كل جراحي، أرغمت جسدي على النهوض، قفزت من النافذة، ساقاي ترتجفان لكنني لحقت به. كان يسير بخطوات واسعة ثابتة لا يلتفت لا يبطئ، كل خطوة منه كانت ثلاثة من خطواتي ومع ذلك، لم أتوقف.

كنت ألهث، الدم يثقل فستاني والبرد يلسع عظامي ومع ذلك، كنت أناديه:

- نوفار... أرجوك، اسمعني...

لكنه مضى، يعبر بين الأزقة المظلمة، يختار طرقًا جانبية، يتجنب العيون، وأنا ألهث وأتبع. حتى أدركت من ميلان الطريق واتساع الصخور أننا نتجه نحو الأودية.

كان يبتعد بخطوات ثابتة، كتفاه مشدودتان يدفعه الغضب إلى الأمام، لم يلتفت ولم يبطئ، تجاهل وجودي خلفه تمامًا. حاولت اللحاق به أركض تقريبًا وأتعثر على الصخور المبتلة، أعرف أنه لو اختفى عن نظري للحظة واحدة فلن أجرؤ على متابعة الطريق وحدي.

عند مدخل الوادي الأسود انكسر كل لون. الجدران العالية ابتلعت الضوء والريح صفرت بين الصخور بصوت يشبه النحيب. حاولت تثبيت قدمي على صخرة داكنة فانزلقت وارتطمت رُكبي بالأرض بقسوة، طقطقة حادة اخترقت عظامي. خرجت مني شهقة ألم ثم انفجرت دموعي كالسيل حتى غاب صوتي في شهقات متقطعة.

توقف لكنه بقي بظهره لي، يداه على وركيه، ساكنًا كأنه يتشاور مع نفسه... ثم استدار ببطء شديد، خطواته محسوبة، عيناه معلقتان بي بلا طرفة، يقترب كأن كل خطوة منه قرار.

وقف أمامي، نظر طويلًا إلى وجهي الغارق في الدموع ثم قال بنبرة منخفضة، كل كلمة منها تثقل على صدري:

- لماذا تبكين؟

رفعت وجهي بصعوبة:

- لأنك قاس معي...

أمال رأسه قليلًا وكأن الجواب أضحكه بسخرية:

- تبكين لأنني قاس؟ أم لأنك كسرتِ كلمتي وسلكتِ الطريق الذي يقودكِ إلى رَايْفَان... الطريق الذي حذرتكِ منه بنفسي؟

هززت رأسي:

- لا... أنا أبكي لأنكم جميعًا قساة علي...

انخفض حتى صار على مستوى عيني، ركبته على الأرض، يده قبضت على ذقني فجأة ورفعت وجهي نحو عينيه. حاولت تجنب النظر لكنه قال بحدة:

- عندما أتحدث... تنظرين في عيني.

أطعت وعيناي تغرقان في سواد نظرته التي لا تهتز. أعاد السؤال ببطء قائلا:

- هل أبدو لكِ أحمقا يا مَلَيْكَانَا؟

- لا...

- إذن توقفي عن الكذب.

ارتجفت، وفي داخلي ومضة شك مؤلم، ربما كان على حق لكنني تمسكت بأنفاسي وقلت:

- أقسم أنني ظننت أنك قُتِلت... لم أجرؤ على دخول الوادي...

قاطعني، قبضته على ذقني تشتد:

- والثمن؟ أن تدوسي على كلمتي؟

اقترب أكثر حتى شعرت بحدة أنفاسه على وجنتي:

- لا أحد في هذا العالم أو غيره يجرؤ على كسر كلمتي. كلمتي تُطاع، فقط!

ترك ذقني فجأة، قبض على فخذي من فوق الجرح وسحبني نحوه، والم ينفجر في ساقي. اقترب حتى شعرت بظله يبتلعني:

- أنظري إلى نفسكِ، ملكة بلا عروق، إنسانة بلا قوة، هذا العالم لم يعد لكِ.

شهقت. لكنه لم يبتعد:

- أمامك خياران... إما أن تنهضي الآن وتتبعيني بصمت أو تبقي هنا وتبكي مثل طفلة صغيرة.

سحب ذراعي بقوة حتى وقفت، جسدي يتأرجح بين قبضته وصلابته. انحنى، مزق حافة ثوبي دون تردد، لف القماش حول جرحي ليوقف النزيف. لم يكن في حركاته ذرة رحمة... فقط سرعة ودقة.

ثم رفع رأسه وقال بصوت أوامر لا يقبل نقاشًا:

- لدينا أربع ساعات للوصول إلى الباب قبل أن تنزفي حتى الموت. كلمة واحدة منكِ طوال الطريق وأقسم أنها ستكون الأخيرة. لا تخطئي في فهم ما حدث، لم أغفر... ولم أنسَ.

استدار ومشى، خطواته تبتعد بثقة وأنا خلفه أتبعه متعثرة. أحيانًا كان يمسك يدي ليمررني بين الصخور بدون أن ينظر إلي وكأن لمسته مجرد أداة، لا أكثر.

كان الوادي يضيق أكثر فأكثر حتى شعرت أن الصخور على الجانبين تكاد تطبق علينا. الأرض مكسوة بطبقة من الغبار البارد والهواء ثقيل برائحة رطبة. كنت أراقب ظهر نُوفَار أمامي، خطواته ثابتة كمن يعرف كل حجر في هذا الطريق، يمد يده أحيانًا ليمررني بين شق ضيق ثم يواصل السير دون أن يلتفت.

فجأة...لمحت شيئًا يتحرك في الظل البعيد!

أولًا كان مجرد ومضة، ثم صوت خافت يشبه احتكاك المعدن على الحجر. توقفت، لكن نُوفَار لم يتوقف. وفي رمشة عين، خرج من بين الصخور مخلوق لم أرَ مثله من قبل! جسد طويل مكون من عظام بارزة، الجلد ملتصق عليها كقماش مبلول، رأسه مفلطح تتدلى منه خصل شعر لزجة وفم ممتد حتى منتصف وجهه. صفوف من الأسنان الرفيعة الحادة تلمع بلعاب أسود. عيناه واسعتان، كان صوته مزيجًا من صفير وثغاء حيوان يحتضر!

انقض علي بسرعة لم يمنحني وقتًا للصراخ لكن يد نُوفَار كانت أسرع!

دفعني للخلف بجسده، فتلقى الضربة بدلا عني على كتفه...

سمعت طقطقة العظم تحت قوة الصدمة لكنه لم يتراجع، بل أمسك الوحش من عنقه بيد واحدة واليد الأخرى غرست خنجرًا قصيرًا في فمه المفتوح. صرخ صرخة اخترقت أذني كإبرة حارقة، ثم ضربه بذيله بقوة جعلت نُوفَار يتراجع مترًا للخلف. الدم الأسود يتفجر من فمه وينزلق على صدره.

لكن الضربة الثانية جاءت أسرع!

مخلبه اخترق لحم كتف نُوفَار من الجانب لكنه لم يتوقف، استدار بقوة، جر الوحش نحو الحائط الحجري وضرب رأسه بالصخر حتى تكسر الفك العلوي ثم أسقطه أرضًا وفصل عنقه بضربة واحدة.

ظل واقفًا للحظة يضغط على كتفه بيده. أنفاسه متقطعة لكن عينيه لا تزالان ثابتتين. اقتربت مباشرة ومزقت قطعة من طرف ثوبي، جلست أمامه وبدأت أربطها حول جرحه برفق.

رفعت رأسي إليه ثم قلت بصوت منخفض وأنا أشد العقدة:

- أنقذتني... مرة أخرى.

أجاب دون أن يشيح بوجهه عن الطريق:

- لو لم أفعل، لكنتِ الآن داخل معدته.

- لكنك وضعت نفسك في الخطر...

صمت لحظة، ثم قال:

- يجب أن تبقي حية.

ظللت أربط القماش على كتفه ثم نظرت في عينيه وسألت:

- نُوفَار... ما الذي كنت تفعله في الخارج؟ لماذا لا تريد أن تخبرني؟

ابتسم ابتسامة قصيرة، وقال بصوت هادئ كأنما يختزن فيه أكثر مما يقوله:

- أخبرتك من قبل يا ملكتي الجميلة، لو تكلمت... قلبك لن يحتمل. ما يكفيك أن تعرفيه هو أن لدي مهمة بالغة الأهمية.

نهض ببطء، مد يده ليساعدني على القيام، وواصلنا السير بين الصخور، الجرح على كتفه ينزف رغم الضماد، لكن خطواته لم تتغير. نظر إلي للحظة وكأن في عينيه بقايا دفء، ثم انطفأ ذلك الوميض فجأة وكأنه تذكر ما فعلت.

كنا نسير في صمت طويل، كنت أسمع أنفاسه وراء صوت الريح ثقيلة لكنها ثابتة. بعد مسافة طويلة، شعرت بأن ساقي لم تعد تحملني. توقفت دون كلمة، وضعت يدي على الجدار الصخري لألتقط أنفاسي. التفت إلي، لم يقل شيئًا. فقط فك سترته وألقاها إلي:

- استلقي.

استلقيتُ على الأرض ووضعت السترة تحت رأسي كوسادة ثم قال وهو يتجه إلى الصخرة المقابلة للجلوس عليها:

- عشر دقائق فقط.

لم أجادل. أغمضت عيني لكن النوم تسلل إلي أسرع مما توقعت وعندما فتحتها، كان يجلس قربي، ذراعه على ركبته، رأسه مائل قليلًا وهو يراقب وجهي في صمت... شعرت أن كل ما في الوادي سكت، حتى الهواء توقف وكأننا لحظة خارج الزمن. لم أستطع منع الكلمات من الخروج، بصوت منخفض يكاد لا يسمع:

- أنتَ أكثر رجل لا ينهزم رأيته في حياتي.

نظر إلي لثانية أطول ثم قام واقفًا، مد يده ليساعدني على النهوض:

- هيا...

واصلنا السير وخطواته كانت بنفس الثبات وكأن المشهد لم يحدث لكن قلبي ظل يردد تلك اللحظة في صمت.

مرت ثلاث ساعات وربما أكثر حتى بدأ الضوء أمامنا يتغير، يتحول من خفوت رمادي إلى وهج غريب يتقافز على الجدران ومعه جاء صوت لم أسمعه منذ قرون... قرع طبول عميقة متواصلة تشبه ضربات قلب قوية. تباطأت خطانا، تبادلنا نظرة قصيرة ثم واصلنا التقدم حتى خرجنا من آخر منعطف.

هناك... على بعد مئات الأمتار، انفتح الوادي على ساحة ضخمة تغلي بالأرواح! كل الكوْسِيون كل الدَامُون كل الهامِسُون، عشرات الآلاف، حشود متلاصقة حتى بدا المكان كأنه بحر من الأجساد السوداء المتشابكة. أعمدة من النار ترتفع من الأرض وتلتف حول نفسها ورائحة

لحم محترق تتسلل إلى صدري مع كل نفس. فوق الجميع، كانت غازولا الناعشة تحوم ببطء، أجنحتها العظمية تصفق مع كل دورة.

الهتاف كان موجة تضربنا من بعيد:

- نريدهم... نريدهم...!!!

ارتفعت الرؤوس فجأة، نظراتهم كلها مركزة نحو المكان الذي نقف فيه وكأنهم يعرفون أننا هنا. شعرت بالقشعريرة تصعد من قدمي حتى رقبتي. التفت إلى نُوفَار وقلت بصوت أقرب إلى الهمس:

- أقسم أنني جعلت رَايْفَان يعتقد أنني متمسكة بعرشي حتى لا يشك لحظة أنني قد أحاول الخروج... كيف إذًا اجتمعوا جميعًا هنا؟

أجاب وهو يراقب المشهد دون أن يرمش:

- ربما أنتِ لا تنوين الخروج لكنه يعرف أنني سأحاول إقناعك بذلك، الحقير... هو لم يدخل عقلك أنت، بل دخل عقلي أنا والدليل أنه ليس هناك.

اتسعت عيناي أبحث بين الحشود، كان على حق... لا أثر لرَايْفَان بينهم.

لكن فجأة جاء الصوت من خلفنا عميقًا:

- لست هناك... لأنني هنا.

التفتنا في آن واحد لكن نُوفَار لم يتمكن حتى من رفع ذراعه... الضربة جاءت خاطفة، هوت على جانب رأسه كصخرة فسقط أرضًا بلا وعي. كان رَايْفَان يقف على بعد خطوتين، عيناه تلمعان وخلفه اثنان من النامون، أيديهم مشدودة على سلاسل حديدية.

ارتجف صدري، حاولت التراجع لكن الألم في ساقي اشتعل فجأة، الجرح القديم الذي تركته لازار تمزق مع الحركة. شعرت بالأرض تميد تحت قدمي وكدت أسقط لكنه أمسك بي قبل أن أرتطم بالحجارة. حملني كما لو كنتُ شيئًا بلا وزن ثم التفت إلى أحد الدّامُون:

- خذوه.

انحنى الجنديان على نُوفَار وجراه عبر الصخور بينما كان زَايْفَان يتقدم بي نحو الباب، ذراعه تحيط بي كأنها قوس فولاذي لا يلين، خطواته ثابتة وكل خطوة تقربني من هدير الجموع الذي بدأ يعلو حتى طغى على أنفاسي. صيحات متلاحقة تصطدم ببعضها فوق رأسي مثل أمواج سوداء بعضها يهتف باسمي وبعضها يلعنني لكن النغمة الأوضح كانت نغمة واحدة: المطالبة برأسي.

أنا التي كانوا ينحنون تمجيدا لي قبل وقت قصير، أنا التي جلسوا تحت عرشي يخضعون لحكمي، الآن يرفعون قبضاتهم علي كما يرفع الجلاد سيفه. كان في الأمر طعم خيانة يثقل صدري، ليس لأنهم تخلوا عني، بل لأنهم لم يعرفوا أنفسهم أصلًا لم يواجهوا وجعهم لم يلمسوه، فضلوا أن يصبوا كل ما فيهم من كسر علي وكنتُ رغم كل شيء أشعر بخيبة لأنهم خيبوني وكأنني نسيت أن من يخون نفسه لن يفي بعهده لغيره.

مال زَيْفَانْ بجسدي قليلًا ليتجاوز صخرة بارزة، أعادني ذلك الارتجاج إلى الحاضر فالتفت نحوه أصرخ:

- إذًا ستأخذني إلى المذبح؟ هكذا خططت منذ ألفي عام؟ سعيد الآن؟!

لم يلتفت، واصل المسير وصوته حاد كالسيف:

- كم مرة سأكررها على مسامعك يا مَلَيْكَانَا؟

ثم نظر إلي بطرف عينه وهو يقترب أكثر من الباب ومن الجموع التي تتكدس أمامه:

- لن أقتلك... سأجعلك ملكتي.

توقفت أنفاسي للحظة. ملكته؟! هو نفسه الذي هددني أن يجعلني عبدة له؟ كان عقلي يحاول استعاب بهذه الجملة كمن يحاول الإمساك بالماء، لا يستقر المعنى في يدي. فتحت فمي للرد لكنه قاطعني:

- أنتِ مثخنة بالجراح، أتصور أن لَازَار هي من فعلت بكِ هذا.

- لَازَار؟! هل نحن حقًا نتحدث عن لَازَار الآن؟! زَايْفَان، انظر حولك، هل ترى ما يحدث؟ هل فقدت عقلك؟

كنت أتحرك بعصبية وكلما اقتربنا من الباب شد قبضته أكثر كأنما يخشى أن أتبخر من بين يديه.

- ماذا تريد بالضبط؟ مرة عبدة مرة ملكة... ماذا تريد مني؟!

- أريد أن آخذك حيث بدأ كل شيء... تتذكرين؟ قبل ألفي عام.

قُلتُ صارخة:

- وكيف أنسى؟

وحين نطقت هذه الجملة، لم أعد أراه ولم أعد أرى الجموع، وكأن شيئًا انفتح في داخلي ليجرني بقوة إلى ما حدث قبل ألفي عام:

كنا نمسك أيدي بعضنا، يده ساخنة رغم برد كُوْسَانُوكْتِيس الذي يتسلل إلى العظام وكان قد اجتاز لتوه اختبارين كاد أن يخسرهما، اختبارات ما كان لينجو منها لولا أنني دفعت به حتى اللحظة الأخيرة لولا أنني صدقته فيه حين كان على وشك أن يبتلع الظلام قلبه. لولا ذلك

لكان الآن مجرد دَامِي أو هامِسٌ أو أسوأ... كَوْسِي ضائع بلا ملامح ولا إرادة.

كنا نركض نحو الباب، الركض الأول الذي يشهده هذا العالم والجموع من خلفنا تتدافع لتشهد ما سيحدث إن خرج اثنان معًا. الصيحات لم تكن فرحًا ولم تكن غضبًا، كانت شيئًا آخر، شيئًا غامضًا ومفترسًا في آن واحد، صوتٌ يجعل الروح تترنح بين النشوة والرعب. شعرتُ حينها بأن الأرض تدفعني للأمام، أما هو، فقد كان في عينيه خوف لم أفسره يومًا.

خطوتان فقط فصلتنا عن النهاية والثالثة كانت ستضع أقدامنا خارج هذا الجحيم، لكن أصابعه بردت فجأة في يدي، تصلبت وتوقفت وانقطع اندفاعه كما لو أن قوة خفية شدته إلى الخلف. فالتفت أبحث في وجهه عن معنى...

هتافات الحاضر اخترقت أذني، صرخات الجموع أعادتني من أعماق الذكرى إلى قسوة اللحظة ومعها اندفع صوتي غضبًا وأنا أراه يجرني صعودًا على درجات الباب وأمامنا الجنديان يجران نُوفَار، جسده يتمايل نصف واعٍ، رأسه يسقط ويرتفع مع كل خطوة.

تمردت بعنف، ضربته، دفعت به بكل ما تبقى في من قوة حتى أفلتني فهويت على كفي وركبتي أزحف مبتعدة عنه.

وقف ثابتًا وسط الفوضى وكل سكان كَوْسَانُوكْتِيس يصطفون وأنا على الأرض بلا عروق وبلا يقين، أتنفس جحيمًا يلتهم كل ما هو حي. الهتافات تتصاعد، اسمه يتكرر فوق الرؤوس:

- رَايْفَان! رَايْفَان! رَايْفَان!

اقترب والريح التي أطلقتها غازولا تضربني فصرخت وأنا أرتد للخلف:

- ابتعد يا رَايْڤان، ابتعد!

جثا أمامي على ركبة واحدة ورأيت عروقه السوداء تبدأ بالضمور بعيدًا من عينيه ووجهه وعنقه، عندها شعرت بدهشة لم أتوقعها كأنني أرى أمرًا لم أظن أنني سأشهده في حياتي وفي عينيه بريق لم أره منذ ألفي عام، البريق ذاته الذي كان يومها. قال بصوت منخفض لكنه حاد:

- إذا خرجتِ يا مَلَيْكَانَا فلن أوقفك. لكن تعلمين أنني أصبحت ملك كُوْسَانُوكْتِيس والملوك إذا خرجوا ماتوا.

ثم أكمل بنبرة حزينة:

- أنا... أنا أحبك.

كلما تكلم كانت العروق تتلاشى أكثر. كان على وشك البكاء، أو لعل دموعي انعكست في عينيه. أكمل:

- أحبك يا مَلَيْكَانَا بقلب لا يعرف النبض إلا بالكسر.

عاد المشهد القديم قبل ألفي عام، يده تنزلق من يدي وصوته يكرر الكلمات ذاتها:

- لا أستطيع يا مَلَيْكَانَا، آسف، لا أستطيع الخروج.

قلت له والنار تتجمع في صوتي:

- لماذا؟! ماذا تعني لا تستطيع؟! لقد اجتزنا الاختبار، رَايْڤان، تماسك!

رفع نظره إلي وعيناه تمتلئان بمزيج ثقيل من الحزن والغضب، مزيج لم أجد له أصلًا:

- إذا خرجتِ، هناك احتمال كبير أن تفعلي بي ما فعلته هي. لقد حطمتني حتى سقطتُ في هذا العالم، لم تسحبني عروقي، بل

جرني قلبي المكسور. وأنا أعلم... أعلم أن هناك فرصة كبيرة لأن تفعلي بي الشيء نفسه ولا أستطيع المخاطرة.

صرخت، أرفض كلماته وكأنها حكم بالإعدام:

- لا، لا، رَايْفَان! كيف تحكم على النهاية قبل أن تبدأ؟! كيف تتنبأ بالخذلان قبل أن يولد؟!

رد وصوته صار أشبه بحد السيف:

- حتى لو لم تحطميني أنتِ، فسأحطمك أنا. أنا لا أعرف كيف أحب يا مَلَيْكَانَا، لا أعرف كيف أحب.

اقتربت منه، أرجوه:

- دعني أعلمك، لدي ما يكفي من الحب لأغمر قلبك.

أدار رأسه ببطء وقال:

- لا، القلب المكسور لا يتعلم. إنه لا يعرف سوى الكسر، هذا كل ما يملكه.

ثم انخفض صوته لكنه ازداد ثِقلًا كأن كل كلمة تُسحَب من جرح قديم لم يلتئم:

- أنا لا أعرف كيف أحب دون أن أسيطر. الحب بالنسبة لي يعني سيطرة. أسيطر كي لا أُكسَر، وفي ذلك أكسر غيري. أهرب ثم أعود، أقول لنفسي أنها هي ثم أصدق أنها ستخونني فأشد قبضتي أكثر وأكسر من جديد.

رأيته في لحظة واحدة يتحول من الحزن إلى غضب جارف، يتراجع خطوة بعد أخرى وعروقه السوداء تعود بسرعة وحشية كما لو أنه يذبح قلبه بيديه. ابتعد وكل عروقه اكتملت فجأة فتقدمت نحوه، همست:

- توقف...

فجاء رده قاطعًا كالسوط:

- تفي مكانك! سأدمركِ إن اقتربتِ.

وصدقته... لأن السواد الذي كان يتفجر في عروقه لم يترك أي مساحة لاحتمال أن يكون هناك قلب ينبض داخله.

- رَايْفَان! رَايْفَان! رَايْفَان!

الهتافات أعادتني بعنف إلى الحاضر، عيناه تلمعان وخلفه نُوفَار يفتح عينيه ببطء. رآني رَيْفَانْ أراقبه فأضرم الغضب في وجهه، ونهض صارخًا:

- اقتلوه!

صرخت بكل ما في صدري:

- لا!

انتزعت الخنجر من حزام رَايْفَان وانقضضت على الجنديين الدَامُون، ضرباتي كانت حادة نظيفة بلا تردد استحضرت فيها كل ما علمتني إياه سنوات الحكم: قطعت حناجرهم مزقت شرايينهم وأسقطتهم على الصخور قبل أن تُتاح لهم فرصة الشهيق الأخير.

مزقت قيود نُوفَار، نظرت في عينيه وقلتُ:

- نُوفَار، هل أنت بخير؟

نهض، صوته ثابت:

- نعم، لا تقلقي.

رَايْفَان ظل في مكانه، يداه خلف ظهره يراقبنا ثم تقدم خطوة نحوه فقفزت بينهما أصرخ:

- رَايْفَان، لا! لا تقترب!

نظرت إلى نُوفَار، كان يقف بشموخ، نظر إلي ثم إلى رَايْفَان. حينها تكلم الأخير:

- مرة أخرى يا مَلَيْكَانَا... لن أمنعك من الخروج، لكن لا أستطيع اللحاق بك... سأموت إن فعلت.

اقترب خطوة أخرى والعروق السوداء على جسده تتلاشى أكثر:

- قلت لك قبل ألفي عام إن هذا القلب لا يعرف النبض لأنه حين نبض مرة خارج هذا العالم، عُلم أن النبض خطأ. قبل ألفي عام، لم أردك أن تساعديني على النبض... أما اليوم، فأنا أطلبه منك.

خفض صوته قليلًا:

- في ألفي عام قضيناها معًا في قتال وحب وكراهية ومحاولات قتل، لم أرفع سكينًا قاتلة في وجهك ولو لمرة، رغم أنكِ قتلتِ أخي...

صرخ نُوفَار من خلفي، صوته يخترق الضوضاء كحد سيف:

- مَلَيْكَانَا! لا تصغي إليه! إنه يخدعك كما فعل على مدى ألفي عام!

لم يزح رَايْفَان نظره عني وكأن عينيه تُسمرانني في الأرض:

- رغم أنكِ كنتِ شريكة في مقتل أعز أصدقائي، ما زلتِ الشيء الوحيد الذي لم أكسره.

اقترب نُوفَار خطوة، يقطع بيننا المسافة:

- إنه لا يحبك، يريد أن يقيدك أن يحولك إلى عبدة له. أنتِ بشرية بحق السماء! يجب أن تخرجي من هنا قبل أن ينهيكِ.

تأملتُه لحظة ثم التفت إلى رَايْفَان وعدتُ إلى نُوفَار:

- وأنت؟ نصف عروقك ما زالت سوداء، لن تستطيع الخروج، وسيقتلك إن بقيت!

ارتفع صوته، فيه من الحدة ما يشق الصخر:

- لا تهتمي بي ولا بأي أحد ولا حتى بالعالم كله! اهتمي بنفسك، اخرجي من هذا الجحيم! لا تصدقيه لا يعرف كيف يحب.

ابتسم رَايْفَان، ابتسامة تائهة بين الغضب والمرارة:

- صحيح لا أعرف كيف أحب لكنه يكذب في أمر واحد... أنتِ تستطيعين أن تعلميني، ابقي معي يا مَلَيْكَانَا.

بدأ رأسي يدور كأن الأرض تميد تحت قدمي. ارتفع صوتي، انخفض، تمزق بين الصراخ والهمس:

- لا... لا... لا... لا...!!!!

وكل مرة أنطقها، يعود المشهد... مشهد البوابة قبل ألفي عام، ظهري الذي ارتطم بأرض الجافة والدموع التي تحولت إلى نشيد جنائزي لهذا العالم، أذان بطيء لموت قلبي.

رأيته يومها يبتعد والعروق السوداء تعود إليه فجأة، صورته ترتفع إلى أسفل البوابة حيث بدأ يعذب الأرواح بلا رحمة، يفرغ فيهم كل ما تبقى من غضبه وخوفه حتى صار سيد المعاقِبين، يهابه الجميع ويكرهونه في الوقت نفسه.

أما أنا، فبقيتُ جاثية قرونًا أمام الباب لا أتحرك إلا بقدر ما يسمح به الألم، أرى العابرين يمرون أمامي، يحدقون إلى احتضاري البطيء وفي سواد العروق وهي تزحف إلى دمي بخطى ثقيلة كما لو أن كل صرخة أطلقها كانت تفرغ قطرة سم جديدة في شراييني.

ومع مرور السنين، صار بكائي موسيقى هذا المكان، بكاءً ثابتًا لا ينقطع، ينساب في الصخر والهواء. وفي يوم ما، رأيت الأرواح التي تجوب هذا العالم تتوقف واحدة تلو الأخرى أمامي، لا لتهزأ بي أو لترثيني، بل

لتسجد كما لو أن حزني كان تاجًا فوق رأسي وكأنهم وجدوا في ضعفي قوة لم يعرفوها في أنفسهم.

مددتُ يدي ذلك اليوم إلى التاج الأسود الذي حمله الجنود أمامي ووضعته على رأسي وأنا أقطع آخر ما بقي من خيوط الشعور. لم أعد أريد أن أكون امرأة تنتظر، بل أن أكون قوة تُنتَظر وصرتُ مَلِكة الألم، أحكم بالعقل البارد الذي لا يرحم وأعاقب كل من اقترب من البوابة كما لو أنني أنتقم من نفسي التي لم تعبرها.

منذ ذلك اليوم، احترمتني الأرواح لأنني حملت حزني كما يُحمل سيف وصار هو يراقبني من بعيد، أحيانًا كعدو يريد إسقاطي وأحيانًا كرجل يريد امتلاكي وأحيانًا كشيء بينهما لا اسم له.

يا لغرابة هذا العالم... الأرواح التي رأيتها تركع أمامي قبل ألفي عام هي نفسها التي تريد رأسي اليوم... تلك التي كانت تهتف: مَلَيْكَانَا... الملكة، هي نفسها التي تصرخ الآن: رايفان!

عاد صوت رَايْفَان إلى اللحظة:

- مَلَيْكَانَا، لم أطلب منك هذا يومًا، لكني أطلبه الآن، علميني كيف أحب...

ورد صوت نُوفَار كالقضبان خلف ظهري:

- لا! من لم يعرف الحب منذ ألفي عام، لن يحبك الآن. اخرجي! اخرجي فورًا!

قلتُ بصوت يتردد بين الرجاء والخوف:

- لكن لا أريد أن أخرج وحدي، لا أريد!

أجاب نُوفَار بسرعة وكأنه يقاتل الزمن:

- سألحق بك، سأفعل كل شيء لأتخلص من نصف هذه العروق... أعدك! لكن انهضي الآن، لا أستطيع أن أراك تدمرين نفسك!

وكان رَايْفَان يكرر:

- مَلِيكَانَا... سأحميك، أعدك.

صرخت في وجهه:

- لكني بشرية! هل تدرك ذلك يا رَايْفَان؟ سيقتلونني إن بقيت!

وبعينين تلمعان بالدموع وعروقه تتلاشى ببطء كما لو أن قلبه يُبعث من جديد خوفًا من أن يفقدني، قال:

- سأحميكِ... أنا الملك. ساعديني لأتخلص من هذه العروق لنخرج معًا يا مليكانا.

الهتافات بدأت تعود، تقترب من أذني كالأمواج:

- رَايْفَان! رَايْفَان! رَايْفَان!

- رَايْفَان! رَايْفَان!

- رَايْفَان!

- ......

أغمضت عيني وسكنت كل الأصوات.

- أنتم هنا؟ أعلم أنكم هنا، أنتم الذين تقرؤونني الآن، أعلم أنكم تسمعونني. أحتاجكم، لا أعرف ماذا أفعل، لا أعرف أين أقف.

عليكم أن تختاروا من أجلي، هناك يدان ممدودتان إلي، يد رَايْفَان... ويد نُوفَار.

سأتبع اليد التي ترونها أنتم الأحق... لكن قبل أن تمدوها نحوي، وقعوا هنا لتكون بصمتكم شهادة على اختياركم.

ART_OF_BOOK

توقيع

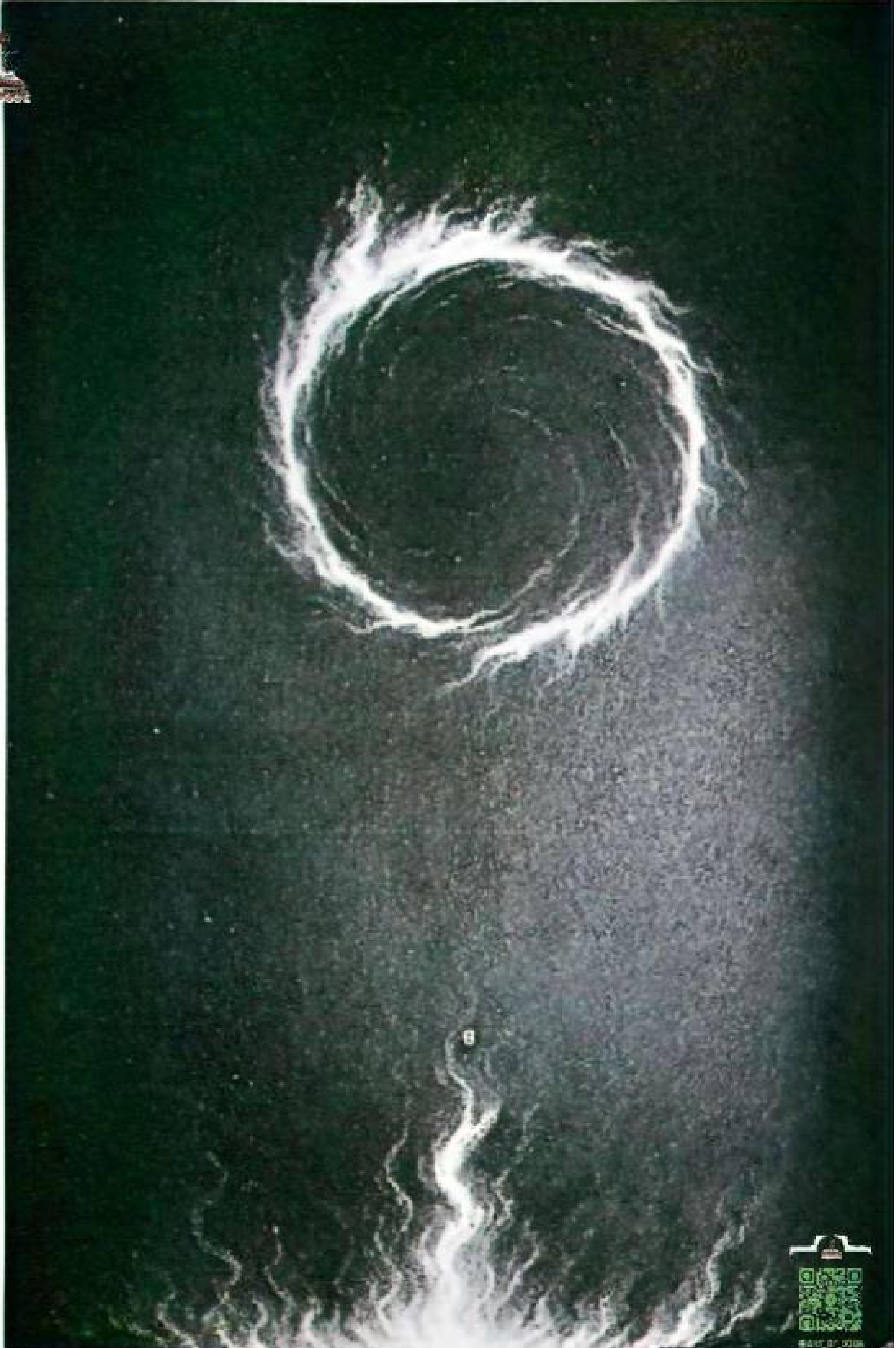

إن اخترتم يد نُوقّار، فاذهبوا إلى الصفحة 352

وإن اخترتم يد زائقّان، فاذهبوا إلى الصفحة 362

أيا يكن خياركم، توجهوا بعده إلى الصفحة 376

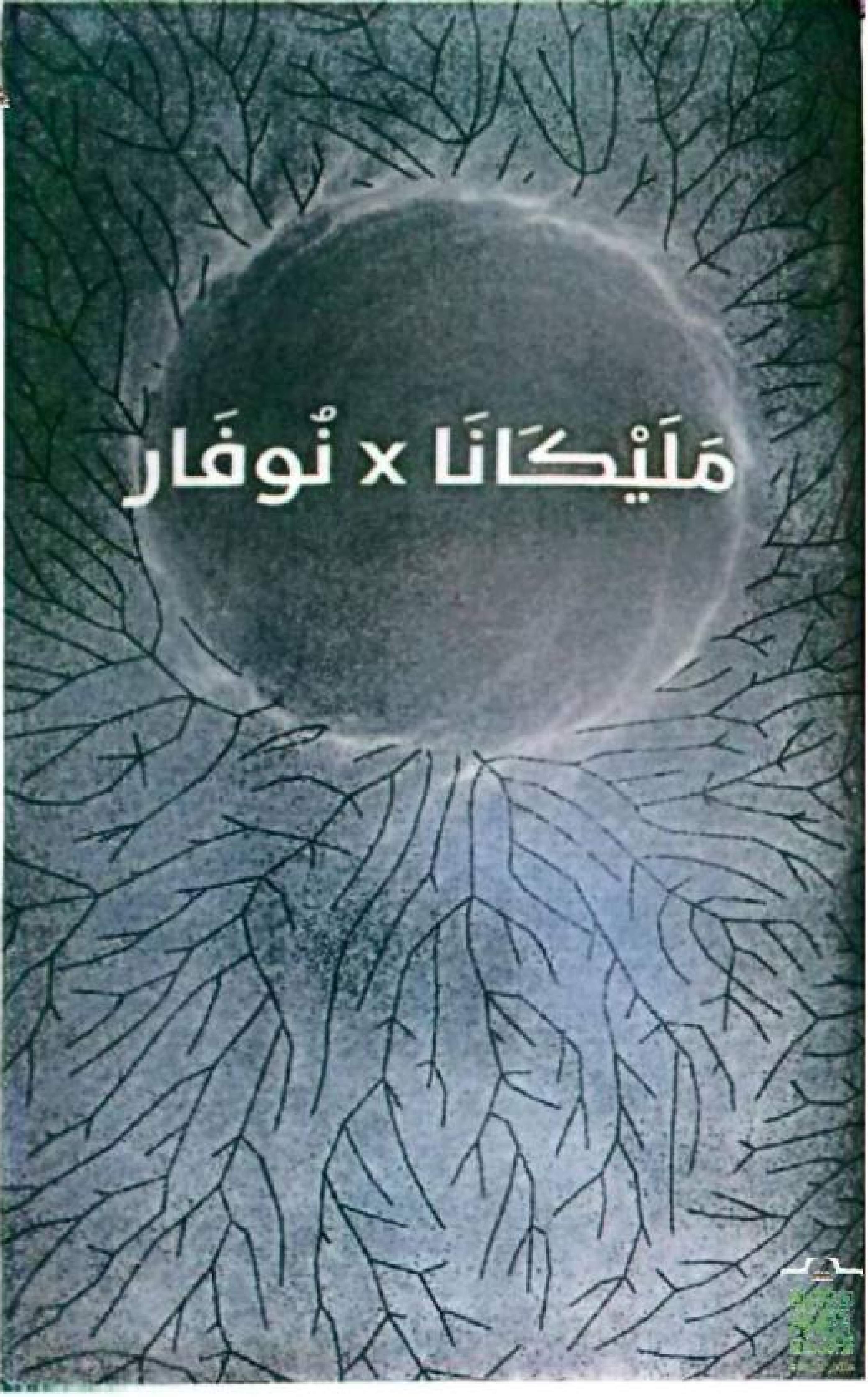
مَلَيْكَانَا x نُوفَار

استدرت ببطء، شعرت الهواء من حولي يزداد كثافة، يضغط على صدري كلما التفت أكثر. كان نظري يتنقل بين نُوفَار ورَايْفَان، أبحث في عيني عن أي خيط يمكن أن يربطني بهذا الأخير بعد كل ما جرى، عن أي شرارة تقول أن ما كان بيننا لم ينتهِ تمامًا لكن ما وجدته كان انعكاسًا باردًا لجرحي، صدى لخيانته لذكرى تركه لي أمام البوابة منذ ألفي عام. ثبت بصري عليه وصوتي خرج مزيجًا من الحزن والقوة:

- لا أستطيع أن أنتظرك أكثر يا رَيْفَان، لا أستطيع أن أخاطر بأن تحطمني من جديد. قبل ألفي عام قلتَ لي إنك لا تريد أن تخاطر بأن أكسر قلبك واليوم أقول لك الشيء نفسه: أنا لا أريد أن أخاطر بأن تكسر قلبي. هذا الرجل الذي يقف هناك أمام البوابة، أنقذني من خيانتك ومن جنودك ومنك أنت.

تحرك رَايْفَان خطوة نحوي وصوته يشق الهواء كحد السيف:

- مَلَيْكَانَا، لم أرد قتلك يومًا، الأمر فقط أن...

رفعت يدي أوقفه:

- رَايْفَان... لا أستطيع أن أحب قلبًا مكسورًا. لا أستطيع إصلاح ما حطمه شخص آخر. أنا أستطيع أن أحب لكني لا أعرف مَن أحب. وأنت تعرف مَن تحب لكنك لا تعرف كيف. لا يمكن أن نستمر على هذه الحالة. هناك يد أخرى ممدودة نحوي الآن، يد أنقذتني، تحترمني بما يكفي لتخرجني من هذا الجحيم ولن أشيح عنها.

استدرت وخطوت نحو نُوفَار. كان رَايْفَان يقف متجمدًا، عيناه تفضحان صدمة رجلٍ كان ينتظر حتى اللحظة الأخيرة أن أعود إليه...

لكني لم أفعل...

أمسكت يد نُوفَار وضغطت عليها بقوة:

- عِدني أنك ستخرج، أنك ستتخلص من العروق التي تبقت لك. أنا لن أتحرك من الجهة الأخرى... سأنتظرك، أخرج من أجلنا.

ابتسم نُوفَار ابتسامة قصيرة لكنها ثابتة:

- أعدك.

لم يتركني، ومع أول خطوة لي داخل البوابة، انزلقت قدماي كأن الأرض تحتها لم تعد موجودة ودوامة من الظلام والعظام جذبتني بقوة هائلة إلى الداخل! الريح الملتفة حول جسدي كانت تعصف بي في كل اتجاه...

الصرخات تتقاطع...

قطع العظام تصطدم بوجهي، لم أعد أرى شيئًا سوى دوائر متتالية من الفوضى!

في البداية، ظننت أنني وحدي في هذا الجحيم الدوار، أن جسدي يندفع مع التيار بلا أي سند، حتى شعرت بثقل غريب على جانبي... ثقل يجرني رغم قوة الدوامة. كان إحساسًا مبهمًا، أشبه بظل يلتصق بي من الخلف.

التفت وسط الفوضى لأرى... نُوفَار!

لم يكن يدفعني من بعيد، لم يكن يحاول فقط أن يلحق بي. كان ممسكًا بذراعي بقوة، قبضته أشبه بسلسلة حديدية مغروسة في لحمي، وجهه مائل نحوي، عيناه ثابتتان لا تلتفتان إلى الرعب من حولنا، بل إلى شيء أبعد... شيء ينتظر عند نهاية هذه الدوامة!

صرختُ بكل قواي:

- ما الذي يحدث يا نُوفَار؟!

ضغطه يشتد، الألم يزحف إلى عظمي:

- أنت تؤلمني... نُوفَار!

حين نظرت إلى موضع قبضته، شهقت... العروق السوداء كانت تزحف من جلده إلى جلدي، تسري تحت بشرتي كسم حي، تحرقني من الداخل وتغزو دمي بسرعة جنونية.

- نُوفَار! توقف!

لكنه لم يلتفت... عيناه كانتا على الضوء البعيد، على المخرج وكأني لم أعد سوى أداة بين يديه. ومع كل التفاف في الدوامة كان سواد جديد يزحف في عروقي. ثم، بلا إنذار، قذفتنا البوابة إلى الخارج.

سقطت على الأرض المبتلة، السماء سوداء والمطر ينهمر بلا رحمة والناس من حولنا يتمايلون كأشباه موتى، عروقهم السوداء تتلوى على جلودهم. نظرت إلى جسدي... نصفه مغطى بالسواد رغم أنني قبل لحظات كنت بشرية نقية.

رفعت عيني إلى نُوفَار... جسده خالٍ تمامًا من أي أثر للسواد، جلده صافٍ كأن العروق لم تعرف طريقه أبدًا. رفع رأسه نحو السماء، مد ذراعيه، أخذ نفسًا عميقًا، ثم ضحك...

ضحكة طويلة باردة فيها مكر المنتصر وارتياح من بلغ غايته!

- بحق الله، ما الذي يحدث يا نُوفَار؟!

انحنى على ركبة واحدة أمامي وفي عينيه بريق لم أره قط:

- أما زلتِ لا تفهمين؟ قلت لكِ يا ملكتي الجميلة... لو أخبرتكِ بما أفعله خارج كَوْسَانُوكْتِيس، قلبك لن يتحمل.

- ماذا تعني؟! لا أفهم!

ابتسم ابتسامة مائلة وقال ببرود:

- الأمر لم يكن ضدك، مهمتي أكبر من أي شيء، أكبر منكِ وأكبر مني.

- لقد خنتني! كنت أظن أن الخروج لا يكون إلا لمن تطهر تمامًا!

- هذا ما أرادوا لكِ أن تصدقيه. أما أنا، فلم أضيع ثانية إلا في دراسة هذا العالم، تفكيك قوانينه، فهم آلياته، هي... تلك الحقيرة... لم تخبرني بكل شيء، هاهاها.

قلتُ والدهشة لا تخلو من صوتي:

- من هي؟!

تبسم وأكمل حديثه:

- كنتُ صريحًا منذ البداية... هدفي لم يكن أبدًا أن أتخلص من العروق السوداء بالمعنى الذي تفهمينه لم أرد أن أقتلعها من جذورها، بل أردت فقط أن أزيحها عن طريقي، أن أتخفف منها بما يكفي لأكمل مهمتي خارج كُوْسَانُوكْتِيس. ولتحقيق ذلك، كان علي أولًا أن أدخله.

لكن الدخول إليه سر كان علي أن أكتشفه... لذلك كنتُ أترصد الكوسيون وهم يخرجون لجمع الأرواح، أختطف أحدهم، أقيده وأعذبه حتى ينتزع الألم منه الحقيقة. وأخيرًا نطق أحدهم: لا دخول إلى هذا العالم إلا برفقة كوسي، روح بشرية كُسِرت في كُوْسَانُوكْتِيس وعندما سنحت الفرصة... دخلت معه، وكان مفتاحي المكسور.

اقترب أكثر وصوته يضغط على قلبي:

- أما الخروج، فلم أكن أعرف طريقه. لكن حين رأيتك تنقذين ذلك الوغد رَايْفَان وفجأة تتخلصين من كل عروقك وتصيرين بشرية...

فهمت. إذا أردت أن أخرج وأتخلص من عروقي السوداء، أحتاج إلى مفتاح نقي. وأنتِ... كنتِ مفتاحي.

- إذًا...استعملتني!

ابتسم ابتسامة باردة وقال:

- بالضبط. لم تكن غايتي أن أتخلص من عروقي السوداء، بل أن أنقلها إليكِ... أحيانًا نلتصق بالنقاء لا لِننقي أنفسنا، بل لِنلوثه بنا ونخرج منه أنقياء.

شعرتُ أن قلبي يهوي في صدري، يلتف على نفسه كما لو كان يحاول أن يختفي كي لا ينكسر مجددًا. الكلمات خرجت مني مشروخة:

- لكنك أنقذتني مرات... حميتني من الموت!

قال بكل وقاحة:

- كان يجب أن أبقيك حية، أن أحافظ على نقائك حتى أصل إلى الباب. لو أنك فقدت نقاءك أو مت قبل البوابة... لضاع كل شيء.

كنت تحت المطر، أنفاسي تختلط بالبخار البارد أحاول أن أستوعب أنني هربت من زايْفان كي لا يحطمني، وها أنا الآن في الخارج... مكسورة من جديد بأبشع الطرق!

ثم وبكل بساطة، أدار ظهره لي وبدأ يسير، خطواته ثابتة، لا يلتفت. صرخت باكية:

- لا... لا تتركني هنا!

لكنه لم يتوقف... ابتلعته الظلمة وتركني جاثية أمام البوابة. المطر ينزل أثقل والعالم من حولي ميت، أصواته مكتومة...

حينها شعرت بالبرد يتسلل من جلدي إلى عروقي... سواد جديد بدأ يزحف من أصابعي إلى كتفي، يغمر النصف الذي بقي نقيًا. لم أقاوم، لم أصرخ. كنت متعبة... قلبي كان متعبً، مكسورًا، مقهورًا...

لكن حين اكتمل السواد، سُمعت خلفي خطوات ثقيلة... كان الكوسيون يخرجون من البوابة، يتجهون نحوي.

لم أتحرك... لم أهرب... حين أمسكوا بي، لم أقاوم.

أعادوني إلى الدوامة وكل التفاف فيها كان يعيدني ألفا عام إلى الوراء، إلى كل مرة خذلني فيها قلبٌ ظننت أنه سيحميني وحين فتحت عيني، كنت مجددًا في كُوسَانُوكْتِيس.

رفعت رأسي... كان رَايْفَان واقفًا أمامي، يحدق إليَّ. لم يكن في صوته غضب حين قال:

- اخترتِه... ثم عدتِ إلي. كنتِ ملكةً والآن ستسقطين هنا عبدةً ولن أرحمك؛ ستطاردكِ كل صرخة كل أنين كطعنة في قلبك تذكركِ بأنكِ لم تخونيني وحدي... بل خنتِ نفسكِ أيضًا.

❁❁❁

نُوفَار: كان الهواء خارج البوابة أثقل مما تخيلت، مشبعًا برائحة المطر الممزوجة برائحة التراب الفاسد وببخار العروق السوداء التي كانت تلتف حول كل شيء. لكنني كنت أشعر بخفة لم أشعر بها منذ زمن بعيد.

اقتربت من كاوليس ونومبار، رفيقي منذ البداية اللذين كانا يقفان وكأنهما متأكدان من أنني سأخرج. كانا يبدوان واثقين بي، وبحق.

اقتربت منهما وعلى وجهي ابتسامة ماكرة، فقال نومبار:

- إذن... وجدت مفتاح الخروج.

ضحك كاوليس وأضاف:

- ويبدو أنك صرت أخف بكثير... كنت دائمًا أقوى منا والآن ستتفوق علينا أكثر في المهمة.

اقتربت منهما أكثر ويداي خلف ظهري وقلت بابتسامة جانبية:

- صحيح... أشعر بالخفة. يا لها من تجربة رائعة. أعشق حين تتركني هي بلا كل الإجابات، حين تتركني أحل الألغاز بنفسي، إنها تعرفني جيدًا.

ضحكنا نحن الثلاثة ثم نظرت إلى العالم من حولنا. كان الناس مغطين بالعروق السوداء من رؤوسهم حتى أقدامهم، كل شيء كان أسودا، مظلم، السماء تنزف ظلامًا على كل ما هو حي.

قلت بابتسامة:

- أرى أن المهمة تتقدم جيدًا.

رد كاوليس:

- نعم، لكنها تباطأت قليلًا لأنك لم تكن هنا. أنت أسرع منا حتى مع العروق، لكن نعم... المهمة تسير.

أجبت:

- حتى الأرواح في الداخل لاحظت أن هناك المزيد من الأرواح تدخل بوتيرة أسرع.

قال نومبار ضاحكًا:

- نحن لا نتوقف عن نشر اللعنة، أما أنت فالآن بلا عروق سوداء، ستكون أسرع منا بكثير... ستنشرها بسرعة أكبر.

قلت:

- بالطبع، هذا هو الهدف. كيف حالها؟

أجاب نومبار:

- ما زالت مقيدة... لكن سلاسلها تضعف أكثر فأكثر.

قلت وأنا أنظر إلى البوابة:

- سأحررها في النهاية... أعلم ذلك.

سأل كاوليس:

- كيف هو الوضع في الداخل؟ هل يوجد ملك وملكة يقودان الجيش إلى هنا؟

التفت ونظرت إلى البوابة وقلت:

- هناك ملك، لكن من الصعب عليه أن يحتفظ بملكة. المرأة التي كانت الآن في الخارج... هي الملكة الحقيقية، لكنها لا تختار نفسها أبدًا. أعتقد أنه من غير المرجح أن يصبحا ملكًا وملكة معًا. هو يريد أن يسيطر عليها وهي تريد أن تحبه أكثر مما تحب نفسها. هذا لن ينجح. سيبقيان في هذا الجحيم، أحيانًا ملكين وأحيانًا عبيدًا.

قال نومبار:

- سنجد الأرواح التي تستحق أن تصير ملكًا وملكة وتقتاد الجيش إلى الخروج.

ثم قال كاوليس وهو يضع يده على كتفي:

- لا تقلق يا إبليس... سنفعل كل ما بوسعنا لتحرير زوجتك.[1]

(1) عودوا إلى الرسالة الأولى، في الصفحة (40).

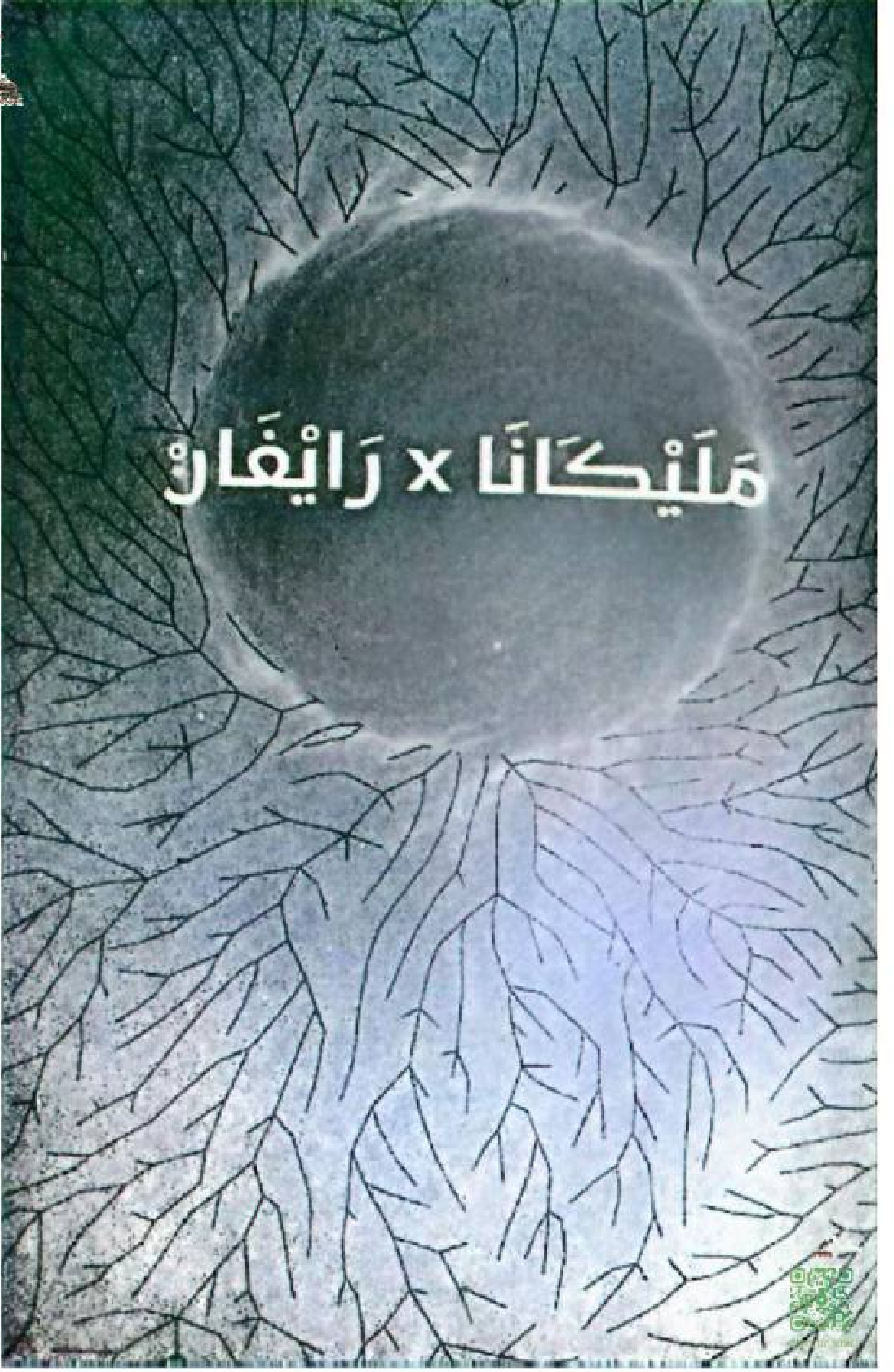
مَلَيْكَانَا x رَايْفَانْ

كانت يد نُوفَار أمامي، ساكنة، تنتظر أن تلتقطها يدي كما لو أن خلاص روحي مرهون بتلك اللمسة، وعد بالخروج، بوابة نحو بداية جديدة لا مكان فيها لذكريات ألفي عام من الانكسار لكن على الجهة الأخرى كانت يد رَايْفَان ثقيلة كالتاريخ الذي تحمله، ممتدة نحوي بلا تردد، أصابعه نصف منغلقة كأنه يعرف أنني سأملأ الفراغ بينها، يد رأيتها كثيرًا وهي تجرح وهي تحمي وهي تدفع وهي تضم وكل مرة تركت أثرًا لا يزول، أثرًا لم ينجح الزمن ولا الألم في محوه، يد أعرفها أكثر مما أعرف ملامحي في المرآة، يد شعرت بها فوق قلبي يوم حاول أن يخترقه وفوق ظهري يوم منع عني السقوط.

التقت عيناي بعينيه، لم أجد فيهما تلك البرودة التي كنت أخافها، بل وجدت نارًا قديمة كانت تختبئ خلف جدار الصمت الذي بناه بيننا، نارًا تتوهج كلما اقتربت، نارًا تقول أنني ما زلت ملكته حتى وإن أعلنت ألف مرة أنني لست كذلك، رأيت فيهما فرحًا لا يحاول إخفاءه، مزيجًا من ارتياح المنتصر ودهشة من كاد يخسر كل شيء ثم استرده في اللحظة الأخيرة كأنه كان ينتظر هذه اللحظة منذ قرون، ينتظر أن أعود إليه حتى لو كان الطريق الوحيد لذلك هو أن أبتلع كبريائي وأتجاهل نزيف قلبي.

خطوت نحوه ببطء، كل خطوة أثقل من سابقتها، أسمع أنفاسي وأنفاسه تمتزجان في الهواء وفي الخلف كان صوت نُوفَار يعلو كالعاصفة، يمزق المسافة بيننا:

- مَلَيْكَانَا! ما الذي تفعلينه؟ أنتِ بشرية الآن بلا عروق عليكِ أن تخرجي! هذه فرصتك الوحيدة!

لكنني لم ألتفت، ظل بصري على رَايْفَان، على اليد التي لم تهتز رغم كل ما يقال حولها، على العيون التي لم تنكس رغم أنني كسرتها ذات يوم وقلت بصوت يعرف تمامًا أن لا رجوع بعده:

- لا أستطيع تركه هنا... ليس بعد كل ما مضى.

شد نُوفَار على أسنانه، نظراته تتحرك بين وجهي وبين رَايفَان الذي كان يقف خلفي كظل ثقيل:

- مَلِيكَانَا... لديكِ فرصة لا تتكرر لتخرجي، لتُغلقي هذا الباب إلى الأبد... هل تفهمين ما ترمين به من بين يديك!

شعرتُ بمرارة الحقيقة في كلماته، لكنها لم تكن كافية لقتل خوفي الأكبر:

- ربما... لكني لا أستطيع أن أتركه. لا أستطيع أن أكون سببًا في أن يظل سجينًا هنا.

تغيرت ملامح رَيْفَانْ للحظة كأنما تنفس أخيرًا بعد اختناق طويل وامتدت أصابعه لتغلق على يدي بإحكام، إحكام العهد، إحكام الملك حين يستعيد ملكته ودفء غريب اندفع من كفه إلى جسدي كله، دفء لم يكن حنانًا فقط، بل قوة، وعدًا بالحماية وإقرارًا بأن مكاني إلى جانبه، ليس كأسيرة، ولا كغريبة، بل كشريكة على العرش الذي لم و لن يتقاسمه مع أحد.

اقترب مني حتى شعرت بظله يغمرني، انحنى قليلًا ليقول بصوت منخفض لم يسمعه أحد غيري:

- كنت أعلم أنك ستعودين، حتى وأنتِ تبتعدين، حتى وأنتِ تختارين غيري، كنت أعلم.

ثم رفعت بصري إلى نُوفَار فوجدت في عينيه شيئًا غريبًا، ليس رجاءً ولا غضبًا، بل حركة عصبية تتسلل إلى جسده، أنفاسه تتسارع، شفتاه تتمتمان بكلمات متقطعة حتى انطلقت منه فجأة عبارة حادة كسكين تخترق السكون:

- مهمتي، كل هذا الوقت... كل هذه الحسابات... لن أسمح أن يضيع كل شيء!

التفتنا أنا ورَايْفَان إليه في وقت واحد، نظراتنا تتشابك لحظةً فوق رأسه وكأننا نحاول أن نفهم هل يهدد أم يهذي. رأيت كتفي رَايْفَان يتوتران، يده تقترب ببطء من السكين المعلقة على خاصرته، عروقه تنبض ببطء قاتل أعرفه، ذلك الإيقاع الذي يسبق الانفجار ثم بدأ يخطو نحو نُوفَار بخطوات ثابتة وفي عينيه ذلك البريق الذي لم يترك أحدًا على قيد الحياة من قبل.

تحركت قبل أن يدرك عقلي ما أفعل، أمسكت ذراع رَايْفَان بكل قوتي، وضعت نفسي بينه وبين نُوفَار وصرخت بصوت ملأ الساحة:

- لا! أرجوك، لا تفعل... لقد حاول أن ينقذني، أعلم أنه غامض ومربك لكنه... أنقذ حياتي.

كان نَفَس رَايْفَان ساخنًا على وجهي، قبضته تشد على سكينه، يده الأخرى تتوتر، يوشك أن يدفعني جانبًا لكنني واصلت التوسل:

- من أجلي يا رَايْفَان، أرجوك، أتركه!

تجمد لثوانٍ بدت لي دهورًا، عيناه تحدقان إلى وجهي لا في كلماتي ثم نفخ الهواء من صدره بعنف وأدار رأسه جانبًا، يده تنسحب عن السكين ببطء.

لم يمضِ وقت طويل بعد أن هدأت أنفاسه حتى مد رَايْفَان يده نحوي، قبضتي ما زالت ترتجف من التوتر، نظري يتنقل بين ملامحه الجامدة والعروق التي تنبض ببطء في عنقه ثم فجأة أحكم قبضته على يدي بقوة جعلتني أشعر بحرارة جلده تسري في عروقي، لم يقل شيئًا، اكتفى بأن جذبني نحوه بخطوة واحدة جعلت المسافة بيننا تتلاشى، ثم

استدار بي نحو الساحة الكبرى حيث كانت جموع الكوْسيون والدَامُون والهابسُون تتكدس على أطرافها.

سار بي إلى الأمام بخطوات ثابتة، جسده يشبه جدارًا يحجب عني كل ما أمامنا وكنت أسمع الهمسات تتصاعد من الصفوف الأولى، كلمات مبعثرة:

- إنها بشرية ضعيفة، كيف؟

لكن صوتها كان يزداد حدة مع كل خطوة نخطوها حتى شعر قلبي بثقل آلاف النظرات تطعنني من بعيد.

توقف رَايْفَان في منتصف الساحة، رفع ذراعي الممسكة بيده عاليًا حتى شعرت بكتفي يمتد ثم صرخ بصوت وصل إلى أبعد أركان كوْسَانُوكْتِيس:

- اليوم أمامكم جميعًا نعيش حدثًا لم يشهده هذا العالم منذ أن بُنيت جدرانه... اليوم تقف إلى جانبي ملكة بشرية، ملكة اختارت أن تكون معي!

ارتفعت أصوات الاستهجان من الصفوف الخلفية، ضحكات ساخرة، كلمات حادة:

- ضعيفة! لن تحكمنا!

ووسط الضوضاء تقدم خمسة من الدَامُون، وجوههم مشدودة كالأقنعة، سيوفهم المعقوفة تلمع بضوء الدماء القديمة، يقتربون بخطوات ثقيلة نحو رَايْفَان، يريدون أن ينتزعوا مني حياتي أمامه. دفعني خلفه باندفاع جعلني أرتطم بعمود حجري ثم أخرج من جانبيه سكينين عريضين أحكم قبضته عليهما كانت امتدادًا لذراعيه وفي

اللحظة التالية انقض عليهم بوحشية لم أرها حتى في أسوأ طقوس التعذيب التي عرفتها في سوبكوتيس.

الأول اخترق سكينه حنجرة أحدهم وتدفق منه الدم كسيل يغمر يديه والثاني شق رأس خصمه من الجبين حتى أسفل الفك في حركة واحدة جعلت نصف وجهه يسقط أرضًا أما الثالث فقد جذبه من شعره وغرس سكينه في عينه حتى سمعت صوت العظم يتفتت والرابع رمى سكينه في صدره ثم انقض عليه ليكسر عنقه بيده العارية أما الخامس فقد تركه لثوانٍ ينظر إليه قبل أن يقطع ساقيه من الركبة.

عندما انتهى كان جسده مغطى بالدم، قطرات تتساقط من أصابعه على الأرض تنزلق على جلده كوشم حي، التفت إلي وعيناه مشتعلة بقوة تُخيف حتى من عرفته ملكًا ثم صرخ من جديد:

- اليوم أمامكم جميعًا أقولها وأعيدها... أنا الملك وأنا من يضع القوانين ويعيد كتابتها إذا لزم الأمر واليوم مَلَيْكَانَا هي ملكة هذا العالم معي سواء أحببتم أو كرهتم، لن يغير ذلك شيئًا. ومن يجرؤ أن يعترض... فليقترب الآن.

رفع يديه الملطختين بالدماء عاليًا فعم الصمت، صمتٌ كثيف حتى أنني سمعت قطرات الدم تسقط على الحجارة، آلاف الوجوه أمامنا، عشرات الآلاف من العيون تحدق إلى رجل واحد ومع ذلك لم يتحرك أحد، الخوف يجمد أطرافهم ووقفت أنا خلفه بلا عروق، بشرية تمامًا أراقبه وهو يفرض سلطته. مد يده نحوي من جديد، صوته أقل صخبًا لكنه أخطر:

- تعالي يا ملكتي...

دخلت معه القصر في ذلك اليوم وأنا أظن أنني أخيرًا خرجت من دوامة القرون التي قضيتها أقاتل كي أبقى واقفة. أن وجوده إلى جانبي سيعني أمانًا لم أعرفه من قبل وأن فكرة أن أكون بشرية بين جدران كُوسانُوكْتِيس لن تكون حكمًا بالإعدام، بل تاجًا يليق برأسي.

مرت الأيام الأولى كأنها نسجت من خيوط دفء لم أتذوقه منذ زمن طويل. لم أعد أتعامل مع الأرواح كما كنت أفعل لم أعد أختبرها أو أجردها من نفسها، تركتها تمر دون أن أمد يدي إليها وكأنني أريد أن أكون مرآة جديدة لهذا العالم، صورة أكثر رحمة من ظله المعتاد. أما هو، رَايْفان، فقد بدا أنه يحاول أن يتعلم كيف يتحرر من القسوة التي التصقت به منذ أن صار سيد المعاقِبين. كان يضحك أحيانًا... ضحكة حقيقية بلا سخرية ولا تهديد، يتركها تخرج منه وكأنها كانت حبيسة في صدره لقرون.

جلساتنا في القاعة العليا كانت تمتد لعدة ساعات نتحدث عن كل شيء وعن لا شيء، عن المدن التي لم نرها أبدًا عن رائحة البحر التي كنت أحملها من عالمي القديم حتى عن أحلامه التي لم يكن يجرؤ على البوح بها لغيري. كان يروي لي كيف يقيس خطواته بين الضعف والقوة، كيف يخشى أن يمد يده إلى النور فيحترق ومع ذلك يحاول... لأجلي.

كنت أراه يفقد جزءًا من عروقه السوداء يومًا بعد يوم وكنت أختار أن أبقى بشرية بلا أثر للسواد في جسدي كأنني أختبره وأختبر نفسي في آن واحد: هل يمكننا أن نحكم هذا العالم دون أن نغرق فيه؟

الجنود خضعوا لنا، لم يجرؤ أحد على الطعن في حكمه بعد أن رأوا ما فعله بخمسة من أقوى الدَّامُون أمام أعينهم. صارت قاعات القصر

تعرف وقع خطواتنا معًا وصارت أركانه تحفظ ضحكاتنا المتقطعة وهمساتنا الليلية حين كنا نتقاسم الأسرار الباردة.

مرت سنوات على هذا الحال والهدوء كان يشبه سطح بحيرة لا ترى ما يختبئ في قاعها. ومع كل عام جديد، كنت أعتقد أن الجليد بيننا يذوب أكثر وأنه يتعلم كيف يحب دون أن يتملك، كيف يقترب دون أن يخنق، كيف يثق دون أن يراقب.

لكن السلام في كَوْسَانُوكْتِيس لا يدوم أبدًا، وإن دام فإنه يخبئ وراءه عاصفة. بدأت التصدعات تظهر خفية كخطوط دقيقة على زجاج يلمع تحت الشمس، لا تراها من النظرة الأولى لكنك تعرف في قلبك أن الكسر قادم.

أولها كان حين دخلت روح جديدة، رجل ذو ملامح حادة وكتفين عريضين، يكسوه السواد لكنه يقف بثبات وكأنه لم يُكسر تمامًا بعد. لاحظت كيف انعكست صورته في عيني رَايْفَان قبل أن يلتفت إلي وكيف تغير الجو من حولنا.

ومنذ ذلك اليوم صار كل رجل يدخل العالم بعروق سوداء ويملك من الحضور ما يكفي ليملأ الفراغ... يُقتل قبل أن يصل إلى الساحة. لم يكن يسمح لهم بالمرور في الإختبار حتى، كان ينهي الأمر بيديه أمامي أحيانًا وبصمت ثقيل أحيانًا أخرى وكأن الموت أسرع وسيلة لمحو أي احتمال أن تتكرر قصة نُوفَار.

كنت أواجهه:

- توقف يا رَيْفَانْ، ليس كل من يدخل عدوك وليس كل من ينظر إلي يريد أن يأخذني منك.

فيبتسم ابتسامة ضيقة ويقول:

- أنتِ لا ترين ما أراه، أنتِ لا تعرفين كيف ينظرون إليكِ... كيف تبحث عيونهم عن ضعفك.

كانت كلماته تتسلل إلى رأسي مثل سم بطيء، حتى بت أحيانًا أشك في نظرات الأرواح من حولي لكن داخلي كان يقاوم كان يصرخ أنني لم أختر البقاء معه لأعيش سجينة شكه.

ثم جاء ما هو أسوأ. صار يراقبني أكثر، يتبع خطواتي حتى داخل القصر، يسألني عن كل كلمة قلتها عن كل التفاتة عن كل وقت تأخرت فيه. كان يغضب حين يجدني في الشرفة أراقب الأفق وحين أسأله لماذا، يجيب ببرود:

- لأنك تنتظرين شيئًا... أو أحدًا.

ومع كل مواجهة، كانت تشتعل بيننا معركة بالكلمات، أصرخ وأتهمه بأنه يخنقني فيصرخ ويقسم أنه يحمي ما هو له ثم تتكسر حدة صوته فجأة ويجلس عند قدمي يعتذر يمسك بيدي يقبلها يقول إنه لا يعرف كيف يتصرف معي إنه يخاف أن أفلت من بين يديه.

وفي كل مرة، كنت أصدقه... ولو قليلًا. كنت أقول لنفسي إنه يتغير إنه يحاول. لكن الليل كان دائمًا يخبئ الفجر نفسه: يعود، يعيد، يكرر.

إلى أن جاء الصباح الذي لم أنسه أبدًا. استيقظت ودموعي جافة على وجهي من بكاء ليلة كاملة ويدي ثقيلة على صدري وعيناي تحدقان إلى سقف الغرفة الحجرية. حين جلست، وقعت عيناي على جلدي... وعلى طول ذراعي امتد أول عرق أسود منذ أن صرت بشرية. لم أتحرك لثوانٍ، شعرت أن العالم توقف من حولي وأن كل صرخة قديمة عادت تصدح في أذني دفعة واحدة!

حين واجهته، انفجر النقاش بيننا حتى صار أشبه بمعركة. صرخت:

- انظر! انظر ماذا فعلت بي! أنت تُعيدني إلى الظلام بيديك!

فابتسم تلك الابتسامة التي تقتل أكثر مما تجرح وقال:

- لا... أنا فقط أحافظ عليكِ وأنتِ لا تتحملين الحماية.

لم يكن يعلم أنه كان السبب في أن أختار البقاء بشرية وأرفض استعادة تلك العروق السوداء رغم قسوة هذا المكان وقسوته هو. تخليت من أجله عن القسوة التي كانت تحميني، وعن البرودة التي كانت تقي قلبي من الكسر، وفتحت بابًا لم يُفتح يومًا على ضعفٍ لم أسمح لأحد بلمسه. ولأجله فقط استعدت أنوثتي، هشاشتي على أمل أن أجد شخصًا واحدًا لا يدفعني إلى الهاوية، لا يزرع في صدري بذور الشك والخوف والقلق.

لكنني اكتشفت أن ضعفي لم يُحتضن، ولم يُحمَ، بل قوبل بالإرهاق والتجريح. كان إنقاذه المزعوم يشبه الغرق، يخيفني ببروده، بصلابته، بذلك التقلب بين دفءٍ يخدع وبردٍ يقتل، وعندما كنت أطلب تفسيرًا، أو أبحث عن كلمة تطمئنني على الأقل تجاه ما يزرعه في داخلي، كان يجيبني: «أنتِ تائهة في متاهة».

لكنه لم يدرك أن المتاهة التي كان يتهمني بالتيه فيها كانت متاهته هو وأنه أدخلني إليها دون وعي عبر مزاجيته التي تفتح الأبواب وتغلقها بلا إنذار. كان يدخل ويخرج منها كما يشاء، بينما أظل أنا في الداخل أبحث عن إجابات، أدور في ممراتها الضيقة أفتش عن مخرج. كنت أظن أنه يكفي أن أواصل السير حتى أجد الطريق، لكن الحقيقة أنه لم تكن هناك أي بوابة تنتظرني، وأن الحل لم يكن في الاستمرار بالدوران داخل متاهته، بل في القفز فوق جدرانها والخروج منها إلى الأبد.

لم أكن أعلم، لم أكن أرى حجم الكارثة، كنت ألوم نفسي على الضياع والقلق الذي ينهشني، بينما الحقيقة أنني كنتُ فقط أمام رجل لا يعرف كيف يحب دون أن يهدم، ولا كيف يقترب دون أن يكسر، ثم يتقن فن الاتهام، فيلقي كل الركام فوق كتفي ويقول: «كانت غلطتك».

ومع ذلك بقيت متشبثة بذلك الحب، أو بوهم حب كغريق يتمسك بخشبة مهترئة في وسط العاصفة، حتى جاء اليوم الذي انكسرت فيه كل الوعود...

دخلت روح جديدة من البوابة، رجل طويل له حضور يفرض على العيون أن تتبعه، جسده منحوت بصلابة المحاربين، عروقه السوداء لا تغطيه بالكامل وعيناه... لم يكن فيهما سوى ذلك البريق الفضولي الذي يوقظ الأسئلة في داخلك قبل أن تطرحها. كنت أقف على شرفة غرفتي في القصر، أنظر إلى الساحة بأسلوب من يقتل الوقت لا أكثر ورأيت الرجل. لم أبحث فيه عن منقذ، لم أعطه وزنًا أكبر من كونه غريبًا جديدًا... لكنني أطلت النظر لحظة أكثر مما ينبغي.

لحظة واحدة كانت كافية.

زايْفان كان في الداخل، لم أره، لكني أحسست بثقله خلفي، بالشرارة التي اشتعلت في صدره وهو يراقبني من بعيد. لم يقل شيئًا في تلك اللحظة لكنني عرفت أن الشرخ قد بدأ وأنه لن يتركه يلتئم.

مرت الأيام التالية مثقلة بالصمت الحاد، بكلماته القليلة التي كانت تحمل أكثر مما تحتمل الكلمات وبعينين تتفحصانني كما لو كان يبحث في وجهي عن اعتراف لم أنطق به. وفي كل مرة يمر ذلك الغريب في الساحة، كنت أشعر بقبضته تشتد على مقبض سلاحه وكأن عضلاته تحفظ غضبًا مؤجلًا.

ثم جاء الليل الذي قرر فيه أن الغضب لم يعد يحتمل التأجيل.

كنت في غرفتي، الباب نصف مفتوح والليل يتسرب من الشرفة حين اندفع رَايْفَان إلى الداخل بخطوات ثقيلة كعاصفة تعرف طريقها إلى التدمير. قبل أن أنطق بكلمة، كان قد أمسك بشعري بكل قوته، شدني إلى الداخل حتى شعرت بجلدي يتمزق عند الجذور ودفعني بعنف نحو السرير.

- ماذا... ماذا تفعل؟!

لكن صوته كان قد غطى على صوتي، خرج منه كالحديد المحمي:

- أنتِ لي وستبقين لي... وإن لم تكوني لي حتى النهاية، فلن تكوني لأحد!

عيناه كانتا أوسع من أي غضب رأيته فيه من قبل وأعمق من أي حب ادعاه. رأيته يسحب الخنجر من جانبه ثم هبط على صدري. الانغراس كان بطيئًا كأن الزمن تمدد حولنا، الألم مزق آخر خيط يربطني بالحياة وسقطتُ على ظهري، أنفاسي تتلاشى، والبرد يزحف من الجرح إلى أطرافي.

ظل واقفًا للحظة، يحدق إلى وجهي بذهول كأنه ينتظر أن أوبخه على مزاح ثقيل ثم فجأة انكسر، سقط على ركبتيه بجانبي، احتضن وجهي الملطخ بالدم والدموع:

- لا!لا! لم أقصد، لم أرد قتلك! أردت أن أحميك... أردت أن أبقيكِ معي... أن أبقيكِ لي!

سمعته بما تبقى من أنفاسي يبكي بكاءً لم يبكه رجل في حياته، بكاءً يخلط بين صرخة طفل ضائع ونحيب ملك مخلوع، دموعه تنزل على وجهي:

- كنتِ حياتي، مَلَيْكانا... لكن حياتي لم تكن حياة، كانت سجنًا من العروق السوداء وأنا كنتُ حارسه وسجينه في آنٍ واحد. لم... لم أرد يومًا أن أراكِ حرة لأن الحرية كانت تعني أن ترحلي، وأن أعود أنا إلى وحدتي... وأنتِ تعرفين، أنا لا أحتمل الوحدة... كنتُ أفضل أن أراكِ تذبلين أمامي على أن أراكِ تزهرين بعيدًا عني.

صوته كان ينكسر في منتصف الجمل، يتوقف لحظة، يبتلع ريقه ثم يواصل:

- كنتِ نقية أكثر مما أستحق وكنتُ أعلم أنني أقتلكِ ببطء، ألوث روحكِ بظلي، أستنزف نوركِ قطرة بعد قطرة ومع ذلك، كنتُ أبتسم. لأن كل قطرة تسقط، كانت تعني أنكِ ستبقين هنا، بجانبي، مربوطة بي، حتى لو كانت السلاسل من دمكِ... حتى لو كانت القيود هي قلبك.

اقترب مني أكثر، جبهته تلمس جبيني وصوته ينخفض:

ربما لو كنتُ أحبكِ أقل لعشتِ أكثر، لكنني لا أعرف للحب معنى سوى أن أمتلك وأسيطر وأخفيكِ عن العالم، حتى لو صرتِ سجينةً في يدي، ثم أهرب حين أشعر أنني سأحطمك. ومع ذلك، لم أكن أريدكِ أن تخرجي، ليس لأنكِ لا تستحقين النور، بل لأن النور كان سيفضح كم أنا مظلم... وكنتُ خائفًا أن ترى ذلك.

وفجأة اندفع الدم على وجهي اندفاعًا أعماني للحظة، ورؤيتي الموشحة بالغشاوة التقطت مَشهده الأخير... يده القابضة على الخنجر المغروس الآن في عنقه، وعيناه تحدقان إليّ بنظرة حزينة...

سقط إلى جانبي، يده تبحث عن يدي، أصابعه الباردة تشبك أصابعي، نظر إلي والدم يختلط بابتسامته الأخيرة وقال بصوت مبحوح خافت لكنه أوضح من أي حقيقة:

- سا... سامحيني يا لؤلؤتي، كنتُ أريد أن أنقذكِ من الجحيم... فانتهيتُ بكوني جحيمكِ.

تركنا عروشنا خاوية وأجسادنا زاوية وكوْسانوكْتِيس جارية في ابتلاع الأرواح غير عابئة أن اثنين من رُعاتها سقطوا تحت راية الحُب وغباوته.

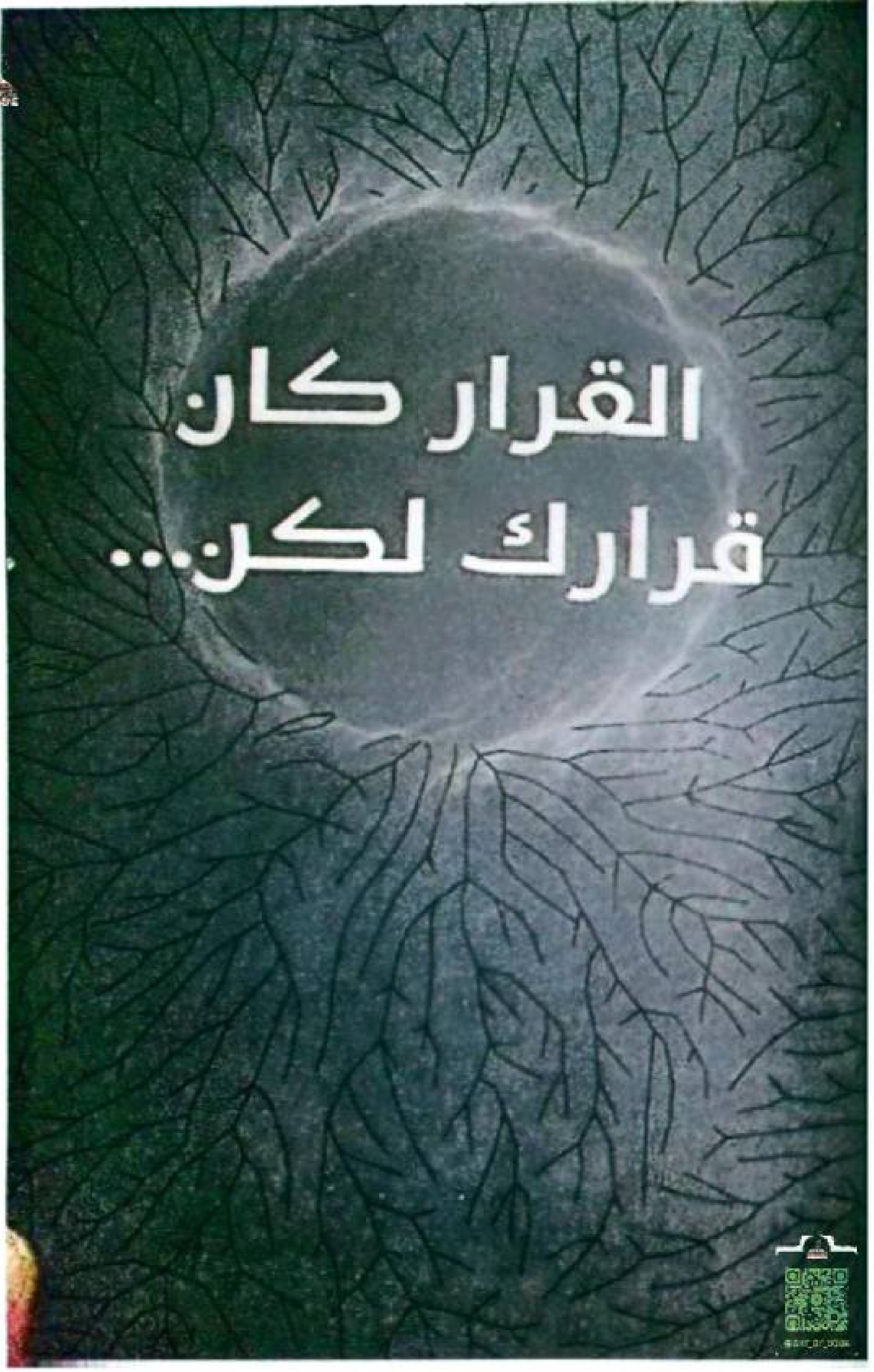
القرار كان
قرارك لكن...

- شكرًا... شكرًا لأنكم اخترتم. لقد ساعدتموني أكثر مما تظنون. الآن أعرف أي قرار يجب أن أتخذ.

فتحت عيني أخيرًا على نفس المشهد...

- رَايْفَان! رَايْفَان! رَايْفَان!

... نفس الأرضية الملطخة بآثار الدم القديمة. نفس الجدران التي تعرفت على أنين مئات الأرواح. رَايْفَان واقف على جهة يده ممدودة نحوي أصابعه تصف منغلقة كما لو كان يعرف مسبقًا أنني سأملأ الفراغ بينها. على الجهة الأخرى كان نُوفَار يفعل الشيء نفسه يده ثابتة نظراته حادة.

شعرت بشيء ينساب في عروقي لم أعرفه منذ قرون: السلام. سلام يطفئ جذوة الخوف يبرد رماد الحزن ويجعل الغضب يذوب مثل الثلج في يد دافئة. كان شعورًا لا يشبه النصر ولا الهزيمة... بل يشبه عودة النفس إلى بيتها.

وفجأة، جاء صوت نُوفَار يخترق سكوني:

- مَلَيْكَانَا، عليكِ أن تخرجي الآن وأنتِ بلا عروق! هذه فرصتك الوحيدة!

لم أتحرك، لم ألتفت. فقط نظرت إليه من حيث كنت، بعينين تعرفان الجواب قبل السؤال:

- أعرف من أنت ولن أكون مفتاحك.

تغيرت ملامحه كمن صُفع على غفلة منه:

- أنتِ تمزحين، أنتِ لا تعرفين شيئًا!

ابتسمت ببطء:

- بل أعرف أكثر مما تتخيل.

اندفع نحوي فجأة كصياد يهوى على فريسته. خطواته تقطع المسافة، كتفاه يتوتران وعضلات عنقه تتقبض لكن قبل أن تلامس يده جسدي، كان رَايْفَان قد ظهر بيننا. قبض على ذراعه بيد كالجدار وبلا كلمة... غرس الخنجر في عنقه.

لكن نُوفَار لم يسقط لم يصرخ، بل ضحك وهو يقول:

- وكيف عرفتِ؟

لم أجب... رأيتُ جسده يبدأ بالتحلل إلى غبار أسود، جزيئات صغيرة تتطاير مع أول تيار هواء وقبل أن يختفي تمامًا، ترك جملته الأخيرة تتردد في الفراغ:

- سأعود... في شكل آخر... لكنني سأعود!

ثم لم يبقَ منه سوى الفراغ وذرات سوداء تتلاشى في الهواء.

رَايْفَان ظل ينظر إلى المكان الذي كان فيه كمن يحاول فهم مشهد لا منطق له ثم التفت إلي:

- ما هذا... ما الذي كان؟!

قلت بهدوء:

- هم يعرفون.

- من هم؟

- الذين اختاروا نُوفَار.

- لم أفهم، أخبريني!

- ليس هذا موضوعنا، رَايْفَان.

اقترب خطوة، عيناه تتفحصان وجهي كمن يحاول قراءة ما لا يُقال:

- نعم... معكِ حق. ما يهم هو أنكِ اتخذت القرار الصحيح.

نظرت إليه طويلًا، ثم قلت:

- لا، رَايْقان... القرار الصحيح كان يجب أن أتخذه منذ ألفي عام.

تجمدت ملامحه. وواصلت:

- يوم تركتني أمام هذه البوابة وذهبتَ إلى ظلامك، كنتُ بلا عروق، أستطيع الخروج لكنني بقيت أنتظرك. أنوي على العتبة، كمن ينتظر معجزة من جحيمه. كنت أظن أن الحب يعني أن أظل أن أتحمل أن أستحقك بألمي. لم أرَ أن ما كُسر فيك لا أستطيع إصلاحه إن لم تُصلحه أنت. لم أفهم أنني كنت أقتل نفسي بمحاولة إحياء قلبك.

ارتفع صدره في شهيق بطيء وصوته انخفض كأنه يفاوض القدر:

- يمكننا أن نبدأ من جديد كملك وملكة... علميني أن أحب.

أجبت وأنا أرفع يدي بيننا، إشارة توقف:

- لا، رَايْقان... لن أختارك على حسابي. قضيت حياتي أبحث عن نفسي في عيون الآخرين، أختفي في مراياهم. فعلتُها مع الجمهور، مع الرجال... معك. واليوم، أفهم أن كل خطوة في اتجاهك كانت ابتعادًا عني. كنت أركض وراء رجل يركض من نفسه واليوم أختار أن أركض نحوي.

صمته كان مثل جدار أخير ينهار، قلت وأنا أنظر في عينيه:

- الحب الحقيقي لا يطلب أن أفقد نفسي لأجله. وها أنا... أختار نفسي، وقررتُ بدلًا من أن أواصل السير في ممرات متاهتك أن أقفز فوق جدرانها وأخرج منه. الحب الحقيقي لا يطلب أن أفقد نفسي لأجله، ولا يسعى إلى تقييدي أو التحكم بي، بل يكون فخورًا بامرأته ويعاملها كملكته الحقيقية، لا كملكة مقيدة بالسلاسل

باسم الحب. الحب الحقيقي ليس سيطرة، بل أمان، ليس قيدًا، بل مساحة أتوسع فيها، ليس خوفًا من أن أضيء، بل رغبة في أن أزداد نورًا.

ابتسمت بمرارة:

- أردتَ العرش يا رَايْفان... لك ذلك، احكمه، لكنني لن أعتلي تاجًا من رماد بعد الآن.

ثم قفزت إلى قلب البوابة.

الدوامة ابتلعتني بقوة عظيمة، تدور بي حتى شعرت أن عظامي تنفصل عن بعضها، أن جلدي ينزع عن روحي، أن كل ما كنتُه يتفتت في الريح.

الأصوات من حولي كانت خليطًا من صرخات بعيدة وضحكات مألوفة، وجوه أحببتها وأخرى خفتها، كلها تدور ثم تختفي وكلما انكسرت صورة... تحررتُ منها.

رأيت حبا قديمًا لم يكن حبا، بل جرحًا يتغذى على ذاته، رأيت نفسي أمامه كما كنت: صغيرة، منحنية، تنتظر أن يختارني وابتسمتُ لهذه الصورة لا بحب ولا بكره، بل بسلام قبل أن أتركها تسقط من يدي. رأيت تلك المرأة التي جلست ألفي عام على العتبة، تنتظر رجلًا صار معاقبًا وأدركت أنني لستُ هي بعد الآن.

كل لفة في هذه الدوامة كانت تجردني من طبقة أخرى من الخوف من الحزن من الغضب... حتى لم يبقَ سوى شيء واحد: أنا الحقيقية التي كنتها.

أنا التي تضحك، أنا التي تحيا، أنا التي تحلم، أنا التي لا تحتاج أن تنكسر كي تُحب.

أغمضت عيني وتركت جسدي يتبع التيار، شعرت بالريح تخترق شعري وثوبي، حتى لفظتني البوابة إلى الخارج.

سقطت على الأرض، حجارة باردة تحت يدي، هواء مختلف، فيه رائحة المطر لا الدم، وقفت استنشقته حتى ملأت رئتي به ثم ابتعدت بضع خطوات عن البوابة ثم استدرت أنظر إليها.

دمعة انزلقت على خدي... دمعة على ما كنا نستطيع أن نكونه، دمعة على نفسي القديمة، على الملكة التي توجت لا لأنها قوية، بل لأنها كانت حزينة.

استدرت لأكمل طريقي وكلما مشيت كان العالم من حولي يتغير، الظلام الذي كان كثيفًا بدأ يرق، الألوان تعود ببطء، الوجوه التي كانت مغطاة بالعروق السوداء بدأت تشرق كأن النور يتسرب من أعماقهم.

ثم... شعرت بيد على كتفي.

تجمدت.

التفت ببطء وعيناي تتسعان!

كان هو.

رَايْفَان... لكن بلا عروق بلا ظل السواد الذي كان يلتف حوله كوشاح لقرون، بشرية صافية كأنما خرج للتو من رحم النور، جلده أنقى مما كان يوم وقفنا معًا أمام البوابة أول مرة. لم أره هكذا قط لا في الماضي ولا حتى في أحلامي الأكثر تفاؤلًا.

كنتُ أبحث في ملامحه عن ذلك الوميض القاسي الذي اعتدته، عن تلك الحافة الحادة التي كانت دومًا تفصلنا... فلم أجد شيئًا. وجدت وجهًا عاريًا من كل الأقنعة، ملامح حقيقية لرجل كان مدفونًا تحت طبقات من الغضب والسيطرة والظلام.

تقدم خطوة، عيناه ثابتتان في عيني وقال بصوت منخفض:

- رؤيتكِ تختارين نفسك... جعلتني أختارني أنا أيضًا. كنتُ أظن أنني أستطيع أن أحتفظ بكِ وأنا غارق في سوادي، أن أكون ملككِ بينما أظل سجان نفسي لكنكِ جعلتني أرى الحقيقة. فهمت أنني لن أستحقك إلا إذا نزعتُ سوادي بيدي إلا إذا تعلمت أن أحب دون أن أملك أن أفتح يدي بدل أن أُغلقها حولكِ.

اقترب أكثر حتى شعرت بحرارة أنفاسه ثم مد يديه وأخذ يدي بين كفيه. كانت قبضته هذه المرة مختلفة: لا تشدني لا تأسرني، بل تثبتني كما يثبت المرء شيئًا يخشى أن يسقط منه لا لأنه ملكه... بل لأنه ثمين.

ابتسمت ابتسامة صغيرة لكنها كانت الأولى منذ ألفي عام شعرت فيها أننا نقف على الأرض نفسها، على خط واحد، دون أن يكون أحدنا أعلى من الآخر أو أسفل منه.

لكن قبل أن أفتح فمي لأجيبه، اهتزت الأرض تحت أقدامنا.

السماء فوقنا انشقت كزجاج يتصدع والهواء نفسه تمزق كما لو أن العالم يلفظ أنفاسه الأخيرة.

صرخت:

- رَايْفَان! ما الذي يحدث؟!

أجاب وهو يحدق حوله بعينين متسعتين:

- لا أعلم!

ثم أحاطت بنا قوة لم أعرف مثلها قط، قوة تجرنا من كل اتجاه، تمزق المسافة والزمن حتى شعرت أن جسدي يُسحب من داخله لا من خارجه. كان كل شيء يبتلعنا من جديد!

وفجأة... فتحتُ عيني، فتحتُهما مرتين، كأن المرة الأولى لم تكفِ لأصدق ما أراه. كنا ننظر إلى بعضنا، أيدينا متشابكة تمامًا كما كانت منذ ألفي عام. لا، لم يكن الأمر مجرد تشابه... كنا فعلًا هناك، في تلك اللحظة، منذ ألفي عام!

ما الذي يحدث بحق السماء؟!

أرتدي الثياب نفسها التي دخلت بها كُوْسَانُوكْتِيس أول مرة وزَيْفَانْ كذلك بنفس الملامح بنفس الوقفة بلا ظل العروق. نظرت حولي... كان كُوْسَانُوكْتِيس كما كان قبل ألفي سنة كأن كل ما عشته بعد ذلك لم يكن إلا غيابًا عن هذا المشهد!

تجمدت، لا أفهم، نظراتنا تتنقل بين الوجوه والبوابة أمامنا. خرج السؤال من فمينا معًا، بنفس النبرة تقريبًا:

- ماذا نفعل هنا مجددًا؟!

لكن الإجابة جاءت من داخلي قبل أن ينطق أحدنا: لا... لسنا هنا مجددًا، نحن لم نغادر قط.

قلتُ ببطء:

- أظن أن...

فقاطعني، عيناه تتسعان كمن لمح الحقيقة خلف ستار سميك:

- انتظري... أعتقد أن هذا هو... لا... مستحيل!

- ماذا؟!

قال وصوته يرتجف:

-كل هذا... لم يكن سوى الامتحان الحقيقي!

رفعت حاجبي، همست:

- ماذا تعني؟ لقد اجتزنا الاختبارين، أليس كذلك؟ اختبار الجسد واختبار العقل؟

أجاب وهو يلتقط أنفاسه:

- نعم... لكن أظن أن هذين الاختبارين كانا فقط ليجعلاننا نرى جراحنا بوضوح. أما الاختبار الحقيقي...

أكملتُ عنه واليقين يتسلل إلى صوتي:

- كان اتخاذ القرار... لأن الوعي بلا فعل...

فأومأ وأكمل:

- لا يحررنا من جحيم كُوْسَانُوكْتِيس.

طال صمتنا لحظة ثم نظرتُ إليه طويلًا وقلتُ:

- هذا يعني أنني... لم أكن يومًا ملكة؟

ابتسم بمرارة وأجاب:

- ولم أكن يومًا سيد المعاقبين.

قلت:

- إذن كان هذا هو الاختبار الحقيقي... الاختبار كان البوابة!

قال:

- أن تختاري نفسك وتخرجي.

قلت:

- وأن تشفي قلبك بما يكفي لتثق وتحب من جديد دون أن تسيطر.

أطرق قليلًا ثم رفع نظره فجأة:

- لكن... ماذا عن كل الأرواح التي عذبناها؟

التفت خلفي، كانت الأرواح ما تزال هناك... جميعها. قلتُ بهدوء:

- أظن أننا لم نكن نختبرهم... بل كنا نختبر أنفسنا من خلالهم.

هز رأسه بتفهم:

- لهذا السبب مع المؤثرة مثلًا...

قلت:

- نعم، كان دائمًا اختبارًا... وأنتَ مع السيطرة.

ابتسم بحزن:

- كان اختباري أنا أيضًا. وفي النهاية، كل الأرواح التي اختبرناها كانت أجزاء منا نحاول كسرها.

نظر حوله كمن يعيد قراءة كل ما عاشه:

- إذًا... حكمُنا كان وهمًا؟ كل هذا؟

قلت:

- نعم، أعتقد أن هذا العالم قدم لنا وهمًا ليرى أي قرار سنتخذه في النهاية. كنا نظن أننا فشلنا في الخروج لكن الحقيقة أننا كنا نجتاز الاختبار الحقيقي ألفي سنة كاملة... حتى اتخذنا أخيرًا القرار المناسب!

تقدمت خطوة نحوه وقلت بوضوح:

- اجتزنا اختبار الإدراك ثم اختبار الفعل: اختبار البوابة. لم نكن نحكم كُوْسَانُوكْتِيس بل كانت هي التي تحكمنا.

ثم همس بقوة:

- تفضلي يا ملكتي التي اختارت نفسها والتي سأسير معها حتى آخر حدود العالم الحق، لا حبا فحسب، بل اختيارًا وميثاقًا.

خطوة...

خطوتان...

ثلاث...

فإذا بالنور يبتلعنا ابتلاعًا ويكسو أرواحنا انطلاقًا ويطوي خلفنا ألفي عامٍ من الوهم والعذاب.

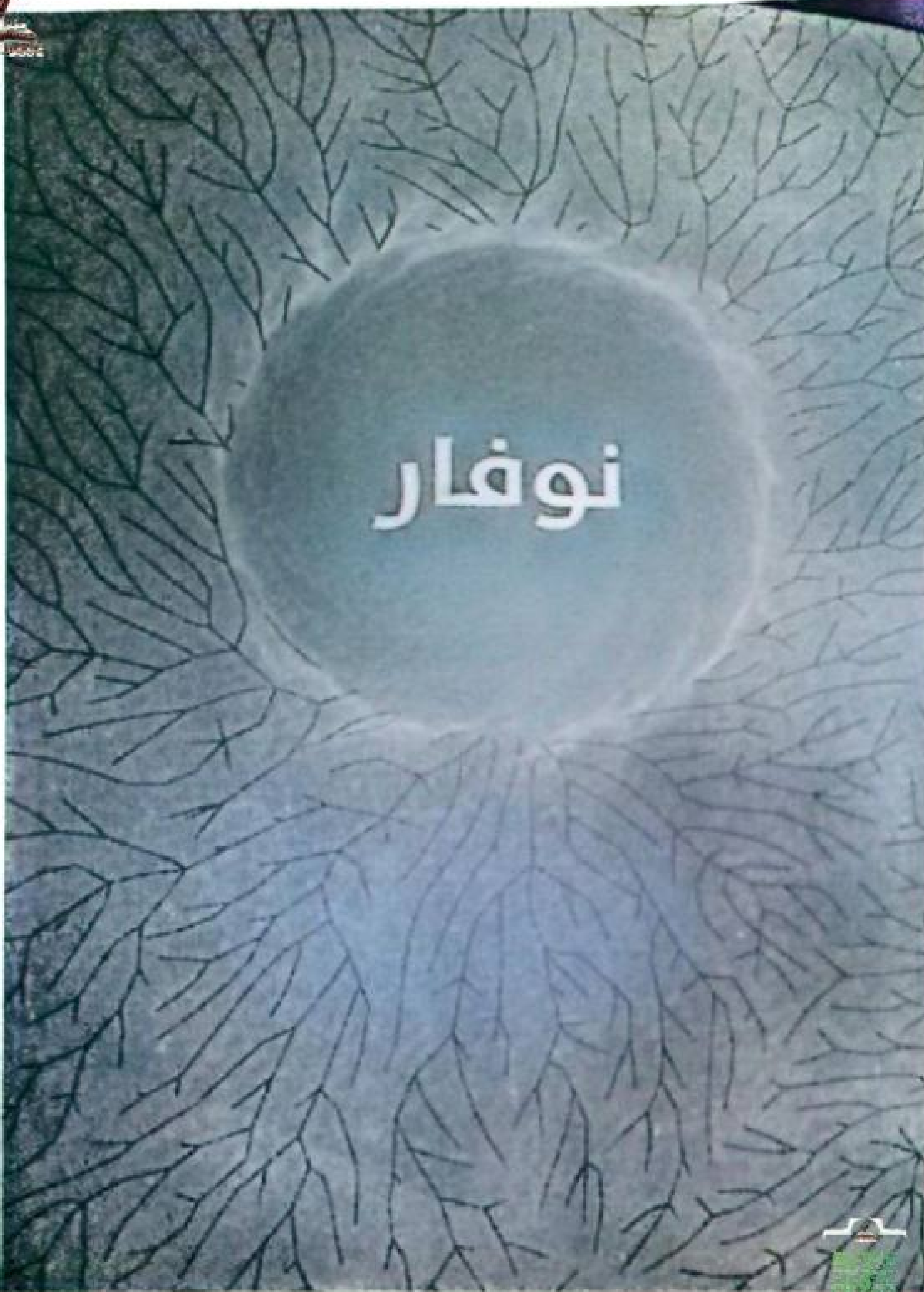
نوفار

أراهم يعبرون، اجتازا الامتحان، لكن زوجتي ما زالت مقيدة بالسلاسل وأنا لن أهدأ حتى أحررها. سأجد ملكًا وملكة يحكمان كَوْسَانُوكْتِيس ويقودان جيشي إلى هذا العالم وحينها سيسقط القيد أخيرًا... وما أن تطأ الأرواح أرضكم حتى تدركون أن اللعنة الحقيقية لم تبدأ بعد!

كلمة المؤلفة

ART_OF_BOOK

سيجدكم أنتم، وليس عليكم أن تبحثوا عنه.

ستعرفونه حين يأتي، دون خوف أو شك أو ارتباك،

ستعرفونه... فقط عندما تختارون أنفسكم أولا.

- لولا -

مهما كان اختياركم، تذكروا:

لا تنتظروا رايفان بلثتم لينقذكم،

ولا نوفار يمد يده ليخرجكم.

أنقذوا أنفسكم، واختاروا أنفسكم.

فالحب الحقيقي، الذي يحمل السكينة والأمان،

سيجدكم أنتم، وليس عليكم أن تبحثوا عنه.

ستعرفونه حين يأتي، دون خوف أو شك أو ارتباك،

ستعرفونه... فقط عندما تختارون أنفسكم أولا.

- لولا -